مدخل إلى
علوم القرآن الكريم والسنة النبوية

الدكتور محمد المفتي

جامعة آل البيت

2022م

أمواج للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، والصلاة والسلام على رافع لواء الهدى محمد - صلى الله عليه وسلم- وعلى آله وصحبه والداعين بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد : فليس في تاريخ الإنسانية كتاب كان له من التأثير في التاريخ والفكر الإنساني مثل ما كان للقرآن ، بل يمكن القول إنه ليس في تاريخ الإنسانية خطاب ظل حاضرا بنفس القوة والتأثير عبر العصور اللاحقة كنزول القرآن ، فهو خطاب متجدد مستمر الفعالية ، حاضر بثقله الكبير في كل منعطفات التاريخ الإسلامي ، موجها وهاديا للمسلمين ، ومجددا لانبعاثهم ، ومعبئا لطاقاتهم ، ومستقطبا للبحث والتفكير في ثقافة الإسلام بشكل لا يماثله فيه نص آخر .. لقد أحيط القرآن باهتمام فائق من المؤمنين به ، فكان حفظه بالنسبة إليهم بمثابة حفر في الذاكرة والقلب ، فكل حرف من حروفه ، ولفظ من ألفاظه، هو موضع الحجة والحكم ، ومناط الاستنباط والاستدلال ،وظل القرآن محفوظا رغم ما عرفه تاريخ الإسلام من فتن وانقسامات وحروب مذهبية .

وتبعا لهذا الجهد الذي قام به المسلمون كافة في كل عصر ومصر ، فقد حاول علماؤهم ، تحليل كل الجوانب التي تفسر هذا الحدث العظيم ، ولا نجد قرنا من الزمان منذ نزول القرآن والى يومنا هذا ، قد خلا من مصنفات قيمة دبجتها أقلام أعلام المسلمين ، خدمة لكتاب الله تبارك وتعالى ، تنوعت وتشكلت على حسب الظروف ، والتخصصات ، والمقدرة العلمية لكل عالم ، فكشف لهم القرآن وهم يبحثون في علومه المختلفة ووجوه إعجازه ، عن بحار ليس لها ساحل ، ووجدوا أنفسهم قد خاضوا في لجج ليس لها قعر ، وكل عاد بلؤلؤة كريمة ، أو عقد نظيم ، وبقيت ثمة خزائن تفوق الحصر ، ومفتاحها تدبره والنظر فيه..... ودلونا بدلونا ، فاخترنا بعض المباحث التي رأيناها أنها ألصق بهذا العلم ، واجتهدنا في تحرير مسائلها في عبارات مبسطة واضحة المعاني ، بعيدة عن الحشو والتطويل .

وأما السنة النبوية فهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي ، حيث تناولنا فيه أهم القواعد والأسس

التي اتبعت في قبول الحديث ورده، وفي تحمله وأدائه، وما يلحق بهذا العلم من علوم مختلفة تتعلق بأحوال الرواة والمرويات وما يترتب على ذلك من أحكام بين القبول والرد.
وقد جاء هذا الكتاب ليسر على الطلبة فهم قواعد فن الحديث وأصوله ومصطلحاته، ولا سيما أن أكثر الكتب بين المطول والمفصل، أو المختصر والموجز البعيد عن معالجة المفاهيم الحديثة، التي أصبحت موضع سؤال وطلب. ولا نرى أن هذا الكتاب يغني عن كتب العلماء الأقدمين، وإنما قصدنا أن يكون مفتاحاً لها، فقد صنف الأئمة والعلماء الأقدمون مصادر أمّات للمتخصصين في هذه العلوم، فكانت معيناً فياضاً ينهلون منه.

وهذه موضوعات يسيره في تاريخ علوم القرأن والحديث، نقدمها للطلاب الأعزاء بأسلوب سهل غير مطول، غني بالأمثلة والشواهد، إذ لجأنا إلى تبسيط العبارات النصية بأسلوب يتناسب مع مختلف التخصصات العلمية على شكل نقاط بارزة لتعين الطالب على الفهم وعلى تصور موضوعات المنهج وأساسياته.

ولقد لقينا تشجيعاً على تقديم هذه المادة في كتابٍ ينتفع به الطالب والمدرس، فقد جاء الكتاب ترجمة حقيقية لجميع وحدات المساق. وليسد ثغرة في مكتبة الدراسات الإسلامية لطلبة الجامعة على الخصوص، ولطلبة العلم على العموم.
وحاولنا قدر المستطاع التقيد بمفردات منهج المادة المقررة إلا أن مقتضيات التأليف والتصنيف اضطرتنا أحيانا إلى بعض الإضافات أو الزيادات، أو التوسع أحياناً في بعض الفقرات.

ولا ندعي أن في كتابنا جديداً، فكل ما فيه عالة على أسلافنا العلماء ومأخوذ من علمها، فإن كان في هذا التأليف من فضل فراجع إلى أهله، وهم أساتذة هذا الفن الجليل من علمائنا المفسرين والمحدثين السابقين الذين أفنوا أعمارهم في سبيل البحث والتقصي، فجاء علمهم نافعاً ومفيداً..

ولا بد من ملاحظة أن الكتاب أعدّ للطالب الشاب الذي لا يقرأ كثيراً في هذا الموضوع، ولذلك آثرنا تبسيط القواعد وتيسير العرض والنأي عن التعقيد في العرض أو الموضوع ما أمكننا ليتسنى للطالب أن يواصل القراءة وللراغب في المعرفة أن يعرف فالتيسير مقصود بداية ومطلوب غاية.

كذلك جاء الكتاب منسجماً مع توجهات وفلسفة جامعة آل البيت في بناء قاعدة فكرية سليمة بعيدة عن التعصب والغلو قريبة من الحوار العلمي الموضوعي المتزن، واحترام الرأي والرأي الآخر، وتقريب وجهات النظر.

وقد جمعنا في كتابنا هذا بين أمّهات المصادر والمراجع وبين الكتب الحديثة.

وفي الختام: لا يفوتنا أن ننبه إلى أن أعمال البشر يعتريها الخطأ والنسيان، فإن وفقنا فمن الله وإن أخطأنا فمن أنفسنا، ولا يستغني أحد عن التسديد والنصيحة والتوجيه، ولا يستقيم أمره إلا بتوفيق مولاه، فنسأل الله التوفيق والسداد، والعون والرشاد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلفون

الوحدة الأولى

مدخل إلى علوم القرآن الكريم

معنى علوم القرآن

جملة علوم القرآن : مركب إضافي[1] مؤلف من كلمتين ، أضيفت الأولى إلى الثانية ، فلزمت الثانية الجر بالإضافة، وهو النوع الثاني من جر الأسماء، والنوع الأول هو الجر بحروف الجر [2] . وعلوم -جمع علم -، والعلم كما يقول الراغب : (: هو إدراك الشيء بحقيقته. أي : إدراك ذات الشيء) [3].

والمقصود بهذا المركب الإضافي - علوم القرآن - هو: جميع العلوم والمعارف المتصلة بكتاب الله تعالى ، والتي تعين على فهم معانيه ومقاصده ، وما يتصل به من قريب أو بعيد ، مثل :علم التفسير والقراءات والرسم العثماني ، والناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، وغيرها من العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم .

معنى القرآن الكريم لغة وشرعا

---

[1]– انظر هذا الفصل في العقد النظيم في علوم القرآن الكريم، سامي عطا، غير منشور، بتصرف.

المركب :– كل لفظ كان في أصله مكونا من شيئين ثم صار شيئا واحدا ، ويتنوع المركب بحسب مكوناته الى أربعة أنواع :–

–مركب إسنادي :– وهو المنقول من جملة أصلها فعلية أو اسمية مثل : جاد المولى ، وتأبط شرا .

–مركب مزجي :– وهو كل اسمين جعلا اسما واحدا ، نحو : بعلبك ، حضرموت.

–مركب إضافي :– وهو كل اسمين جعلا اسما واحدا ، نحو : عبد الرحمن ، أبو خالد .

مركب عددي :– وهو من المركب المزجي غالبا ، وان كان يرى فيه آخرون أنه ليس منه وأنه يغايره نحو : خمسة عشر ، وسبع عشرة .. انظر : المصطلحات النحوية –د. محمد سمير نجيب اللبدي –ص 94–95.

[2] – اختص الاسم بنوعين من الجر لعدم دخوله على الأفعال ، كما اختص الفعل المضارع بنوعين من الجزم وهما : الجزم بأدوات الجزم ، والجزم في جواب الطلب ، لعدم دخول الجزم على الأسماء

[3] – مفردات الراغب الأصفهاني مادة –علم– .

المعنى اللغوي للقرآن الكريم:-

اجتهد العلماء في بيان أصل هذه الكلمة(قرآن) على أقوال ، والراجح منها ما ذهب إليه الزجاج واللِّحياني من أنه: وصف على فعلان ، مهموز، مشتق من القَرء بمعنى الجمع ، ومنه قرأت الماء في الحوض ..إذا جمعته ، وسمي الكلام المنزل على النبي المرسل به ، لأنه جمع السور ، أو جمع ثمرات الكتب السابقة، وأما ترك الهمز فيه في بعض القراءات [1] ، فهو من باب التخفيف ، وجعل علما شخصيا[2] يطلق على مجموع الكلام المنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - المبدوء بسورة الحمد ، والمختوم بسورة الناس ، وعلى أجزائه.[3]

المعنى الشرعي للقرآن

عرف العلماء القرآن شرعا بأنه (القول المنزل على النبي محمد - صلى الله عليه وسلم – المعجز بأقصر سورة منه ، المتعبد بتلاوته ، المنقول إلينا بين دفتي المصحف نقلا متواترا)[4]

فائدة دراسة علوم القرآن

نزل القرآن الكريم على قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليكمل به وبشريعته العامة الخالدة صَرْحَ إخوانه من الرسل السابقين ، ولما كان القرآن وافيا بكل متطلبات الحياة من عقيدة ، وعبادات ، ومعاملات ، كان حَرِيّاً بالمسلمين أن يتخذوه إماما ونبراسا ، يهتدون بهديه ، ولا يتأتى ذلك إلا بعد قراءته، وحفظه ، وفهمه وتفسيره ، ثم العمل به . ولا يمكن البحث في تفسير القرآن وتأويله بأي حال من الأحوال لكي يعطي النتيجة المرجوة ، إلا إذا كان الباحث ملما بكل ما يحيط بالقرآن الكريم من علوم وفنون تخدم القرآن من جميع نواحيه ، وهذه العلوم التي تخدم التفسير من كل ناحية من نواحيه سميت - بعلوم القرآن- ، وهنا يمكن أن نبين فوائد دراسة هذه العلوم ، ونوجزها فيما يلي :-

أولا :- معرفة الأحوال التي لابست القرآن الكريم في كل عصر من العصور منذ نزوله على النبي - صلى الله عليه وسلم- الى الآن ، فمن هذا العلم نعرف كيف عني النبي - صلى الله عليه وسلم- وأصحابه بالقرآن أتم عناية ، حتى لا يضيع شيء منه ، ولا يختلط به ما ليس منه ، فحرصوا على صيانته من ذلك كله بطريقتين :-

1 _ طريق حفظه في الصدور .... 2 - طريق كتابته وحفظه في السطور .

ثانيا :- معرفة الشبهات التي وردت عليه من نواح عديدة ، ودفعها .

ثالثا :- معرفة الشرائط التي لا بد من توفرها فيمن يريد التصدي لتفسير كتاب الله

رابعا:- الاستعانة بأبحاثه الكثيرة القيمة على فهم القرآن الكريم ، والوقوف على شريف أسراره ، وكريم

---

[1] – انظر : شرح طيبة النشر : للنويري : 2: 321–322.

[2] – العلم الشخصي : هو ما خصص في أصل وضعه بفرد معين ، فلا يتناول غيره من أفراد جنسه وذلك نحو : محمد ، علي ، فاطمة ،وهذا النوع من العلم يقابل علم الجنس الذي يتناول الجنس كله دون تعيين واحد بعينه مثل : رجل ، امرأة انظر : معجم المصطلحات النحوية ص113.

[3] – منهج الفرقان في علوم القرآن : محمد علي سلامة : 7–9.

[4] – منة المنان في علوم القرآن : إبراهيم عبد الرحمن خليفة : 10

أغراضه. ولهذا العلم فوائد أخرى كثيرة تجدها في مظانها [1]

أسماء القرآن

لقد اختار الله لوحيه أسماء جديدة ،مخالفة لما سمى العرب به كلامهم جملة وتفصيلا وليس لفظ - القرآن - هو الاسم الوحيد لهذا الكتاب السماوي ، بل إن لهذا الكتاب فوق هذا الاسم الذي هو أشهر أسمائه ،اسم آخر هو : الكتاب : كما في قوله تعالى :-(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا)(الكهف : 1) ، والكتاب في الأصل :مصدر كتب ، تقول :كتب كتابة وكتبا وكتابا ، والمراد به هنا : المكتوب ، أي في اللوح المحفوظ ، أو المكتوب على العباد فرضية قبوله ، والعمل به ، على كل أحد من الثقلين لعجزهم عن الإتيان بمثله أو بسورة من مثله .. وبقية الأسماء هي في الحقيقة صفات .

قال الشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز : [روعي في تسميته قرآنا : كونه متلوا بالألسن ، كما روعي في تسميته كتابا : كونه مدونا بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه ، وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أنه من حقه العناية بحفظه في موضعين لا موضع واحد ، أعني : أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا ،.... وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية ، اقتداء بنبيها ، بقي القرآن محفوظا في حرز حريز ،إنجازا لوعد الله الذي تكفل الله بحفظه حيث يقول : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)(الحجر: 9)] [2]

تسمية القرآن المكتوب بالمصحف

لم يطلق لفظ (المصحف) على القرآن المكتوب إلا في عهد أبي بكر -رضي الله عنه- .وقد شكك بعض المستشرقين في عربية هذه اللفظة، وزعموا أنها حبشية.[1]

وللرد عليهم نقول : إن هذه اللفظة -مصحف - ، تداولها العرب في جاهليتهم والمسلمون من بعدهم بنفس المعنى الذي قصدته التسمية البكرية . ..

قال امرؤ القيس :

أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان ([3])

وقال أبو ذؤيب الهذلي :

فنمنم في صحف كالرياط فيهن إرث كتاب مُحي ([4])

قال لقيط ابن يعمر الإيادي (في قصيدته المشهورة):-

كتاب في الصحيفة من لقيط إلى من في الجزيرة من إياد ([1])

---

[1] – انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم : ص 26

[2] – النبأ العظيم : 8.

[3] – شرح ديوان امرىء القيس –مطبعة هندية بالموسكي بالقاهرة سنة 1928م .

[4] – شرح ديوان الهذليين ج64/1 .

كما وردت كلمة الصحف ثماني مرات في القرآن الكريم .([2]) ووردت عدة مرات في كتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، والصحابة - رضي الله عنهم أجمعين- مما يجعلنا نؤكد أن الكلمة عربية الأصل في بنيتها وجرسها ، وعرفها العرب واستعملوها في لغتهم قبل أن يسمي سيدنا أبو بكر - رضي الله عنه- الكتاب الكريم بالمصحف ، ثم ذاع استعمالها وشاع بعد أن أمر سيدنا عثمان - رضي الله عنه وأرضاه - ، بنسخ عدد من المصاحف وإرسالها إلى الأمصار الإسلامية.

الفرق بين القرآن والسنة النبوية المطهرة

هناك فروق عديدة بين السنة والقرآن .... **وأبرز هذه الفروق :-**

1 - القرآن منزل الألفاظ ، أوحي به الى رسول الله بلفظه ، ومن زعم غير ذلك فادعى نزول معانيه لا ألفاظه فقوله باطل ، أما الأحاديث القدسية :فقد اختلفوا في تنزل ألفاظها ، فمن قائل بهذا التنزل ، ومن قائل بعدمه ، وهو ما نختاره . فأما الأحاديث النبوية ، فهي غير منزلة الألفاظ باتفاق .

2 - إن القرآن معجز بلفظه ، وليس شيء من الحديث معجزا بلفظه ، قدسيا كان الحديث أو نبويا ، ومن هنا فانه لا يصح أن يذكر أي جزء من القرآن بمعناه فقط ، بل لا بد من قراءة لفظه ، بخلاف لفظ الحديث فإنه تصح روايته بالمعنى

3 - إن القرآن منقول نقلا متواترا ، وهذا النقل شامل لكل كلمة من كلمات القرآن ، ولبس كذلك الحديث قدسيا كان أو نبويا . بل من الحديث ما هو متواتر ومنه ما ليس كذلك ، ومن هنا فإنه يكفر من جحد قرآنية أية كلمة من كلمات القرآن ، بخلاف الحديث فإنه لا يكفر إلا من جحد معلوم التواتر منه ، مما هو معلوم منه بالضرورة ، ككون الظهر أربعا ، وكون الزكاة من المال ربع العشر ، ونحو ذلك .

4 - إن تواتر القرآن هو تواتر لفظي حتما وواقعا ، بخلاف الحديث ، فقل ما يكون منه متواترا في لفظه ، وأغلب ما يكون التواتر فيه ما يرجع الى المعنى فحسب ، بأن تعرف الواقعة لدى العدد الكثير الذي يؤمن تواطؤهم على الكذب ، ولكن يروي كل واحد هذه الواقعة أو تلك بلفظ يختلف عن لفظ الآخر.

5 - إن للقرآن الكريم من الأحكام الخاصة به ما ليس للحديث بقسميه - القدسي والنبوي- : منها ما ذكر في التعريف من : التعبد بتلاوته في الصلاة وغيرها ، فإن ذلك للقرآن فحسب ، فأما الحديث فلا يجوز أن يقرأ به في الصلاة باتفاق ، ولا أجر على مجرد تلاوته خارج الصلاة ، اللهم إلا بعض الأحاديث التي هي من الأذكار النبوية الواردة عنه - صلى الله عليه وسلم- كأذكار الصباح والمساء ، وعند دخول البيت والخروج منه ، وما شابه ذلك ... ومن هذه الأحكام ما هو تابع لهذا الحكم ، كحرمة مس المصحف على الحائض والنفساء ، وعلى الجُنُب عند بعض الأئمة ، بخلاف مس كتاب من كتب الحديث ، فإنه لا يحرم باتفاق ، وكحرمة قراءة القرآن على الحائض والنفساء والجنب كذلك ، بخلاف قراءة الحديث .

---

[1] – مختارات ابن الشجري ص 6–7

[2] – انظر سور (التكوير ، الأعلى ، النجم ، عبس ، طه ، البينة ، المدثر).

6 - القرآن وقع به التحدي والإعجاز ، بخلاف الحديث القدسي فلم يقع به التحدي والإعجاز .([1])

مصدر القرآن الكريم والرد على مطاعن المستشرقين

القرآن الكريم كلام الله المنزّل على قلب النبي محمدﷺبواسطة الوحي لفظا ومعنى، إلا أنّ بعض المستشرقين والمبشرين يزعمون أن القرآن الكريم ليس وحيا من الله ، وأن النبي محمد –صلى الله عليه وسلم- ألّفه مستعينا بالمصادر اليهودية والنصرانية ، والمصادر العربية المتمثلة في شعر العرب الجاهليين ، ولا سيما المُتَحنفين منهم ، وخير ما ينقض هذه الشبهات والمزاعم **النقاط التالية :**

1 - إنه –صلى الله عليه وسلم- تنبأ بعد الأربعين من عمره ، ولو كان القرآن من تأليفه لقاله قبل أن يبلغ الأربعين ، قال تعالى :- (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (يونس : 16)

2 - إن نزول بعضه –أي القرآن –كان بعد طول انتظار ، وبعد حاجة ماسة ، فلو كان من عنده لما انتظر ثلاثين يوما ، لنزول الحكم ببراءة أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها –مما اتهمت به في حادثة الإفك .

3 - توقفه – عليه السلام – في بعض الأمور والأحكام حتى يبينها القرآن ، كحكم الظهار الذي بينته سورة المجادلة ، وحكم الذين تخلفوا عن غزوة تبوك .

4 - سيرته الشخصية في القرآن تكاد تكون معدومة ، فلا نجد أثرا لذكر- عام الحزن -حيث فقد أعز نصير ، فلم يرد أي ذكر لعمه (أبو طالب) ، ولا لزوجه (خديجة) –رضي الله عنها - ، ولا لموت ولده إبراهيم –رضي الله عنه - .

5 - كان الرسول –صلى الله عليه وسلم –يتلو الآية ، ويقول الحديث ، - وهو مع فصاحته - إلا أنه لا يماثل القرآن في الفصاحة والبلاغة ، فيستحيل أن يكون للإنسان أسلوبين فيهما مثل هذا التباين .

6 - تراجع الرسول –صلى الله عليه وسلم –عن بعض ما كان يريد فعله بعد نزول الآيات التي تمنعه من ذلك ، فحينما أراد الصلاة على –عبد الله بن أبي بن أبي سلول كبير المنافقين –وقال له عمر – رضي الله عنه –إن الله يقول : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة : 80) ، فقال الرسول –عليه الصلاة والسلام - لأزيدن على السبعين –أوكما قال – ثم وقف يصلي ، فنزل عليه جبريل بقوله تعالى :- (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ..) (التوبة :

[1] – انظر : السنة قبل التدوين : محمد عجاج الخطيب : 22. ومباحث في علوم القرآن للقطان : 25.

84) عند ذلك امتنع الرسول –صلى الله عليه وسلم- وتراجع [1]

7 - الإشارات العلمية الكثيرة الواردة في القرآن الكريم والتي كشف النقاب عنها العلم الحديث في عصرنا الحاضر ، إضافة إلى الغيوب الكثيرة الواردة في الآيات الكريمة التي تحدثت عن غيب الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، والتي تؤكد أن القرآن فوق مستوى ثقافة عصر الرسول – صلى الله عليه وسلم- ، بل جميع العصور،وأن القرآن لم يصدر عنه ، بل ورد إليه ، وأنه لم يفِض عن قلبه ، بل أُفيضَ عليه .

معنى الوحي ، وكيفياته ، الرد على منكريه

لمبحث الوحي أهمية عظمى ، ومكانة سامية ، ورتبة عالية بين مباحث علوم القرآن الكريم ، حيث أنه سبيل الإيمان بنزول القرآن ، والتصديق بأنه كلام الله عز وجل ، وهو أساس الإيقان برسالة رسولنا محمد – صلى الله عليه وسلم - ، وجميع الرسل والأنبياء ، فالوقوف على حقيقته ، وكيفياته ، وأنواعه ، وصُوَره ، يؤدي إلى الإقرار الجازم بكل ما أفصح عنه القرآن الكريم ، وبينته السنة المطهرة من أصول العقائد ، وأنواع الأحكام ، وأسس الأخلاق ، وقواعد المعاملات ، والعلاقات الاجتماعية ، وغير ذلك مما اشتمل عليه القرآن الكريم وتضمنته آياته ،وفيما يلي تجلية لجوانب الوحي ، ومسائله ..

الوحي في اللغة :

قال الكِسائي : (علي بن حمزة تـ 189هـ) : أوحى إليه : أي : كلمه بكلام يخفيه عن غيره) [2] .

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح : - (والوحي لغة : الإعلام في خفاء .....)[3].

معاني الوحي اللغوية في الاستعمال القرآني :

يُطلق الوحي في القرآن الكريم ويدور معناه على الوجوه التالية :-

1- الإلهام الفطري للإنسان ، كما في قوله تعالى (**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**)(القصص : 7) (فالمراد بالوحي في هذه الآية الهام يوجد عنده من انشراح الصدر ما يحقق عندها أنه خاطر من الواردات الإلهية ، فان الإلهام الصادق يعرض للصالحين فيوقع في نفوسهم يقينا ينبعثون به إلى عمل ما أُلهموا به .

2- الإلهام الغريزي للحيوان ، كما في قوله تعالى :- (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)(النحل:68) .فالمراد بالوحي في هذه الآية :الإلهام ، وهو التكوين الخفي الذي أودعه الله تعالى في طبيعة النحل، بحيث تنساق إلى عمل منظم مرتب لا يختلف فيه آحادها

3- التسخير والقاء الأمر للامتثال ، كما في قوله تعالى : - (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)(فصلت: 12) .

فالوحي هنا بمعنى التسخير ، أي : سخر كل سماء لما يراد منها.

4- الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيماء ، كما في قوله تعالى:(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) (مريم: 11) أي : أشار .

---

[1] – انظر سيرة ابن هشام : 3: 101.

[2] – الأزهري : (أبو منصور محمد بن أحمد ت 370 هـ) : تهذيب اللغة : 5/ 296 .

[3] –فتح الباري – ج1/ص9 السلفية بمصر.

5- الوسوسة من الشياطين ، وتزيينهم خواطر الشر في الإنسان كما في قوله تعالى :- (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)(الأنعام : 112) . أي : يوسوسون فيلقون في قلوبهم الجدال بالباطل .

6- القاء الله عز وجل إلى الملائكة من أمره ليفعلوه من فورهم ، كما في قوله تعالى (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)(الأنفال : 12).

الوحي بالمعنى الشرعي :

الوحي بالمعنى الشرعي لا يخرج عن نطاق المعنى اللغوي ، والفرق بينهما هو الفرق بين العام والخاص ، فالوحي بالمعنى اللغوي : عام يشمل كل إعلام في خفاء ..

والوحي بالمعنى الشرعي : خاص لا يتناول إلا ما كان من الله سبحانه لنبي من أنبيائه .

صور الوحي كما بينها القرآن :

حصر القرآن صور الوحي في أصناف ثلاثة ، شاملة لجميع صور الوحي التي أسماها بعض العلماء كيفييات ، وبعضهم مراتب . قال تعالى : - (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) (الشورى: 51)

الصنف الأول :- أن يلقي الله المعنى في قلب النبي مباشرة ، ويكون ذلك في اليقظة أو المنام ، وهو على حالتين :-

1- أن يلقي الله المعنى في قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - يقظة [1] ويتم ذلك من غير واسطة مَلَكْ ، مع خلق علم ضروري عند النبي - صلى الله عليه وسلم – بأن هذا المعنى من الله قطعا ، ومن هذا القبيل ما أشار اليه تعالى بقوله :- (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا.) (النساء: 105) .

قال الفخر الرازي : (إن قوله بما أراك الله معناه : بما أعلمك الله ، سمى ذلك العلم بالرؤية : لأنه العلم اليقيني المبرأ عن جهات الريب ، لكونه جاريا مجرى الرؤية في القوة والظهور . وكان عمر - رضي الله عنه – يقول :- (لا يقول أحد قضيت بما أراني الله تعالى ، فان الله تعالى لم يجعل ذلك إلا لنبيه ، وأما الواحد منا فرأيه يكون ظنا ، ولا يكون علما) [2]

[1] – الآلوسي : روح المعاني : ج27 / ص 50 .

[2] – الفخر الرازي : التفسير الكبير : ج11 / ص 33 .

2- إلقاء المعنى في قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم – مناما ، كما حكى القرآن على لسان إبراهيم – عليه السلام – (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ..) (الصافات: 102) . وحصل ذلك لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – أول عهده بالوحي ، ثم حصل في مناسبات سَجَّلَ القرآن بعضها ، كما في قوله تعالى : - (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) (الفتح: 27) . وإنما كانت الرؤيا وحيا ، وجزءاً من النبوة ، باعتبار ما يقترن بها من اليقين بأنها من عند الله ، وأن الوحي إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – بالرؤيا أول أمره تمهيد للوحي الصريح إليه يقظة ، وفي الصحيح عن عبد بن عمير:- (رؤيا الأنبياء وحي ، وقرأ : يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك ...) ([1]) .

الصنف الثاني:- وأشار إليه قوله (أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)، وقد حصل لسيدنا موسى – عليه السلام - إذ كلم الله موسى بلا واسطة ، فلم يره موسى ، قال تعالى :- (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)(النساء: 164).

الصنف الثالث : أن يرسل الله ملك الوحي جبريل – عليه السلام – إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فيوحي اليه ما أمره أن يوحيه ، وقد أشار اليه بقوله سبحانه :- (أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ) (الشورى : 51) ، وقد حصل هذا لسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – ولجميع الرسل من قبله..

ولعلك تسأل : بأي صنف من أصناف الوحي نزل القرآن على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ..؟
فنقول :- إن الراجح لدى العلماء أن نزول القرآن ينحصر في الصنف الثالث من الوحي ، إذ أنزله الله بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام ، على محمد – صلى الله عليه وسلم – ، وفي اليقظة فحسب . ([2])
قال تعالى : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) (الشعراء: 193 -195)

صور الوحي إلى رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم- :

لقد عرفنا فيما سبق كيفيات وحي الله إلى أنبيائه ورسله ، وسنبين فيما يلي صور وكيفيات الوحي إلى نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم - ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، وتتجلى هذه الصور فيما يأتي :-

1- الرؤيا الصادقة في النوم :- ويقرر ذلك ما جاء في صحيح البخاري ، عن عائشة أم لمؤمنين – رضي الله عنها- أنها قالت :- (أول ما بُدئ به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الوحي : الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .... الحديث)([3]) وبدئ بذلك ليكون تمهيدا وتوطئة لليقظة . ومرائي الأنبياء ليست بكلام يلقى إليهم فقط ، وإنما تشتمل على الكلام والإلهام .

---

[1] – الزرقاني : شرح المواهب اللدنية ، ج1/ ص 272 .
[2] – الزرقاني : شرح المواهب اللدنية ، ج1/ ص 272 .
[3] – ابن حجر : فتح الباري : ج1/ ص39 .

ومن مرائيه – صلى الله عليه وسلم - :- ما رواه مسلم عن أنس بن مالك قال :-قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم ، كأنا في دار عقبة بن رافع ، فأتينا برطب من رطب ابن طاب ، فأولته بالرفعة لنا في الدنيا ، والعافية في الآخرة ، وأن ديننا قد طاب ..)([1]) .

وما رواه عن أبي موسى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال :- (رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلى (أي : وهمي واعتقادي) إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هي المدينة يثرب ...الحديث)([2]).

2- أن ينفث الملك في رُوعِهِ وقلبه من غير أن يراه ويشاهده ، كما في قوله – صلى الله عليه وسلم – (إن روح القدس نفث في رُوعي : لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا يطلب إلا بطاعته ..)([3]).

3- أن يأتيه جبريل – عليه السلام – في صورة رجل من البشر ، فيكلمه بالوحي ، فيسمعه الحاضرون مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويشاهدونه ولكن لا يعرفونه ، روى البخاري عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : كان النبي – صلى الله عليه وسلم – بارزا يوما للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ..؟ قال : الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته ، وبلقائه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث .....الحديث)([4]) .

ولم يتلق الرسول – صلى الله عليه وسلم – أي شيء من القرآن في حالة مجيء جبريل - عليه السلام - في صورة رجل من البشر ، ولو حصل ذلك لكان هذا مَثاراً للشك ، ومَدعاة لتأكيد شبهات الكفار والمشركين الذين يقولون : (إنما يعلمه بشر ..) وقد ذكر الله تعالى ذلك عن المشركين وفنَّد لهم شبهتهم ورد عليهم قولهم في قوله تعالى :- (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (8) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ)(الأنعام : 8-9) .

5- **أن يأتيه جبريل – عليه السلام – في صورته الملائكية** ، فكان من حكمة الله -عز وجل – ، أن أنزل القرآن على هذه الصورة الروحية الملائكية من صور الوحي ، حتى لا يلتبس الأمر على العباد ، وفي هذه الحالة لا يُرى ، فيلقي إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – الوحي الذي حمله إليه ، وهذه الصورة أشد حالات الوحي على الرسول – صلى الله عليه وسلم -، روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – أن الحارث بن هشام – رضي الله عنه – سأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم- فقال :- يا رسول الله كيف يأتيك الوحي.؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس [5]، وهو أشده علي ، فيفصم عني (أي يبتعد) وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل

---

[1] – الإمام مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي : ج15/ ص 31 .

[2] – الإمام مسلم : صحيح مسلم : ج 15/ ص 31–32 .

[3] – الحاكم : المستدرك ، ج2/ ص 24 .

[4] – ابن حجر : فتح الباري : ج1/ ص 411 .

[5] – صلصلة الجرس : الصوت الذي كان يسمعه الرسول – صلى الله عليه وسلم – والصحابة الكرام عند مجيئ جبريل – عليه السلام – ، سواء أكان صوت صلصلة جرس ، أو صوت دَوِيٍّ كدوي النحل – كما ورد في الروايات – إنما هو لتنبيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – والصحابة أن جبريل قادم ، فيتهيأ الرسول لاستقبال الوحي ، ويلتزم الصحابة الصمت ..

لي الملك رجلا فيكلمني فأعي عنه ما يقول ، قالت عائشة – رضي الله عنها – ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا ..) [1] .

و المتتبع لأحوال نزول القرآن، وصور الوحي ، يترجح لديه أن القرآن كان يتنزل في مثل هذه الحالة والكيفية فقط ، قال الدكتور محمد محمد أبو شهبة :- (والذي نقطع به – والله أعلم- أن القرآن الكريم كله نزل في مثل هذه الحالة .. وهي التي يكون فيها جبريل على مَلَكيته . . إلى أن يقول : ولم أقف قط على رواية تفيد نزول شيء من القرآن عن طريق جبريل وهو في صورة رجل ، وكل ما جاء من ذلك من الأحاديث الصحاح كحديث جبريل المشهور ، وسؤاله النبي- صلى الله عليه وسلم – عن الإسلام والإيمان ، والإحسان ، والساعة وأشراطها فإنما هو في وحي السنة لا في وحي القرآن) [2]

تاريخ علوم القرآن

مرت- علوم القرآن- منذ بدء نزول القرآن على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، إلى عصرنا الحاضر ، بالمراحل التالية : -

المرحلة الأولى :-عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم- والصحابة - رضي الله عنهم أجمعين-

المرحلة الثانية :-عصر التابعين وتابعيهم - رضي الله عنهم أجمعين- .

المرحلة الثالثة:-عصر التدوين.

المرحلة الرابعة :-عصر الفترة الممتدة من عصر التدوين الى العصر الحاضر.

أولا :- عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الأخيار:-

منذ بدء نزول القرآن على رسول الله - صلى الله عليه وسلم-والرسول شديد الحرص على تلقيه من جبريل الأمين ، فعلمه الله تعالى كيف يتلقى القرآن ، ووعده بتثبيته وجمعه في صدره وبيانه وتوضيحه ، وهذا ما يفيده قوله تعالى :- (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)(طه : 114) . وقوله سبحانه : -(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) (القيامة : 16 – 18) ومن ثم فقد تعلم الرسول - صلى الله عليه وسلم- القرآن الكريم ،ووقف على علومه ومعارفه من الله عز وجل ، بسبب ما ألقاه في رُوعِه من الوحي ، فجمع الرسول - صلى الله عليه وسلم- القرآن الكريم نصاً ومعنىً وبياناً ، ثم بلغ كل ذلك لأصحابه الأخيار - رضي الله عنهم أجمعين- .

وكان - صلى الله عليه وسلم- يبين ماخفي عليهم ، ويشرح لهم بأقواله وأفعاله وتقريراته كل ما يشكل

فقد ورد أنهم كانوا يجلسون كأن على رؤوسهم الطير ..لا أن صلصلة الجرس صورة من صور الوحي .. إنما هي وسيلة تنبيه كجرس التلفون ، أو نغمة الخلوي ، فتعرف أن هناك مكالمة فتستعد لها .

[1] – ابن حجر : فتح الباري : ج1/ ص 18 .

[2] – د. محمد محمد أبو شهبة : المدخل لدراسة القرآن الكريم ، ص 63 .

عليهم من القرآن الكريم ... روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال : [لما نزل قوله تعالى : - (الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ.) (الأنعام : 82) ، شق ذلك على الصحابة فقالوا : يا رسول الله : وأينا لم يظلم نفسه ..؟ قال إنه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : (.....إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)(لقمان : 13) إنما هو الشرك] [1] ففسر الرسول – صلى الله عليه وسلم - الظلم بالشرك..... وأخرج مسلم وغيره عن عقبة بن عامر ، قال : [سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول وهو على المنبر : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .) ألا إن القوة الرمي][2] .

ولزيادة المحافظة على النص القرآني والعناية به ، كان الرسول - صلى الله عليه وسلم- يأمر أصحابه بكتابته ، ثم اتخذ كتابا مخصوصين لكتابة القرآن الكريم ، فكان إذا نزل عليه من الوحي شيء ، دعا من يكتب ما نزل ، وكان - عليه الصلاة والسلام- يرشد الكتاب إلى موضع الكتابة وكيفيتها طبقا لما كان يتلقاه من أمين الوحي جبريل - عليه السلام- ، ففي جامع الترمذي وغيره عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال :- كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم- مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السورة ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء منه ، دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وقال: هذا حديث حسن . وقال الحاكم :- هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .[3] .

وقد تلقف الصحابة الأبرار ما ألقاه الرسول - صلى الله عليه وسلم-إليهم ،وأبلغه لهم من وحي القرآن الكريم ، ووحي السنة المطهرة ، وقد حرصوا غاية الحرص على حفظ ما يسمعونه من النص القرآني ، ووعوا أشد الوعي كل ما أخذوه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم- من معاني القرآن وأسراره ، وعلومه ومعارفه التي فهموها من أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأفعاله وتقريراته وسلوكه ، وقد ساعدهم على ذلك ما كانوا يتمتعون به من قوة الحافظة وذكاء القلوب ، وسيلان الأذهان ، وصفاء الفكر ، الأمر الذي جعلهم أعلم الناس وأفقههم وأعرفهم بكتاب الله تعالى . يدل على ذلك ما رواه البخاري بسنده عن ابن مسعود أنه قال :- (والله الذي لا إله غيره ،ما من آية من كتاب الله إلا وأعلم أين نزلت ، وفيم نزلت ، ولو أعلم أمرءا أعلم مني بكتاب الله تبلغه المطي لركبت إليه.)[4] ، ومع ذلك لم يدونوا شيئا من علوم القرآن على الورق ، إنما دونوه في ذاكرتهم .

ثانيا:- عصر التابعين وأتباعهم - رضي الله عنهم أجمعين -:

نقل التابعون كل ما سمعوه من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ، ابتداء بما فهموه من النص القرآني ، وما يتعلق من المباحث بكتاب الله من معاني ، وأسباب نزول ، وناسخ ومنسوخ وانتهاء بجميع ما يتعلق بأحكامه وتشريعاته التي تلقوها عن الصحابة ، سواء أكانت من أقوال الصحابة أنفسهم، أومن اجتهاداتهم الخاصة . ومن ثم فقد تأصلت الدراسات القرآنية في عصر التابعين ، واتسع نطاقها ، وأصبح لها مدارسها المشهورة المعروفة .

---

[1] – تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي : رقم : 3385.

[2] – الجامع لأحكام القرآن : ج19/ ص 34. والآية في سورة الأنفال : رقم : 60 .

[3] – المرشد الوجيز : لأبي شامة ، ص 34.

[4] – الجامع لأحكام القرآن : ج1/ ص 25.

كمدرسة التفسير في مكة : وكان أستاذها الصحابي الجليل عبد الله بن عباس ، وكان من تلاميذه من التابعين : سعيد بن جبير ، ومجاهد بن جبر ، وعكرمة مولى بن عباس ، وطاووس بن كيسان اليماني ، وعطاء بن أبي رباح وغيرهم .

ومدرسة التفسير في المدينة : وكان أستاذها الصحابي الجليل أبي بن كعب وقد تخرج في هذه المدرسة كثير من التابعين ، من أشهرهم : زيد بن أسلم ، وأبو العالية ، ومحمد بن كعب القرظي .

ومدرسة التفسير في العراق : وكان أستاذها الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ، وقد تخرج في هذه المدرسة كثير من التابعين ، واشتهر من بينهم : علقمة بن قيس ،ومسروق بن الأجدع ، والأسود بن يزيد بن قيس، وعامر الشعبي، والحسن البصري ، وغيرهم . ولم يدون شيء من علوم القرآن في هذا العصر كذلك .

ثالثا:- عصر التدوين :

لقد ظل الأمر على ما ذكرنا حتى استهل القرن الثاني الهجري، وأشرق عصر التدوين للعلوم الإسلامية ، عندما رأى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز- رضي الله عنه - أن يجمع الأحاديث،فأصدر أمره الى علماء الأمصار لجمع أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم-وإثباتها في كتب خاصة ، مخافة أن يضيع منها شيء بذهاب العلماء ،فقام العلماء الأعلام في كل مصر من الأمصار بجمع أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم- وفتاوى الصحابة والتابعين ، ثم رأى بعضهم أن يفرد أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم- في مؤلفات خاصة ، وقد كانت المرويات والآثار المتعلقة بالقرآن الكريم والخاصة بتفسيره مدونة ضمن المرويات والآثار الحديثية ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى نشطت حركة التأليف والتدوين نشاطا قويا في هذا العصر فحظيت علوم القرآن بنصيب غير قليل من هذا النشاط ، فبدأ كثير من العلماء بجمع ما روي من تفسير القرآن الكريم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- أو عن الصحابة أو عن التابعين ، ووضعها في مصنفات خاصة ، فكان أول ما دون في علوم القرآن بالمعنى الإضافي هو التفسير ،لأنه الأصل في فهم القرآن وتدبره ،وعليه يتوقف استنباط الأحكام ، ومعرفة الحلال والحرام . فألف في تفسير القرآن : مقاتل بن سليمان (تـ150هـ)، وشعبة بن الحجاج(تـ160هـ) ، وسفيان الثوري (تـ 161هـ)، ووكيع بن الجراح(ت197هـ) ،،وغيرهم وكانت تفاسيرهم جامعة لأقوال الصحابة والتابعين بأسانيدها من غير تعقيب ولا تعليق على ما يذكرونه من الروايات ، حتى جاء محمد بن جريرالطبري (ت 310)فألف تفسيره المشهور : (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ثم تلاه عدد كثير من العلماء الذين ألفوا في التفسير ، وعلوم القرآن ومباحثه المختلفة .

رابعا : الفترة الممتدة من عصر التدوين حتى العصر الحاضر :-

دونت علوم القرآن مع الحديث النبوي الشريف ، فقد كانت أبواب التفسير في مصنفات الحديث كباب من أبوابها ،فنجد في البخاري وغيره بابا يسمى : (باب التفسير) .. ثم بدأت علوم القرآن ومباحثه تأخذ شكلا مستقلا ،فانفردت في مصنفات خاصة ،وظهرت فيها مؤلفات بدأت تتطور شيئا فشيئا حتى تكاملت وتجمعت في مصنفات جامعة شاملة لكل فروعها وأبحاثها ، فألف أبو عبيدة معمر بن المثنى (209هـ) في مجاز القرآن، وأبو عبيد القاسم بن سلام (224هـ) في الناسخ والمنسوخ وفي القراءات، وعلي بن المديني (234هـ) في أسباب النزول، ومحمد بن خلف بن المزربان (309هـ) كتاب "الحاوي في علوم القرآن"، ولعله أقدم استعمال لتعبير علوم القرآن، وجاء علي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي (ت:430هـ) ليؤلف كتابه "البرهان في علوم القرآن"، ويرجع إليه بداية إطلاق علوم القرآن بالمعنى الاصطلاحي الشامل لها ، وفي القرنين السادس والسابع نجد ابن الجوزي (ت

597هـ) وله : "فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن" و"المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن"، كما صنف السخاوي (ت643هـ) "جمال القراء وكمال الإقراء"، وألف أبو شامة (ت665هـ) "المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقران العزيز"، وهي كتب في جوانب متخصصة من علوم القرآن. أما في القرن الثامن فنجد بدر الدين الزركشي، (ت794هـ)، وكتابه "البرهان في علوم القرآن" وفيه عرض شامل وموسوعي لعلوم القرآن، ويمكن اعتباره أول من ألف في علوم القرآن بالمعنىالاصطلاحي الذي يختص بجمع ضوابط العلوم المتصلة بالقرآن الكريم من ناحية كلية عامة. ومع نهاية القرن التاسع وبداية العاشر نجد جلال الدين السيوطي (911 هـ)،يؤلف "الإتقان في علوم القرآن" الذي يعتبر من أكثر كتب الدراسات القرآنية استيعاباً لعلوم القرآن ومن أحسنها تصنيفاً وتبويبا. ويعتبر كتاب "الإتقان" أهم مصدر للباحثين في علوم القرآن بل إن معظم ما ألف حديثاً في علوم القرآن مقتبس منه.

وفي مطلع القرن الرابع عشر الهجري بدأت الهمم تتجه إلى تسليط الضوء على مباحث علوم القرآن الكريم ، وبحث قضاياه ، ومن ثم ظهرت المؤلفات الكثيرة المتتالية التي تعالج الموضوعات القرآنية بأسلوب العصر الحديث ، مما يدل على أن عطاء القرآن الفياض سيظل متواصلا ويصعب على الباحث حصر ما صدر من مؤلفات متخصصة حول القرآن الكريم ، ومن هذه المؤلفات : - التبيان في علوم القرآن للشيخ طاهر الجزائري ، ومذكرة في علوم القرآن للشيخ محمود أبو دقيقة ، ومنهج الفرقان في علوم القرآن للشيخ محمد على سلامة ، وغيرهم من علماء الأزهر الشريف ، ولا تزال المطابع تدفع كل يوم كتابا أو بحثا قيما حول هذا المنهل العذب الذي لا ينفد ولا يغيض ،- والمنهل العذب كثير الزحام- الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين.([1]) .

نزول القرآن

نزل القرآن على رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم- ، منجما حسب الوقائع والأحوال ، خمس آيات ، وعشر آيات ، أو أكثر أو أقل ، وتم نزوله في ثلاث وعشرين سنة . وكان نزول القرآن على نوعين :

نوع نزل ابتداء .. ونوع نزل عقب واقعةٍ أو سؤال ... تثبيتا للنبي – صلى

الله عليه وسلم- ، وتدرجا مع الاحداث والوقائع ، حتى أكمل الله الدين ،وأتم النعمة .

النزول في اللغة :

جاءت مادة "نزل" في اللغة بتصريفات كثيرة: نزل، وأنزل، وتنزل، ونزّل.. وغير ذلك. كما جاءت هذه المادة بكثرة في القرآن الكريم بتصريفاتها المختلفة حيث بلغت أربعة وأربعين تصريفاً في (295) آية. (2)

والنزول في الأصل: انحطاط من علو إلى سفل.(3) فيقال نزل فلان من الجبل، ونزل عن الدابة، ويطلق على الحلول فيقال: نزل فلان في المدينة أي حل بها..

---

[1] – مناهل العرفان– 21/1–33 ، وبصائر الجنان د. محمد ابراهيم – 25–50، والمدخل لدراسة القرآن–ص27–43

2– انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم، وضع مجمع اللغة العربية، مادة نزل (509/2). ومعجم الألفاظ والأعلام القرآنية، د. إسماعيل إبراهيم (227).

3– مفردات الراغب الأصفهاني (744).

والإنزال: الإحلال، قال تعالى: [وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ] (سورة المؤمنون: 29).

النزول في القرآن الكريم :

ورد لفظ "النزول" في القرآن الكريم، على ثلاثة أنواع:(1)

النوع الأول: نزول مقيد بأنه من الله جل وعلا.

النوع الثاني: نزول مقيد بأنه من السماء.

النوع الثالث: نزول مطلق غير مقيد بهذا أو بذاك.

فالنوع الأول : وهو المقيد بأنه من عند الله تعالى ، اختص بالقرآن الكريم فلم يرد إلا معه في آيات كثيرة، كقوله تعالى: [قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ] (النحل: 102). وقوله : [تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ] .(2) .

وهذا التنصيص بأنه من الله جل وعلا ، وتخصيص القرآن بذلك له دلائله: ففيه بيان أنه منزل من الله لا من مخلوق من مخلوقات الله. كما تقول بذلك بعض الطوائف. وفيه بيان بطلان القول بخلق القرآن. وبطلان القول بأنه فاض على نفس النبي - صلى الله عليه وسلم - من العقل الفعال أو غير ذلك من أقاويل أهل الكلام والفلسفة. (3)

وأما النوع الثاني، وهو النزول المقيد بأنه من السماء. فيتناول نزول المطر من السحاب، ونزول العذاب، ونزول الملائكة من عند الله. وغير ذلك.فقد ورد في آيات كثيرة ذكر إنزال الماء من السماء. كقوله تعالى:

[....وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ](البقرة: 22).

والمراد بالسماء في هذه الآيات: السحاب ، أو مطلق العلو حيث فُسِّر في قوله تعالى: [أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ] (الواقعة: 69) فالسماء اسم جنس لكل ما علا وارتفع.

وجاء في إنزال العذاب من السماء قوله تعالى: [فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ] (البقرة: 59) والرجز هو العذاب.

---

(1) انظر: الفتاوى لابن تيمية (12/246،118)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (1/196) والتبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن للشيخ طاهر الجزائري (64).

(2) وردت في ثلاثة مواضع: سورة الزمر/1، وسورة الجاثية/2، وسورة الأحقاف/2.

(3) انظر: الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (12/120).

وأما النوع الثالث : وهو الإنزال المطلق فهو عام لا يختص بنوع خاص من الإنزال. من ذلك قوله سبحانه: [..... وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ] (الحديد: 25) فقد فسر قوله: [وَأَنْزَلْنَا] بجعلنا، وأظهرنا ، وخلقنا.(1)

وقت نزول القرآن الكريم

أكثر نزول القرآن الكريم كان نهاراً في الحضر ، وقد نزل يسير منه في السفر ، وقليل منه في الليل، وقد تتبع العلماء ذلك فذكروا ما وقفوا عليه منه، وفسروا وفصلوا هذه الأنواع مع التمثيل لها بما وردت به الروايات في البرهان للزركشي، والإتقان للسيوطي، مما لا حاجة معه لزيادة الكلام في بسطه ونقله.(2)

واختلف العلماء في تحديد مدة نزول القرآن الكريم على الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أقوال:

والراجح أنها ثلاث وعشرون سنة تقريباً لا تحديداً. وهو قول الجمهور.(3)

واختلف في شهر إنزال القرآن الكريم على الرسول - صلى الله عليه وسلم- على أقوال: والمشهور منها أنه في شهر رمضان، قال الواحدي: وأول شهر أنزل فيه القرآن شهر رمضان،(4) قال الله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ.....) (البقرة: 185).

نزول القرآن على محمد- صلى الله عليه وسلم- دليله وحكمته

لا يرتاب أحد لا من أهل الإسلام ولا من غيرهم ، أن محمداً- صلى الله عليه وسلم- ادعى أن الله قد نزل عليه قرآناً بواسطة جبريل -عليه السلام- ، فهي إذن دعوى متواترة ، لها أعظم وأوفر ما يتصور من درجات التواتر المفيد للعلم القطعي الضروري بصدور الدعوى عن صاحبها ، ومع ذلك فقد صرح هذا القرآن المتواتر عن محمد- صلى الله عليه وسلم - ، في غير ما موضع منه ، بكونه منزلا من قبل الله ،

---

(1) انظر تفسير الماوردي (483/5).

(2) انظر البرهان للزركشي (192/1)، والإتقان للسيوطي (36/1-) والزيادة والإحسان لابن عقيلة المكي (263/1).

(3) انظر البرهان (228/1)، والإتقان 146/1 وانظر علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير، رسالة دكتوراه، د. محمد صفاء حقي، 412/2.

(4) أسباب النزول للواحدي (14).

يصدقه في هذا التصريح : واقع إعجازه ، وصرامة تحديه للإنس والجن : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآَنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء: 88)

ما الذي نزل به جبريل -عليه السلام-على النبي - صلى الله عليه وسلم - من القرآن: ..؟

من الممكن أن يثور في النفس سؤال ، ما الذي نزل به أمين الوحي جبريل- عليه السلام- من هذا القرآن على النبي-صلى الله عليه وسلم- ؟ هل هو لفظ القرآن ومعناه جميعا ، أو هو قد تلقى عن الله تعالى المعنى فحسب ، ثم قام بصياغة القوالب اللفظية لهذا المعنى ؟ أم نزل المعنى فقط على محمد-صلى الله عليه وسلم- فصاغ للمعاني ما يناسبها ويفي بها من الألفاظ العربية..؟

وأجاب الشيخ عبد الوهاب غزلان - رحمه الله - عن هذه التساؤلات بقوله:- (في القرآن آيات كثيرة تدل أبلغ الدلالة وأوضحها على أن الذي تلقاه جبريل ، ونزل به على النبي - صلى الله عليه وسلم - هو القرآن بألفاظه ومعانيه، ولنذكر بعض الأمثلة :-

1- قال تعالى : - (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا) (الإسراء: 45) . وقال تعالى :- (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)(النحل : 98) ، دلت هاتان الآيتان على أن القرآن شيء يُقرأ بالألسنة ، والذي يقرأ بالألسنة هو الألفاظ لا المعاني مجردة عن الألفاظ . ثم قال تعالى :- (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآَنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)(النمل : 6)
و متى ثبتت الدلالة من هذه الآيات على أن ألفاظ القرآن من عند الله ، سقطت دعوى القائلين بأنها من عند جبريل ، ودعوى القائلين بأنها من عند النبي- صلى الله عليه وسلم- .

2- قال الله تعالى :- (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آَيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ...) (الجاثية: 7 - 8). دل قوله - يسمع آيات الله تتلى عليه- على أن آيات القرآن شيء يسمع بالآذان ، ويتلى بالألسنة ، والذي يسمع بالآذان ويتلى بالألسنة ، هو الألفاظ لا مجرد المعاني ، وقد أضيفت الآيات فيها الى الله ، فدل ذلك على أنها من عنده لا من عند غيره .

3 - قال تعالى :- (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)(يوسف: 2) فوصفه بأنه عربي ، والذي يوصف بذلك هو الألفاظ لا المعاني .

الحكم والأسرار في تنجيم القرآن

لاشك أن في نزول القرآن منجما -مفرقا- على حسب الوقائع والأحداث حِكَما وأسراراً عظيمة، كيف وذلك التنجيم ممّن أنزل القرآن وهو سبحانه أعلم بما يصلح عباده [أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ] (الملك : 14). يعلم سبحانه المنهج الصالح لتربية الأمّة ، المنهج الذي يجعلها أمّةً منقادة لأوامر الله، منتهية عن نواهيه . ونلخص هنا بعض الحكم التي ذكرها العلماء والباحثون في هذا المجال:-

1- الحكمة الأولى : تثبيت فؤاد النبي – صلى الله عليه وسلم - وتطمين خاطره وقلبه وقد أشار الحق تبارك وتعالى إلى هذه الحكمة في قوله [وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا] (الفرقان : 32.)ويندرج تحت هذه الحكمة حكم كثيرة.

1- تقوية عزيمة الصبر واليقين عند النبي ε بتجدد نزول القرآن على قلبه مرة بعد مرة.

قال تعالى: [فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ] (سورة يس : 76) ، وقالتعالى-أيضاً-: [كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ](المجادلة : 21).

وأحياناً تنزل الآيات بوعيد المكذبين للأنبياء كما قال تعالى [أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ](الأعراف : 97-98)

وآونة تنزل الآية بالبراهين والحجج الدامغة في الرد عليهم فيما يتمسكون به من شبه واهية، كالآيات الواردة في إثبات توحيده وصفاته، واستحقاقه للعبادة وإثبات البعث والحشر، وكان من ثمرة هذا التثبت أن أبدى النبي – صلى الله عليه وسلم - غاية الثبات والشجاعة ، والوثوق بالله في أحرج المواقف وأشدها هولاً. انظر إلى قوله للصديق في الغار[... لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ..] (التوبة: 40).

وهكذا كانت آيات القرآن تنزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم - تباعاً ،تسلية له بعد تسلية، وعزاءً حتى لايأخذ منه الحزن مَأخذه، ولايجد اليأس إلى نفسه سبيلا.

2 – من الحكم البارزة تيسير حفظ القرآن الكريم وفهمه على النبي – صلى الله عليه وسلم - : فقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم - حريصاً على ذلك غاية الحرص، حتى إنه كان يعاجل جبريل ولاينتظره حتى يفرغ ، حتى أنزل الله [.... وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا] (طه : 114). وقال تعالى [لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ] (القيامة : 16-19).

هذا وإن القرآن الكريم نزل على أمة أمية لاتعرف الكتابة ولا القراءة ،وكانت ذاكرتها وحفظها هما السجلُّ لها، لادراية لها بالكتابة ، فلو نزل القرآن جملة واحدة على هذه الأمة الأمية التي لاتعرف الكتابة ولا التدوين ، لم يصح لها أن تحفظ القرآن كله بيسر، وكان نزوله مفرقاً أكبر عون لها على حفظه في صدورها ، وفهمها لآياته.

3- من الحكم كذلك التدرج في تربية الأمة دينيا وخلقيا واجتماعيا وعقيدة وعلماً ، وعملا ، وهذه الحكمة أشار إليها القرآن في قوله [وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا] (الإسراء : 106) لقد تدرج القرآن الكريم في انتزاع العقائد الفاسدة ،والعادات الضارة ،والمنكرات الماحقة، فقد بعث النبي –

صلى الله عليه وسلم - إلى قوم يعبدون الأصنام ويشركون بالله، ويسفكون الدماء، ويئدون البنات، ويشربون الخمر، ويقتلون النفس لأتفه الأسباب، ومعلوم أن النفس يشق عليها ترك ما ألفته وتعودته مرة واحدة ، وللعقائد والعادات سلطان على النفوس، والناس أسرى لماألفوا ونشأوا عليه، فلو أن القرآن نزل جملة واحدة، وطالب بالتخلي عما هم منغمسون فيه من الكفر والجهل والمنكرات مرة واحدة ، لما استجاب إليه أحد. لذلك اقتضت حكمة الله أن يتدرج القرآن في انتزاع العقائد الفاسدة ، فينهى أولا عن عبادة غير الله فإذا ما أقلعوا عنه، أخذ في النهي عن منكر آخر ، بل تدرج القرآن معهم في انتزاع المنكر الواحد كما حدث في تحريم الخمر

4- من الحكم كذلك: التدرج في تثبيت العقائد الصحيحة والأحكام التعبدية والعملية والآداب والأخلاق الفاضلة. فقد أمر القرآن أولاً بالإيمان بالله وصفاته، وعبادته وحده، حتى إذا ما آمنوا بالله دعاهم إلى الإيمان باليوم الآخر، ثم بالإيمان بالرسل والملائكة ، حتى إذا ما اطمأنت قلوبهم بالإيمان، وأُشربوا حُبَّه، سهل عليهم بعد ذلك تقبل الأوامر، والتشريعات التفصيلية والأحكام العلمية، والفضائل والآداب العالية، فأمروا بالصلاة ،والصدق، والعفاف، ثم بالزكاة ،ثم بالصوم، ثم بالحج، كما بينت أحكام النكاح، والطلاق ، والمعاملات من بيع وشراء وتجارة ،إلى غير ذلك من المعاملات.

5 -– من الحكم كذلك، تثبيت قلوب المؤمنين وتعويدهم على الصبر والتحمل بذكر قصص الأنبياء، ومالاقوه من أقوامهم ، وأن العاقبة للمتقين كقوله تعالى [وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ](النور :55).

6 - التحدي والإعجاز: فالمشركون تمادوا في غيهم وبالغوا في عتوهم، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتحدّ يمتحنون بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم - في نبوته.. قال ابن عبد البر (1) فنزوله منجماً مفرقاً من أقوى الأدلة على أنه معجز ، وأنه كلام الله، إذ لو أنزله الله جملة واحدة ، لكانت لهم حجة أن يقولوا شيء نزل علينا مرة واحدة، فلو نزل علينا مفرقا لعارضناه ، فقطع الله عليهم تلك الحجة ، فكأنه يقول لهم : إن كنتم تقولون إنه ليس كلام الله، فأتوا بعشر سور ، أو بسورة من مثله ، فسجل عليهم العجز الأبدي.

7 - ومن الحكم كذلك: الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد. فالقرآن الكريم نزل مفرقا على مدى ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث، ومع ذلك كان أسلوبه أسلوباً واحداً ، لم يتغير في فصاحته وجزالته وقوته، فأسلوبه واحد، مترابط بعضه ببعض، لا انفكاك فيه ، متناسق الآيات والسور كأنه عقد واحد [الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] (هود : 1) فلو كان

(1)– انظر : الاتقان في علوم القرآن 116/1 ومابعدها ، ومناهل العرفان في علوم القرآن 46/1–55 . ومنة المنان : 99–111.

من كلام البشر ، وقد قيل في مناسبات كثيرة، وموضوعات مختلفة متباينة، لوقع فيه التفكك والانفصام قال تعالى : [أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا] (النساء : 82)

أول ما نزل من القرآن ... وآخر ما نزل

أول القرآن نزولا :

المدار في هذا المبحث على التوقيف والنقل عن الصحابة ومن تبعهم ، ومجال العقل فيه لا يعدو الجمع بين الروايات التي يظهر التعارض بينها ، والترجيح بين الأدلة . وقد ذكر العلماء في ذلك أربعة أقوال، أرجحها أن أول ما نزل قوله تعالى [اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ] (العلق: 1-5) .

آخر ما نزل من القرآن مطلقاً

لم يرد في آخر ما نزل من القرآن الكريم شيء مرفوع الى النبي – صلى الله عليه وسلم - ، وإنما ورد في ذلك أقوال وآثار مروية عن بعض الصحابة والتابعين ، استنتجوها من مشاهداتهم للنزول، وملابسات الأحوال ، ومن ثم تعددت الأقوال وتعارضت . ومن المعلوم أنه إذا تعارضت الروايات في أمر من الأمور ، فإما أن يرجح بعضها على بعض ، وإما أن يجمع بينها إن أمكن الجمع بلا تكلف ..... ومن هذه الأقوال :

1 - القول الأول : إن آخر ما نزل قوله تعالى في آخر سورة البقرة [وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ] (البقرة : 281).[1]

2- القول الثاني: - أن آخر ما نزل هو قوله تعالى في سورة البقرة [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ] (البقرة : 278) [2].

3 - القول الثالث: - أن آخر آية نزلت آية الدين[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ.....] (البقرة : 282). [3]

وقد جمع السيوطي في الإتقان بين هذه الأقوال الثلاثة فقال: ولامنافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا، وآية واتقوا يوما ..، وآية الدين، لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف لأن موضوعها واحد،[1] ..

---

[1] – البغوي 347/1، المدخل 107/1، الاتقان 77/1، صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري 205/8، البخاري رقم 4544 كتاب تفسير القرآن.

[2] – البخاري رقم 4544 كتاب تفسير القرآن.

[3] – ابن جرير الطبري في تفسيره لآية الدين في سورة البقرة .

ب - أسباب النزول

يعد علم أسباب النزول من أهم العلوم القرآنية للمفسر ، لأنه يحول دون الفهم الخاطئ والتأويل الباطل ، وكأين من آية إذا شرحت دون معرفة سبب نزولها فإن تفسيرها لا يسلم من الاضطراب ، أو التناقض مع غيرها من الآيات ، والقرآن الكريم كتاب الله المحكم ، لا يعرف تناقضا أو تعارضا بين آياته [2]، (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)(النساء: 82) .

وليس من الضروري أن يكون لكل آية من القرآن الكريم سبب نزول ، بمعنى : حادثة معينة اقتضت نزولها ، فمن الآيات ما أنزلها الله ابتداءً من غير أن يكون لها سبب ، وهذا كثير في القرآن الكريم ، مثل آيات الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، ومثل الآيات التي قصت علينا قصص الأنبياء والمرسلين ، فإن ذلك كله كان ينزل ابتدءاً ، من قِبَلِ الله تعالى للتشريع أو التذكير .

ومن الآيات ما أنزلها الله تعالى ولها سبب اقتضى نزولها ، وهذا أيضا يمثل جانبا لا بأس به من القرآن الكريم ، مثل الآيات التي نزلت في قصة الإفك ، والآيات التي نزلت إجابة على أسئلة أهل الكتاب والمشركين عن الروح وغيرها، على سبيل التعنت والإحراج ، أو على أسئلة من قبل المسلمين ، على سبيل التعلم والاسترشاد ، وليس القصد فيما نحن بصدده استقصاء هذه الآيات النازلة على أسباب ، وإنما القصد هو بيان قواعد هذا العلم ، وأصوله ، وفروعه ، مما سيأتي بيانه .

معنى أسباب النزول :-

لفظ أسباب النزول مركب إضافي من كلمتين : فالأسباب جمع سبب ، والسبب هو : كل ما يتوصل الى غيره ، وقد استعير السبب الى الحادثة التي من أجلها نزلت آية أو آيات من القرآن الكريم ، لأنه يتوصل به الى معنى تفسير الآية ، أو الوقوف على قصتها ، وإزالة الإشكال عنها .

وعلى هذا يكون معنى هذا المركب الإضافي هو : ما يتوصل به الى معرفة سبب نزول القرآن .

وسبب النزول: هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه ، أو مبينة لحكمه أيام وقوعه ، كحادثة أو سؤال)[3] فهو حادثة وقعت في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم _ ، أو سؤال وُجِّهَ إليه ، فتنزل الآية أو الآيات من الله تعالى لبيان ما يتصل بتلك الحادثة ، أو جواب هذا السؤال ...

والسؤال – كما أسلفنا – إما أن يكون من قبل المسلمين على سبيل التعلم والاسترشاد ، كسؤاله عن الأهلة وعن الخمر والميسر ، وعن الإنفاق وعما ينفقون ..

---

[1] – انظر : هامش البيان في مباحث من علوم القرآن : 84.

[2] – انظر مفتاح السعادة ومصباح السيادة :– طاش كبرى زاده 349/2

[3] – الإتقان 31/1 ، وانظر مناهل العرفان 99/1

وإما أن يكون من اليهود والمشركين على سبيل التعنت والإحراج ، كسؤاله عن الروح ، وعن ذي القرنين وعن الساعة ، وغير ذلك .

وقولهم (ما) في التعريف : هو اسم موصول بمعنى الذي .. وهو عبارة عن حادثة أو سؤال ، والحادث إما أن يكون **خاصا أو عاما** ..

والخاص ..كقصة الإفك ، التي كانت سببا في نزول قوله تعالى :- (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ .....الآية) (النور:11) وقد أخرج البخاري بشأن تلك الحادثة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (لبث شهرا لا يوحى إليه) إلى أن أنزل الله تعالى عز وجل (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ.. الآية)[1].

أما العام : كغزوة بدر ، التي كانت سببا لنزول قول الله تعالى : (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ)– (الأنفال : 5) .

وقولهم في التعريف :- (أيام وقوعه) :- قيد للاحتراز عن الآية أو الآيات التي تنزل ابتداء من غير أسباب ، بينما هي تتحدث عن بعض الوقائع والأحوال الماضية ، مثل الحديث عن بعض قصص الأنبياء السابقين وأممهم والأحوال والوقائع المستقبلية، مثل الحديث عن الساعة وما يتصل بها ، وهو كثير وواضح في القرآن الكريم . ولذلك فالحوادث القديمة ، وقصص الأنبياء السابقين ، لا تعتبر أسبابا للنزول لأنها لم تقع في زمن النبي –صلى الله عليه وسلم - .

قال السيوطي :- (والذي يتحرر في زمن النزول : أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ، ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره لسورة الفيل ، من أن سبب نزولها ، قصة قدوم الحبشة به ، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء ، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية ، كذكر قصة قوم نوح وعاد وثمود ، وبناء البيت ونحو ذلك ، وكذا ذكره في قوله (..... وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) (النساء : 125) سبب إتخاده خليلا ، فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى) [2] .

فوائد معرفة سبب النزول :-

لا ريب في أن علم أسباب النزول تأريخ يبين أحوال وملابسات نزول كثير من آيات القرآن الكريم ، ولابد أن يلم به كل من يشتغل في تفسير الكتاب العزيز ، وقد أكد على ذلك أئمة الإسلام وعلماء التفسير .

قال ابن تيميه :- (معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب)[3]

---

[1] – انظر فتح الباري 82/18

[2] – الإتقان 31/1

[3] – الإتقان 38/1

وقد جعل الزركشي[1] والسيوطي [2] معرفة أسباب النزول من الأمور التي لابد منها للمفسر.

وقال الدكتور محمد حسين الذهبي : - (معرفة أسباب النزول وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات تعين على فهم كثير من الآيات)[3] . فالعلم بأسباب النزول ضروري لكل من يشتغل بعلوم الشريعة الإسلامية من مفسر، وأصولي ، وفقيه ، لما يترتب على ذلك من فوائد كثيرة ، نجملها فيما يلي :-

الفائدة الأولى :-

إزالة الإشكال الوارد على الآية ، والوقوف على معناها الصحيح ، فهناك آيات يرد على ظاهرها إشكال ، أو يتراءى لقارئها أنها قول على غير ما تقرر من الأحكام ، لكن بمجرد معرفة سبب نزولها يتضح المعنى ، ويزول هذا الإشكال ..

المثال الأول :- قال الله تعالى : -(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة /115) فهذا اللفظ الكريم يدل بظاهره على أن للإنسان أن يصلي إلى أي جهة يشاء ، ولا يجب أن يُوَلِّي وجهه شطر البيت الحرام ، لا في سفر ولا في حضر ، وهذا غير مراد من النص، وحينما نعرف سبب النزول ، لا يتعذر فهم المراد من الآية .

عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال :- (كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه ، وفيه نزلت الآية (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)[4]

ومن ذلك يعلم أن الآية نزلت في نافلة السفر خاصة ، حيث يباح التوجه الى أي جهة تبعاً للراحلة ، أو أنها نزلت فيمن تحرى القبلة وصلى بإجتهاده ، ثم بان له خطؤه فإنه يعذر في ذلك ، وقيل في سبب نزولها غير ذلك .[5]وأيا ما كان الأمر ، فالآية لما عرف سبب نزولها ، عرف معناها وزال إشكالها .

المثال الثاني : قول الله تعالى :- (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)- (المائدة /93) ، وقد نزلت عقيب آخر ما نزل في الخمر ، فالذي لا يعرف سبب نزول هذه الآية قد يشتط في فهمها ، ويستنبط منها أن الخمر مباحة ، وقد حدث ذلك فعلا .
روي أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه – استعمل – قدامة بن مظعون – على البحرين ، فقدم

---

[1] – الموافقات 225/3

[2] – البرهان 13/1

[3] – الإتقان 232/2

[4] – اخرجه مسلم في صحيحه 209/5

[5] – الإتقان 43/1

الجارود على عمر فقال : - إن قدامة شرب فسكر ، فقال عمر : - من يشهد على ما تقول ، فقال الجارود : أبو هريرة يشهد على ما أقول ، فقال عمر :- يا قدامة إني جالدك ، قال :- والله لو شربت كما تقول ما كان لك أن تجلدني ، قال عمر : ولم ؟
قال لأن الله يقول :(ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا .. الآية) فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، شهدت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم _ بدرا وأُحداً والخندق والمشاهد ، فقال عمر : - ألا تردون عليه قوله ؟ .
فقال ابن عباس :- إن هذه الآية نزلت عذراً للماضين ، وحجة على الباقين ، لأن الله تعالى يقول :- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة / 90) قال عمر :- صدقت)[1] فبين سبب النزول أن الجناح إنما هو مرفوع عمن كانوا يشربونها قبل نزول تحريمها ، فسبب نزول الآية قد أزال الإشكال ، وبين المراد من الآية ، وبه استعان عمر – رضي الله عنه – في الرد على من أساء فهم الآية ، ولولا سبب النزول لبقي هؤلاء على خطئهم في فهم معنى الآية ..[2]

الفائدة الثانية : - من أسباب النزول أنها تعين على معرفة الحكمة التي من أجلها شرع الحكم ، فتشريعات الإسلام حافلة بالحكم الكثيرة ، ودراسة أسباب نزول الآيات يعين على إدراك هذه الحكم ، وذلك من خلال دراسة الظروف والأحداث التي نزلت فيها الآيات .

ومن هذه الحكم التي يمكن استفادتها ، التيسير على الناس ، ورفع المشقة والحرج عنهم ، ورعاية المصالح العامة للمجتمع الإسلامي ، والتدرج في التشريع فيزداد المؤمن إيمانا وحرصا على طاعة الله ، وتنفيذ أحكامه ، حينما يقف على هذه الحكم ، ويتجلى له ما فيها من المصالح والمزايا.

ومن الأمثلة على ذلك : الآيات التي نزلت في أمر الخمر ، فعندما نتدبر هذه الآيات نجد أن الله سبحانه وتعالى - وهو العليم الخبير بخلقه - ، يتدرج بعباده ويربيهم الى أن يصل بهم الى ما يحبه ويرضاه ، وإقتلاع العادات الضارة التي تفسد أنفسهم وأبدانهم .

وأنظر الى آيات اللعان ، والظهار ، حيث يبين سبب النزول في كل منهما ، أن الحكم الذي شرعه الله لهم في ذلك قد أزال بالفعل حرجاً كان بعض الناس واقعا فيه .فلولا أسباب النزول ، ما اهتدينا الى هذه الحكم النافعة على وجه التفصيل ، ومعرفة هذه الحكم تزيد المؤمن إيمانا وثقة في دينه، وما شرعه الله لهم من الأحكام النافعة المبنية على مقاصد عظيمة ، وتُرَغِّب النافر في الإيمان إذا تبين له سمو التشريع الإسلامي ويسره وسهولته ، وما اشتمل عليه من المنافع والمصالح والمقاصد الحسنة .

[1] – التفسير والمفسرون 10/1

[2] – أنظر تفسير ابن كثير 347/1

الفائدة الثالثة :- معرفة اسم من نزلت فيه الآية ، وتعيين المبهم فيها ، ومثال ذلك في قوله تعالى : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا .وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ) (المدثر :11- 15) فقد نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي أحد أبرز زعماء قريش ....

الفائدة الرابعة :- تيسير الحفظ ، وتسهيل الفهم ، وتثبيت الوحي في قلب من يسمع الآية إن عرف سببها ، وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات ، والأحكام بالحوادث ، والحوادث بالأشخاص ، كل أولئك من دواعي تقرير الأشياء ، وانتقاشها في الذهن ، وسهولة إستذكارها عند إستذكار مقارناتها في الذهن ، وذلك هو قانون تداعي المعاني ، المقرر في علم النفس . [1]

طريق معرفة أسباب النزول :

لا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح عن الصحابة الذين عاصروا التنزيل ، وشاهدوا الوقائع والحوادث والملابسات التي أحاطت بنزول الآيات ، وعرفوا عنها من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما لم يعرفه غيرهم ، فعنهم وحدهم يؤخذ هذا العلم .قال الواحدي :- (ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية ، والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن علمها)[2]

وقد اشترط العلماء لقبول سبب النزول الشروط التالية :-

1- أن يصح سنده عن الصحابي .
2- أن يكون مما لا مجال للاجتهاد فيه .
3- أن لا يكون الصحابي ممن يأخذون عن الإسرائيليات .
4- وأن يكون صريحا في السببية .

فإذا توفرت فيه هذه الشروط فله حكم الرفع ، ويعتبر سبباً في نزول الآية ، ويؤخذ به في توضيح معناها ، ولا يجوز رده بحال من الأحوال ، كما قرر ابن الصلاح في مقدمته. [3]
أما إذا روي سبب النزول عن التابعي فهو خبر مرسل،[4] لسقوط الصحابي منه ،
وحكمه :
أنه لا يقبل إلا إذا صح سنده ، واعتضد بمرسل أخر ، وكان الراوي من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة – رضوان الله عنهم- كمجاهد ، وعكرمة، وسعيد بن جبير .. [5]

---

[1] – مناهل العرفان 106/1-107

[2] – أسباب النزول– للواحدي ص5

[3]– أنظر مقدمة ابن الصلاح – شرح العراقي ص70

[4]– اختلف العلماء في الاجتماع بالمرسل على أقوال ، أنظر (جامع التحصيل لأحكام المراسيل) – للعلائي –تحقيق – عمر حسن ص46

[5] – انظر الإتقان 41/1

الوحدة الثانية

جمع القرآن

الجمع في لغة العرب :- الضم والاحاطة والاستقصاء ، قال الراغب :- الجمع : ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض .. يقال : جمعته فانجمع .[1]

واذا أطلق معنى الجمع على كلام الله فيراد به معنيان :-

الأول :- حفظه واستظهاره في الصدور .. ومنه قول عبد الله بن عمرو (جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة)[2] أي :- حفظت القرآن .

الثاني :- تدوينه وكتابته في السطور ..ومنه قول أبي بكر -رضي الله عنه - لزيد بن ثابت - رضي الله عنه - (تتبع القرآن فاجمعه) [3] أي : اكتبه كله في السطور ...

وقد مر جمع القرآن بمراحل ثلاث هي :-

وسنتحدث عن كل جمع منها مبينين دواعيه وأسبابه ومميزاته .

المرحلة الأولى: جمع القرآن في عهد النبي-صلى الله عليه وسلم- :

جمع القرآن في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- بكلتا الوسيلتين .. الحفظ في الصدور ... والكتابة في السطور .

---

[1] –انظر هذا الفصل في كتاب العقد النظيم في علوم القرآن الكريم، سامي عطا، غير منشور،بتصرف. والمفردات : ص 94.

[2] – فتح الباري : ج9/ ص 60.

[3] – فتح الباري / ج9/ ص 14.

أ - جمع القرآن في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم - بمعنى حفظه في الصدور :-
كان القرآن ينزل على النبي-صلى الله عليه وسلم- منجما ، فيقرأه على أصحابه ، وكان شديد الحرص على حفظه واستظهاره فور سماع ألفاظه من جبريل - عليه السلام -، يدلنا على ذلك ما كان يعانيه من شدة في تلقي الوحي ، وحرصه على تحريك لسانه بالوحي قبل أن ينتهي منه جبريل خوف تفلته ، واستعجالا لحفظه .
كما كان النبي- صلى الله عليه وسلم- يبعث الى من كان بعيداً من يقرئهم ويعلمهم القرآن ، فقد بعث مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم -رضي الله عنهما- الى أهل المدينة قبل هجرته -صلى الله عليه وسلم- يعلمانهم الاسلام ، ويقرئانهم القرآن ،وأرسل معاذ بن جبل -رضي الله عنه- الى مكة بعد هجرته للتحفيظ والاقراء [1] . وهناك كثير من الاحاديث التي تدعو الى حفظ القرآن وتعلمه ، روى البخاري -رضي الله عنه- عن النبي-صلى الله عليه وسلم- أنه قال :- (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) [2].
وأما عن أجر قارئه وحافظه في الآخرة ، فقد وردت أحاديث كثيرة كذلك ، منها :- ما رواه ابن مسعود قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : (من قرأ حرفا من كتاب الله له حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)رواه الترمذي ، وقال: حديث حسن صحيح [3]. لقد اهتم الصحابة بالقرآن ، وحفظوه على مدى السنين الأولى من صدر الإسلام .
ويتلخص مما سبق أن عوامل الحفظ عند الصحابة هي :

1- إن القرآن مصدر التشريع الأول ، ولم تكن لديهم وسيلة سهلة متيسرة لمن يريد تسجيله ، فسجلوه في صدورهم .
2- الآيات والأحاديث الكثيرة – وقد ذكرنا شيئا منها – حثت على حفظ القرآن ، وبينت ثواب ذلك ، منها قوله تعالى : - (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ)(سورة فاطر : آية / 29) .
3- القرآن سبب عزهم في الدنيا و في الآخرة ، حيث يشفع لهم ، ويرفع مراتبهم .
4- في القرآن من الخصائص البلاغية ، والمزايا البيانية التي لا تُعرف في أي كلام آخر على وجه الإطلاق ، مما حببهم في الإكثار من قراءته ، وتكراره ، وحفظه ، وكانوا يجدون في قراءتهم له متعة نفسية وروحية .
5- ومما ساهم في استمرار حفظ الصحابة للقرآن ، ما ورد من الوعيد الشديد لمن حفظ شيئا من القرآن ثم نسيه .. [4] .

ب- جمع القرآن بمعنى كتابته في السطور في عهد النبي ε:

نزل القرآن على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شيئاً فشيئاً ، الآية ، والآيتين والسورة ، وكان كلما نزل شيء بادر النبي – صلى الله عليه وسلم – بتبليغه لأصحابه ، وكان يملي على كتبة الوحي ما ينزل عليه من القرآن ، فكتب كله في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم - ، لكنه لم يكن مرتب السور ، ولا مجموعا بين دفتين ، بل كان مفرقا في العسب ، والرقاع ، واللخاف ، والأقتاب ونحوها ، مع كونه محفوظا في الصدور . .. روى الحاكم عن زيد بن ثابت قال : - (كنا عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نؤلف القرآن من الرقاع .. الحديث).. وعنه أيضا : - قال : (كنت أكتب الوحي عند رسول الله – صلى

[1] – مناهل العرفان : ج1/ ص 242.
[2] – صحيح البخاري : ج6/ ص 236.
[3] – رياض الصالحين : ص 362-363.
[4] – انظر : البيان في مباحث من علوم القرآن : ص 146.

الله عليه وسلم – وهو يملي علي ، فإذا فرغت قال : إقرأه ، فإذا كان فيه سقط أقامه ..) [1].
ومن الأحاديث الدالة على أن القرآن كان يكتب في حضرته – عليه الصلاة والسلام – ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري (إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : لا تكتبوا عني ، ومن كتب غير القرآن فليمحه ..) [2].

وروى الإمام أحمد ، وأصحاب السنن الثلاثة ، وصححه ابن حبان ، والحاكم ، عن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن عثمان – رضي الله عنه - قال : - (كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مما يأتي عليه من الزمان ، ينزل عليه من السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول : ضعوا هذا في السورة التي فيها كذا ...) [3] .
فهذه الأحاديث تدل على أن القرآن قد كتب بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ، وما نزل شيء من القرآن – آية أو سورة - إلا وضع موضعه بتوقيفه ، وإعلام الصحابة بذلك .

الباعث على كتابة القرآن في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم - :

القرآن الكريم معجز بلفظه ونظمه ، ولا يمكن أن تقوم عبارة أخرى مقام عبارته ، أو يحل نظام آخر محل هذا النظام المعجز ، لذلك كان جديرا بأبلغ ما يمكن من الإحتياط في ضبط ألفاظه ، وصيانته من التغيير أو التحريف وهذه الدقة الملازمة للقرآن ، وهذا الإحتياط الفائق لا يتحققان إلا بالحفظ والكتابة معا ..
إذن .. فالباعث على كتابة القرآن في هذا العهد يتلخص فيما يلي :-
زيادة التوثيق للقرآن بالمحافظة عليه من طريقين : طريق حفظه في الصدور، وطريق كتابته في السطور .
تبليغ الوحي على الوجه الأكمل ، لأن الاعتماد على حفظ الصحابة غير كاف ، لأنه عرضة للنسيان وللموت ، فلو اعتمد على حفظهم وحده ، لخشي ضياع شيء منه بالنسيان أو الموت ، أما الكتابة فباقية ، لا يتطرق اليها ذلك .
ثم إنه بعد وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – ظهرت له فائدة جليلة ، هي أنه لما جمع القرآن في عهد خليفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ، كان لدى الصحابة مصدران أعتمدا عليهما في الجمع ، هما الحفظ والكتابة ، وفيهما من التثبت وزيادة التحري ، ما لم يكن يوجد لو كان الاعتماد على مصدر واحد .[4]

مميزات كتابة القرآن في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم - :

امتازت كتابة القرآن في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالأمور التالية :
أولا : - أنه لم يكن مجموعا في مصحف واحد .
ثانيا : - أنه لم يكن مرتب الآيات والسور .
ثالثا : - إن بعض الصحابة كتب بعض المنسوخ تلاوة في مصاحفهم الخاصة ، وبعضهم كتب بجانب الآيات بعض ما أثر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من تفسير لها ، وبعضهم كتب ما هو ثابت بخبر الواحد ، ولم يقتصر على ما ثبت بالتواتر .

---

[1] – انظر : المستدرك : ج2/ ص 229 . والفتح الرباني : ج18/ ص 30 .
[2] – صحيح مسلم بشرح النووي : ج28/ ص 129.
[3] – فتح الباري : ج9/ ص 18 .
[4] – انظر : علوم اللقرآن الكريم : ص 117 .

على أي شيء كان يدون القرآن ...؟

شاع في أوساط بعض الكاتبين في علوم القرآن من مسلمين ومستشرقين ، أن الأدوات التي سجل عليها الوحي إبان عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – كانت من المواد الخشنة ، كالحجارة ، والعظام ، وجريد النخل ، وغيرها ، وقد جاء ذكر هذه الأدوات في روايات مختلفة ، عن زيد بن ثابت – رضي الله عنه – عند جمعه القرآن في عهد أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – قال : - (فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع ، والعسب ، واللخاف ، وصدور الرجال ... وفي رواية : فجعلت أتتبع القرآن من صدور الرجال ، ومن الرقاع ، والأضلاع ...) [1] وهذه الروايات - في ظننا –تشير إلى أن هذه الأدوات كانت مما يكتب عليه الكاتبون من الصحابة لأنفسهم ، أما ما كتب عليه الوحي في بيت النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فتشير إليه رواية أخرى لزيد يقول فيها : - (كنا عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نؤلف القرآن من الرقاع) وهي جمع رقعة ، والرقعة قد تكون من جلد ، أو ورق ، أو كاغد . وقد وجد المستشرقون في الروايات السابقة مرتعا خصبا أثار نهمهم في إثارة الشبهات حول القرآن ، فقد رأوا في تلك الأدوات استحالة مادية في استيعاب النص القرآني كله ..)[2]

وكأن هذه الأدوات هي الحقيقة المقررة والوحيدة في قصة تدوين القرآن ، على أن الواقع خلاف ذلك . فقد وردت كلمة – القراءة – وما اشتق منها في القرآن حوالي (تسعين مرة) ووردت كلمة (الكتابة) وما اشتق منها نحوا من (ثلثمائة مرة) ، وكثيرا ما حكى القرآن عن المشركين أنهم يطلبون من النبي – صلى الله عليه وسلم – كتابا يقرؤونه ، أو (صحفا مُنَشَّرة) ، كما حكى عنهم وصفهم للوحي المنزل بأنه (..... أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)(الفرقان :5) .

وذكر القرآن أيضا كلمات : القرطاس ، والمداد ، والقلم ،والصحف ، والسِجِلُّ ، والرق ،) [3] .

وأقرب الأشياء إلى الواقع : أن العرب كانوا يعرفون من وسائل الكتابة أدواتها اللينة ، كالجلد ، والورق ، وبخاصة إذا تصورنا أن مكة كانت تمثل بيئة تجارية في أرض الجزيرة ، تقوم التجارة فيها على توثيق العقود ، وتدوين الحسابات .

وكلنا يعلم نبأ الصحيفة التي كتبتها قريش لمقاطعة بني هاشم ، وعندما قام نفر منهم لشق تلك الصحيفة الظالمة ، وجدوا أن الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم) ، وفي ذلك دليل على أنها كانت من الأدوات اللينة ، وهناك كثير من الصحف غيرها كتبت على الأدوات اللينة ، كصحيفة صلح الحديبية ، ورسائل النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى الزعماء ، والحكام ، لدعوتهم إلى الإسلام ، ورقاع الوحي التي كتب فيها زيد القرآن بحضرة النبي – صلى الله عليه وسلم - ، وبعض مخطوطات الصحابة التي كتبوا فيها القرآن عن النبي – صلى الله عليه وسلم -والتي أمر عثمان – رضي الله عنه – بإحراقها بعد نسخ مصاحفه .. وكيف لا يعرف المسلمون هذه الأدوات اللينة وقد جاوروا جاليات كبيرة من أهل الكتاب ، وفي أيديهم كتبهم يتدارسونها ، وقد تكررت إشارات القرآن إلى هذه الكتب ، ولا ننفي أن يكون بعض القرآن قد كتب على بعض هذه المواد الخشنة – كما تقول الروايات - لكن ننفي أن تكون هي الوسيلة الوحيدة ، أو الأكثر استعمالا في كتابة القرآن .. وربما كان استعمالها لضرورة ، كندرة الأدوات اللينة في ظرف ما ، أو أنها استخدمت بصورة مؤقتة لعدم تيسر غيرها فور نزول الوحي ريثما ينقل إلى مكانه من سجلات القرآن ،

---

[1] – كتاب المصاحف : ص : 8، 9، 20 .

[2] – القرآن : بلاشير ، ص 29.

[3] – انظر : تاريخ القرآن ، ص 134–135. ومصادر الشعر الجاهلي : ص 24–41.

وهي الرقاع المشار إليها في حديث زيد السابق [1] .
وأيا كان الأمر فقد ورد في الروايات أن الصحابة استخدموا في كتابة القرآن الأدوات التالية :-
1- العُسُب :- جمع عسيب ، وهي جريدة من النخل مستقيمة ، كانوا يكشطون الخوص ، ويكتبون في طرفها العريض .
2 - الكرانيف : - جمع _ كرناف – (بالكسر أو بالضم) ، وهي الأصول التي تبقى في جذوع النخلة ، أو الجريدة بعد قطع السعف ، ومفردها كرنافة .
3 - اللِّخاف : - جمع لخفة ، وهي صفائح الحجارة الرقاق .
4 - الأكتاف : - جمع كتف ، وهي عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان من الناس أو الدواب . وقال السيوطي : هو العظم الذي للبعير أو الشاة .
5 - الصحف : وهي قطعة من جلد أو قرطاس يكتب فيه .
6 - الظرر : بضم الظاء وفتح الراء ، وهي الحجارة العريضة .
7- الرقاع : - جمع رقعة – بالضم - ، وهي القطعة من النسيج أو الجلد .
8 - الأضلاع : وهي عظام الصدر المعروفة للحيوان ، فإذا جفت ويبست كتبوا عليها .
9 - الأديم : - قطع الجلد كانوا يدونون عليها القرآن .
10 - الأقتاب : - جمع قتب (بفتحتين) وهو رحل البعير ، وقيل : هو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير .
11 - الألواح : جمع لوح ، واللوح : كل صحيفة عريضة من خشب أو غيره ، ويلحق بها ما يقوم مقامها ، إذا كتب عليها سميت لوحا . ولم ينقض العهد النبوي المبارك إلا والقرآن مجموع ومكتوب في صحف متفرقة .. [2] عند هذا الصحابي أو ذاك ، لكن ترتيبه كان محفوظا عند الجميع بتعريف النبي – صلى الله عليه وسلم – وقراءته وهم يسمعون ، على الترتيب الذي ارتضاه الله عزوجل لكتابه ، وأوحى به اليه ، ولم ينتقل الرسول – صلى الله عليه وسلم - إلى الرفيق الأعلى إلا وقد كان القرآن كله محفوظاً في الصدور ، ومكتوباً في السطور .

كُتّاب الوحي

حظي القرآن الكريم بأوفى نصيب من عناية النبي – صلى الله عليه وسلم - ، وعناية أصحابه ، فاتخذ النبي – صلى الله عليه وسلم – كُتَّاباً للوحي ، وقد بلغ عددهم ثلاثة وأربعين كاتبا ، كان من اكثرهم ملازمة للنبي – صلى الله عليه وسلم – وكتابة له : زيد بن ثابت ، وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنهم أجمعين - [3]
ومن كتاب الوحي : (الخلفاء الأربعة ، والزبير بن العوام ، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص بن أمية ، وحنظلة بن الربيع الأسدي ، ومعيقيب بن أبي فاطمة ، وعبد الله بن الأرقم الزهري ، وشرحبيل بن حسنة ، وعبد الله بن رواحة .. وآخرين) [4] .
ثم استكتب زيد بن ثابت ، فكان يكتب الوحي ، ويكتب إلى الملوك ، وكان إذا غاب كتب جعفر بن أبي

---

[1] – انظر : عن القرآن : لمحمد صبيح ، ص 86. وكتاب القرآن المجيد : ص 77–79.
[2] – انظر :الاتقان : ج2/ ص 168. والنهاية في غريب الحديث : ج4/ ص 10.
[3] انظر : كتاب الوحي : د. وليد الأعظمي .
[4] – انظر : فتح الباري : ج19/ ص 26 .

طالب ، وكتب له أحيانا جماعة من الصحابة) [1] . وأول من كتب له بمكة من قريش : عبد الله بن أبي السرح [2] . وأول من كتب له بالمدينة : أبي بن كعب ، وكتب له قبل زيد بن ثابت . ومن كتاب الوحي أيضا : ثابت بن قيس ، وأبو سفيان وابناه : معاوية ، ويزيد ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعامر بن فهيرة ، والعلاء بن الحضرمي ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وحذيفة بن اليمان ، وحويطب بن عبد العزى) [3]. وكثير غيرهم .وكان القرآن يكتب ويحفظ في بيت النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فلم ينقضِ العهد النبوي المبارك ، إلا والقرآن مجموع ومكتوب في صحف مفرقة – كما أسلفنا - ، وترتيبه معروف بتعريف النبي – صلى الله عليه وسلم – إياهم ، وعلى النحو الذي هو عليه الآن .

المرحلة الثانية: جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق τ :

انتقل الرسول – صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، والقرآن كله كان محفوظاً في الصدور ، ومكتوباً في السطور ، إلا أنه كان متفرقا ، غير مجموع بين دفتين ، وأول من جمعه بين دفتين في مصحف واحد بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – هو : أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – بإشارة من عمر – رضي الله عنه - لما استحر (أي : اشتد) القتل بالقراء يوم اليمامة ، في أواخر العام الحادي عشر للهجرة ، فخشي عمر – رضي الله عنه – أن يتكرر مثل هذا في المستقبل ، وقد يكون عند من يستشهد منهم شيء من القرآن لا يحفظه غيره ، وليس ببعيد أن يفقد مع استشهادهم قطع كتب عليها شيء من القرآن بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ، وقد يكون ما كتب في هذه القطع لا يحفظه إلا القراء الذين استشهدوا ، وبذلك يضيع شيء من القرآن . فأشار على أبي بكر بجمع القرآن في صحف متماثلة المقدار ، ثم يجعلها بين دفتين حتى يمكن صيانتها من الضياع .

فندبا زيد بن ثابت – رضي الله عنه – إلى ذلك ، فجمعه غير مرتب السور بعد تعب شديد ، يدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله السباق ، أن زيد بن ثابت – رضي الله عنه – قال (أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب- رضي الله عنه - عنده ، قال أبو بكر : - رضي الله عنه - : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن .

فقلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ..؟ قال عمر : هذا والله خير . فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر .

قال أبو بكر : إنك شاب عاقل ، ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله – صلى الله عليه وسلم - ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفني نقل حبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن ، فقلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ..؟ فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر .

---

[1] – فتح الباري : ج27/ ص213.

[2] – هو أخ لعثمان من الرضاعة ، وكان قد ارتد ثم عاد إلى الإسلام يوم الفتح ، شهد فتح مصر ، وكان صاحب الميمنة ، وغزا إفريقية ، وذات الصواري ، وكان واليا على الصعيد زمن عمر ، ثم ضم إليه عثمان مصر كلها ، ولما وقعت الفتنة سكن عسقلان ، ولم يبايع لأحد بعد عثمان ، وقيل شهد صفين ، وعاش إلى سنة 57هـ ، وجهاده في الإسلام أعظم من أن تقبل فيه افتراءات المستشرقين ذوي الأغراض الدنيئة ، أنظر الإصابة ج2/ ص316 . -1

[3] – انظر : الإصابة : ج2/ ص316. والطبقات الكبرى : ج7/ ص 190 .

فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع ، والأكتاف ، والعسب ، وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبي خزيمة الأنصاري .. لم أجدها مع غيره : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر – رضي الله عنها -)[1] . وكان زيد لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان ، فقد قال أبو بكر لعمر ولزيد : اقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه)[2]. فهذه الرواية تدل دلالة واضحة على أنهم ما كانوا يكتبون بمجرد وجدان شيء من كتاب الله مكتوبا ، حتى يشهد به من تلقاه سماعا ، زيادة في الاحتياط .

قال ابن حجر : وكان المراد بالشاهدين : شاهد الحفظ ، وشاهد الكتابة .

وقال السخاوي : المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم - وأنه من الوجوه التي نزل بها القرآن [3] .

وقد كان لزيد بن ثابت – رضي الله عنه – مؤهلات خاصة رشحته للقيام بهذا العمل ، منها : -

1 - أن زيد بن ثابت كان من كتاب الوحي بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ، وكان من حفظة القرآن ، وشهد العَرْضَة الأخيرة .

2 - شبابه وقوته ، حتى لا تفتر عزيمته ، أو يضعف أمام هذا العمل الذي يحتاج إلى جهد وصبر .

3 - رجاحة عقله وفطانته ، حتى يكون عمله متكاملا بعيدا عن أي خلل أو نقص .

4 - أمانته وتقواه ، حتى يكون بعيدا عن الريبة والشك .. وقد تكون هذه الصفات موجودة في كثير من حفظة القرآن ، ولكنها قد لا تكون مجتمعة في واحد منهم كما اجتمعت في شخصية زيد بن ثابت – رضي الله عنه - ، فأهلته للقيام بهذا العمل ، فقام بهذه المهمة في صحف أبي بكر ، ومصحف عثمان – رضي الله عنهم جميعا - ، وجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

مزايا جمع أبي بكر :

لجمع القرآن في عهد أبي بكر مزايا عديدة منها : -

1- البحث عن القطع التي كتب بها القرآن من قبل وجمعها قبل ضياع شيء منها أو تآكلها ، وتجديد كتابتها في صحف مجتمعة متساوية المقدار ، وفي هذا ضمان وصيانة للقرآن ، بحفظه في السطور بجانب حفظه في الصدور .

2- اتصال السند الكتابي ، وتجلى ذلك بالأخذ عن الصحف التي كتبت بين يدي رسول الله – صلى الله عليه وسلم -.

3- اقتصر في هذا الجمع على ما لم تنسخ تلاوته – عند القائلين بنسخ التلاوة - ، وجرد من كل ما ليس بقرآن .

---

[1] – انظر : فتح الباري : ج6/ ص 225-226.

[2] – الإتقان : ج1/ ص 165.

[3] – الإتقان : ج1/ ص 167.

4- لم يكتب فيها إلا ما أجمع الصحابة على أنه قرآن ، وتواترت روايته ، فقد جاءهم عمر -رضي الله عنه – بآية الرجم فلم يكتبوها مع شهادة عمر بها ، ورؤيتهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يطبق حدّ الرجم ، ومع معرفتهم بأنها من فرائض الله ، إلا أنهم لم يكتبوها لأن عمر – رضي الله عنه – جاء بها وحده .[1]

5- رتبت الآيات دون السور ، ثم جمعت هذه الصحف بين دفتين [2].

هذه بعض المزايا التي تمتعت بها صحف أبي بكر ، والتي جعلت الصحابة – رضوان الله عليهم – يلهجون بالثناء على أبي بكر – رضي الله عنه – بجمعه القرآن ، وحفظه من الضياع ، قال علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه - : (أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع كتاب الله ..) [3] .

المرحلة الثالثة: جمع القرآن في عهد عثمان τ

إذا كان أبو بكر الصديق – رضي الله عن – أول مجدد لأمر الإسلام بأعماله الحاسمة ، ومواقفه الخالدة في أحداث الردة ، فإن عثمان – رضي الله عنه – أول مصلح في الإسلام قام بأعظم عمل قلد به الأمة الإسلامية أجَلَّ المِنن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بجمعه القرآن الكريم على حرف واحد ، وتوحيد المصاحف وجمع كلمة الأمة على نص موحد لدستورها ، المهيمن على أنحاء حياتها .. روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك – رضي الله عنه - : _ (أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وآذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم .

وفي رواية أخرى للبخاري : - إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن ، فاكتبوها بلسان قريش فإن القرآن نزل بلسانهم ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحَرَّق ..) [4]

وقد قيض الله تعالى الخليفة الثالث عثمان -رضي الله عنه – بإجماع أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – للقضاء على هذه الفتنة ، وجمع الناس على مصحف واحد ، وكان ذلك في سنة (25 هـ) في السنة

---

[1] – انظر : الإتقان : ج1/ ص 58.

[2] – المدخل لدراسة القرآن الكريم : ص 273.

[3] – انظر : مناهل العرفان : ج1/ ص253. والمدخل لدراسة القرآن الكريم : ص 273.

[4] – صحيح البخاري : ج6/ ص 99.

الثانية أو الثالثة من خلافته ، قال : وغفل بعض من أدركناه ، فزعم أنه كان في حدود سنة ثلاثين ، ولم يذكر مستندا ..) [1] .

وقام عثمان – رضي الله عنه – بنفسه للإشراف على هذا الأمر الجلل ، يدلنا على ذلك اختلافهم في لفظ (التابوت) وتحاكمهم إليه ، وأمره أن يكتبوه بلغة قريش ..

وقد اقتصر فيه على لغة قريش التي نزل القرآن بها ابتداء ، بعد مشورة أهل الرأي من الصحابة .

أخرج ابن أبي داود بإسناد صحيح عن سويد بن غفلة قال : - (قال علي : لا تقولوا في عثمان إلا خيرا ، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا على ملأ منا ، قال : ما تقولون في هذه القرأة ..؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول : إن قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفرا ، قلنا : فما ترى ..؟ قال : أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا اختلاف ... قلنا : نِعم ما رأيت ..) [2] .

الفرق بين جمع عثمان و جمع أبي بكر – رضي الله عنهما -

هناك بعض الفروق بين جمع عثمان وجمع أبي بكر منها : -

تقدم أن أبابكر جمع القرآن بإشارة من عمر – رضي الله عنه - ، وسببه الخوف من ضياع القرآن باستشهاد القراء في الغزوات والمواطن ... **أما في خلافة عثمان** – رضي الله عنه – فقد كثر اختلاف الناس في قراءة القرآن ، فخشي عثمان عاقبة هذا الأمر الخطير ، وقام بجمع القرآن على حرف واحد من الأحرف السبعة ، وهو حرف قريش الذي نزل به القرآن ابتداءً ، وترك الأحرف الستة الباقية حرصا منه على جمع المسلمين على مصحف واحد في حرف واحد ، وعزم على كل من كان عنده مصحف مخالف لمصحفه الذي جمعه أن يحرقه ، فأطاعوه واستصوبوا رأيه . فالمصحف العثماني لم يجمع إلا بحرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن وهو : حرف قريش وأما القراءات المعروفة الآن جميعها ، فهي في حدود ذلك الحرف الواحد فقط ، وأما الأحرف الستة الباقية فقد اندرست معرفتها بتاتا من الأمة .

وذلك بعد أن زالت تلك الضرورة التي استوجبت القراءة بالأحرف السبعة ، دفعا لغائلة الفتنة بين أبناء الأمة ، وصونا لعقيدتها عن سوء مغبة الخلاف .

إن الصديق أبابكر أمر بكتابة نسخة واحدة لتبقى في دار الخلافة مرجعا للمسلمين ، أما عثمان فأمر بكتابة بضعة نسخ ، ووزعها على الأمصار الإسلامية ، وأرسل مع كل نسخة قارئا حافظا .

جمع أبي بكر للقرآن كان نقلا لما كان مفرقا في الرقاع وغيرها ، وجمعها بين دفتين ، أما جمع عثمان فكان نسخا للمصحف الذي جمعه أبو بكر ، مع الاقتصار على حرف واحد ، وهو حرف قريش ، بعد زوال الضرورة التي استدعت قراءته بالأحرف السبعة [3] .

كان جمع عثمان فيه ترتيب للسور كما هو مكتوب الآن في المصاحف التي بين أيدينا الآن .

---

[1] – فتح الباري : ج10/ ص 391.

[2] – انظر البرهان : ج1/ ص 239.

[3] – انظر : مناهل العرفان : ج1/ ص 262.

عدد المصاحف العثمانية

وقد اختلفت الروايات في عدد المصاحف التي فرقها عثمان في الآفاق ، فقيل : إنها أربعة ، وقيل : إنها خمسة ، وقيل : إنها ستة ، وقيل : سبعة ، وقيل : ثمانية . [1]

قال ابن أبي داود : سمعت أبا حاتم السجستاني يقول : كتبت سبعة مصاحف إلى مكة ، والشام ، واليمن ، وإلى البحرين ، وإلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً ..) [2] . ونرجح بأن عثمان – رضي الله عنه – قد أرسل بنسخة من المصحف إلى كل قطر فتحه المسلمون آنذاك ، ويدل على ذلك العقل والنقل ..

أما العقل : فإن الغرض من إرسال المصاحف إلى الأمصار هو القضاء على الفتنة التي كانت قائمة حينئذ بسبب اختلاف المسلمين في القراءة ، والمنع من حدوث مثلها مرة أخرى في أقطار المسلمين ، وهذا لا يتحقق إلا بإرسال المصاحف إلى جميع الأمصار .

وأما النقل : - فهو حديث أنس الذي منه : (وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا .)[3] . وكلمة أفق تدل بعمومها على أنه أرسل المصاحف إلى جميع الأمصار لا إلى بعضها دون البعض الآخر ، وكتبت بالخط الكوفي ، وبغير نقط ولا شكل ، ولم يكن فيها علامات للأجزاء والأحزاب ، ونحوها .

وبعث – رضي الله عنه – مع كل مصحف من يرشد الناس إلى قراءته ، بما يحتمله رسمه من القراءات مما صح وتواتر .. فكان عبد الله بن السائب مع المصحف المكي ، والمغيرة ابن شهاب مع المصحف الشامي ، وأبو عبد الرحمن السلمي مع المصحف الكوفي ، وعامر بن قيس مع المصحف البصري ، وأمر زيد بن ثابت أن يقرئ الناس بالمصحف المدني ..

مقارنة بين جمع القرآن في عهوده الثلاثة

1- كتب القرآن في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – لكنه لم يجمع في مكان واحد إلا بعد وفاته ، ولم يجمع في مكان واحد إلا في عهد أبي بكر وعثمان ، وكان في عهوده الثلاثة مجردا من النقط والشكل ، والأعشار ، والأحزاب .

2- لم يكن القرآن في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – مرتب الآيات والسور ، أما في عهد أبي بكر – رضي الله عنه – فقد كان مرتب الآيات دون السور ، وفي عهد عثمان – رضي الله عنه – رتبت آياته وسوره كذلك .. [4]

3- جُرِّد القرآن من المنسوخ في عهود جمعه الثلاثة ، ففي عهد النبي – صلى الله عليه وسلم –لم يترك صحيفة فيها منسوخ التلاوة – على رأي من قال بذلك - ، أما في عهدي أبي بكر وعثمان فلأن زمن النسخ قد انقضى بوفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم - ، وعرف الناسخ والمنسوخ .

---

[1] – انظر : تاريخ القرآن : ص 76.

[2] – انظر : فتح الباري : ج9/ ص 16.

[3] – فتح الباري : ج9/ ص 21.

[4] – منهج الفرقان : ص 109 .

4- كتب القرآن في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – وعهد أبي بكر بالوجوه التي نزل بها القرآن ، والمعبر عنها بالأحرف السبعة ، أما في عهد عثمان – رضي الله عنه – فكتب بحرف قريش خاصة . وكان بعضهم يكتب لنفسه أحيانا حسبما تلقى من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بما يوافق لغته من الحروف السبعة التي نزل بها القرآن ، ولما حصل الخلاف زمن عثمان ، أحرق عثمان تلك المصاحف ، وأبقى حرف قريش خاصة ، الذي نزل به القرآن ابتداء ...

5- كان جمع القرآن في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – مع أنه محفوظ في الصدور ، لكمال العناية به ، ولحفظه ، وصيانته . وكان جمع أبي بكر للقرآن خشية ضياع شيئ من القرآن بموت حفظته في المواطن ، وفي ميادين الجهاد ، ولتكون الصحف مرجعا يرجعون اليه عند الحاجة . وأما جمع عثمان : فقد كان لرفع الخلاف الناجم في قراءة الأحرف السبعة ، فجمعه على حرف قريش الذي نزل به القرآن ابتداء ..

القراءات القرآنية

القراءة لغة :- جمع قراءة ،وهي في الأصل مصدر سماعي لقرأ ..يقرأ ..قراءة .. و قرآنا .[1]

وفي الاصطلاح : - علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزو لناقله .[2]

والقراءة التي عليها الناس بالأمصار هي القراءة التي تلقوها عن سابقيهم تلقِّياً ، وقام بها في كل مصر من الأمصار رجل ممن أخذ عن التابعين ، أجمعت الخاصة والعامة على قراءته ،وسلكوا فيها طريقه ، وتمسكوا بمذهبه روى ابن مجاهد بسنده عن – زيد بن ثابت – قال : - (القراءة سُنَّة) [3].

وحكمه :- الوجوب الكفائي تعلماً وتعليماً [4] ، إذا قام به البعض سقط عن الباقين .

فوائد اختلاف القراءات : -

من الواضح عند التأمل في القراءات أن الاختلاف في القراءة لا يؤدي آلي تناقض في المقروء ، بل هو اختلاف تنوع يُصَدِّق بعضه الآخر ، لا اختلاف تضاد ، وهذا الاختلاف له فوائد كثيرة منها :

1 : - بيان حكم مجمع عليه ، كقوله تعالى :- (.....وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ .....) (سورة النساء / 12.) .قرأ سعد بن أبي وقاص : (وله آخ أو أخت من أم) بزيادة لفظ (من أم)فظهر بها أن المراد بالاخوة هنا هم : الاخوة لأم ، وهذا أمر مجمع عليه . [1]

---

[1] – لسان العرب – مادة – قرأ– ج5/ ص 3563 . والقاموس المحيط فصل القاف باب الهمزة ج1/ ص25 .

[2] – منجد المقرئين – ص61.

[3] – كتاب السبعة في القرء ا ت ص49 .

[4] – إرشاد المريد ص3 .

2 : - ترجيح حكم اختلف فيه ..كقوله تعالى في كفارة اليمين : (..... فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ.....) (سورة المائدة /89) فقراءة (أو تحرير رقبة مؤمنة) بزيادة لفظ (مؤمنة) [2] فيها ترجيح لاشتراط الإيمان ، كما ذهب إليه الشافعي ، ومالك ، فانهما اشترطا ذلك خلافا لأبي حنيفة .[3]

3 :- الجمع بين حكمين مختلفين : كقراءة (يَطْهُرْن) و (يَطَّهَرْنْ) ، بالتخفيف والتشديد ، وهما قراءتان صحيحتان [4] ، فقد قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وفي رواية خفض عنه (يطهرن) بتخفيف الطاء ، وضم الهاء . .. وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية أبي بكر والمفضل عنه (يطهرن) بتشديد الطاء وفتح الهاء ..[5] وصيغة التشديد تفيد المبالغة في طهر النساء من الحيض ، أما قراءة التخفيف فلا تفيد تلك المبالغة . .. وبمجموع القراءتين يحكم بأمرين : - أحدهما :- إن الحائض لا يقربها زوجها حتى يحصل أصل الطهر ، وذلك بانقطاع الحيض .. ثانيهما :- أنه لا يقربها زوجها إلا إذا بالغت في التطهر وذلك بالاغتسال ، فلا بد من الطهورين كليهما لجواز قربان النساء بعد الحيض .[6].. وهذا ما ذهب اليه الإمامان : مالك ، والشافعي والجمهور .[7]

4 :- الدلالة على حكمين شرعيين ، كقراءة (وأرجلكم) بالخفض ، والنصب ، في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ....الآية)(سورة المائدة / 6.) والقراءتان صحيحتان ، فقد قرأ نافع ، وابن عامر ، والكسائي ، ويعقوب ، وحفص ، (أرجلَكم) بفتح اللام ، وقرأ بقية العشرة بخفضها . [8]

فقراءة النصب تفيد : طلب غسل الرجلين ، لعطفها على لفظ (وُجُوهَكُمْ) و (وَأَيْدِيَكُمْ) المغسولة وهو منصوب ...

وقراءة الجر :- تفيد مسحها ، عطفا على لفظ (بِرُءُوسِكُمْ) المجرور وهو ممسوح . ..

ثم بين الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن المسح يكون للابس الخف ... فقد روى البخاري ، ومسلم – واللفظ للبخاري – عن المغيرة بن شعبة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : (أنه خرج لحاجته ،

---

[1] –علما بأن هذه القراءة شاذة وغير متواترة _– أنظر في رحاب القرآن ج1/ ص227 .

[2] – وهي قراءة شاذة غير متواترة – انظر في رحاب القرآن ج1/ ص227 .

[3] –انظر بداية المجتهد ج1/ ص419

[4] – المهذب في القراءات السبع وتوجيهها – د. محمد سالم محيسن ج1/ ص91 .

[5] – انظر السبعة –لابن مجاهد ص 182 .

[6] – انظر مناهل العرفان ج1/ص148 .

[7] –بداية المجتهد ج1/ ص57–58 .

[8] – انظر النشر .. ج2/ ص254 .

فاتبعه المغيرة بإداوة فيها ماء ، فصب عليه حتى فرغ من حاجته ، فتوضأ ومسح على الخفين) [1] وأن الغسل يجب على من لم يلبس الخفين . ..

5 : - دفع توهم ما ليس مراداً .. كقوله تعالى : - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (سورة الجمعة / 9 .) فقرأ بعضهم : (فامضوا) وهي قراءة شاذة [2] بدلا من (فاسْعَوْا) وهي القراءة الصحيحة المتواترة .. **فالقراءة الأولى** : قد يفهم منها وجوب السرعة في الذهاب إلى صلاة الجمعة ، لكن **القراءة الثانية** رفعت هذا الفهم ، لأن المضي يفهم منه مطلق الذهاب ولا يدل على السرعة فيه ..

6 :- بيان لفظ مبهم على البعض ..كقراءة (كالصوف المنفوش) – وهي قراءة شاذة – في قوله تعالى (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) (القارعة : 5) [3] ، فبينت القراءة الثانية أن العهن هو الصوف .

7 : - بيان معتقد ضَلَّ فيه بعض المسلمين .. كقراءة (وملكا) بكسر اللام في قوله تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا) (سورة الإنسان / 20 .) وقد وردت هذه القراءة عن ابن كثير وغيره ..[4]، وفيها دليل على رؤية الله تعالى في الآخرة .

8 - بيان فضل هذه الأمة من حيث تلقيهم كتاب ربهم هذا التلقي ، وإقبالهم عليه هذا الإقبال ، والبحث في ألفاظه ، لفظة لفظة ، وإتقان تجويده ، فلم يهملوا تحريكا ولا تسكينا ، ولا تفخيما ، ولا ترقيقا ، حتى ضبطوا مقادير المدات ، وتفاوت الامالات ..

9 - ظهور سر الله تعالى في توليه حفظ كتابه العزيز ، وصيانة كلامه المنزل ، فلم يُخْلِ الله تعالى عصراً من العصور من إمام حجة ، قائم بنقل كتاب الله تعالى وإتقان حروفه ورواياته ، وتصحيح وجوهه وقراءاته ، وذلك مصداقا لقوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)(الحجر / 9)

أنواع القراءات :

جعل ابن السبكي القراءات على ضربين : المتواتر : وهو ما نقله جمع لايمكن تواطؤهم على الكذب ، والشاذ :- وهو غير المتواتر ، وجعل القراءات السبع والعشر متواترة ، والشاذ ما وراء ذلك . [5]

والذي حرره ابن الجزري ونقله عنه السيوطي وغيره : أن أنواع القراءات ستة : -

---

[1] – فتح الباري ج1/ص367 ، وانظر صحيح مسلم ج4 / ص168.

[2] – في رحاب القرآن – د. محمد سالم محيسن ج1/ص288.

[3] – وهي القراءة الصحيحة المتواترة ، أنظر في رحاب القرآن ج1/ ص288 ..

[4] – انظر مناهل العرفان ج1/ ص141–142 .

[5] – انظر منهج الفرقان ج1/ ص173 ، والنشر ج1/ 45–46.

النوع الأول : - المتواتر : - وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب ، عن مثلهم ، ومثاله : ما اتفقت الطرق في نقله عن السبعة أو عن غيرهم ، وهذا هو الغالب في القراءات .

النوع الثاني : المشهور :- وهو ما صح سنده بأن رواه العدل الضابط عن مثله ، ووافق العربية ولو بوجه ووافق أحد المصاحف العثمانية ، سواء أكان عن الأئمة السبعة أو غيرهم من الأئمة المقبولين ، واشتهر عن القراء ، فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ ، إلا أنه لم يبلغ درجة التواتر .

النوع الثالث : - الآحاد :- وهو ما صح سنده ، وخالف الرسم أو العربية ، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور وهذا النوع لا يقرأ به ، ولا يجب اعتقاده .من ذلك : ما أخرجه الحاكم من طريق عاصم الجحدري عن أبي بكرة ، أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قرأ (متكئين على رفارف خضر وعباقري حسان) بينما القراءة المتواترة (مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ) (الرحمن / 76) [1] .

النوع الرابع : الشاذ : - وهو ما لم يصح سنده ، كقراءة (ابن السميقع) (فاليوم ننحيك ببدنك) بالحاء المهملة ، (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً .....) (سورة يونس / 92) ، وبفتح الخاء وسكون اللام من كلمة (خَلْفَكَ) [2]ومن ذلك أيضا : قراءة (ملك يوم الدين) بصيغة الماضي في (ملك) ونصب (يوم) ..[3]

وهذا لا يجوز اعتقاده ، ولا يقرأ به ، لا في الصلاة ولا في غيرها .

النوع الخامس : - الموضوع :- وهو ما نسب إلى قائله بغير أصل ..

ومثل ذلك : - القراءات التي جمعها محمد بن جعفر الخز اعي ، ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي ، ونسبها إلى الإمام أبي حنيفة .. مثل قوله تعالى : - (...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)(سورة فاطر / 28) برفع لفظ الجلالة (الله) ونصب همزة (العلماء) ، مع أن هذه القراءة لا أصل لها . [4]

النوع السادس : - ما يشبه المدرج : وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير ..

ومثاله : ما روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قراءة (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج) بزيادة (في مواسم الحج) [5]، وقراءة سعد بن أبي وقاص (وله أخ أو أخت من أم) بزيادة (من أم) [6].....

---

[1] –انظر المستدرك – للحاكم ج2 / 250 .

[2] – قرأ العشرة : ننجيك، بالجيم ،وشددها تسعة منهم ، وخففها يعقوب، أنظر النشر ..ج2/ 259

[3] – منهج الفرقان ج1/ 174 .

[4] – منهج الفرقان ج1/174 .

[5] – فتح الباري ج8/ ص34 .

[6] – الإتقان ج1/ص102 .

أركان القراءة المقبولة :

قال ابن الجزري :- (كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا ، وصح سندها ، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها ، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ..ووجب على الناس قبولها ، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة ، أطلق عليها : ضعيفة أو شاذة ، أو باطلة ، هذا هو التحقيق عند أئمة التحقيق من السلف ، والخلف ، ويجمع هذا الضابط قول ابن الجزري في الطَّيبة :-

فكل ما وافق وجه النحو وكان للرسم احتمالا يحوي

وصح إسنادا هو القرآن فهذه الثلاثة الأركان .

وحيثما يختل ركنا أثبت شذوذه لو أنه في السبعة .[1]

ولا تقبل قراءة تُعزى إلى إمام سواء أكان من السبعة أم من غيرهم ، ولا يطلق عليها لفظ الصحة ، إلا إذا انطبقت جميع الأوصاف عليها ، فإن الاعتماد إنما هو على استجماع تلك الأوصاف لا على من تنسب إليه

الركن الأول : - موافقة العربية ولو بوجه من وجوه النحو :
إذ هو الأصل الأعظم ، والركن الأقوم ، وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية ، فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو ، ولم يعتبر إنكارهم ، بل أجمع الأئمة المقتدى بهم من السلف على قبولها ،

ومن أمثلة ما أنكره النحاة وغيرهم من القراءة المتواترة : قراءة : حمزة ، وقتادة ، وإبراهيم ، والأعمش ، (والأرحام)(بجر الميم) .. (وقرأ بقية القراء – والأرحام – بالنصب) [2] في قوله تعالى :- (..... وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)(سورة النساء / 1) وهذا الخلاف يدور حول عطف الاسم الظاهر (والأرحام) على الضمير المجرور في كلمة (به) دون إعادة حرف الجر (الباء)وردها معظم النحاة البصريين ، فاتهموها حينا بالخطأ ، وحينا آخر باللحن ، وأجازها الكوفيون لورودها بالشعر العربي ..

كقول الشاعر :-

بنا أبدا لا غيرنا تدرك المنى ..... وتكشف غماء الخطوب الفوادح .[3]

---

[1] – طيبة النشر : 1: 10

[2] – انظر النشر ج2/ 247 ، والبحر المحيط ج3/ ص 157 ، والكشاف ج1/ ص375 .

[3] – الإنصاف ج2 /ص465 .

فقد عطف الاسم الظاهر (غيرنا) على الضمير المخفوض في (بنا) . ..

لذا لا يجوز ألبته إخضاع القراءة لقواعد اللغة ، إذ أنها ليست حَكَماً على القراءة .

الركن الثاني : - موافقة أحد المصاحف العثمانية : والمراد به :- أن توافق أحد المصاحف التي نسخها عثمان – رضي الله عنه – وأرسل بها إلى الأمصار ، كقراءة – ابن عامر - : (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)(البقرة /116) بدون واو ، وقوله تعالى : (.....وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)(آل عمران / 184) زيادة الباء في الاسمين ، ونحو ذلك ، فانه ثابت في المصحف الشامي . وكقراءة – ابن كثير – قوله تعالى : (.... وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(التوبة / 100) فان ذلك ثابت في المصحف المكي ....

الركن الثالث : صحة السند :- والمراد به : أن يروي تلك القراءة العدل الضابط عن مثله وهكذا حتى تنتهي ، وأن تكون مشهورة عن أئمة هذا الشأن الضابطين له ، غير معدودة عندهم من الغلط ، أو مما شذ بها بعضهم .. [1]،

التعريف بأئمة القراءات

هم الأئمة الذين نسبت إليهم القراءات السبع أو العشر أو الأربع عشرة ..

فأئمة القراءات السبع هم : نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وعبد الله بن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي .

وأئمة القراءات العشر هم : هؤلاء السبعة مضافا إليهم : أبو جعفر ، ويعقوب ، وخلف .

وأئمة القراءات الأربعة عشر هم : هؤلاء العشرة مضافا إليهم : الحسن البصري ، وابن محيصن ، ويحيى اليزيدي والشنبوذي .. [2]

القراء السبعة

1 -الإمام ابن عامر الشامي (ت118 للهجرة) : هو عبد الله بن عامر الشامي اليحصبي، ويكنى : بأبي عمرو ، وهو من التابعين ، ومن علماء الطبقة الثالثة . قال ابن عامر : ولدت سنة ثمان من الهجرة بضيعة يقال لها **رحاب** (على طريق المفرق إربد)، وقبض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولي سنتان .ويعتبر ابن عامر إمام أهل الشام في القراءة . قال ابن الجزري : (كان ابن عامر إماماً كبيراً ، وتابعياً

[1] – النشر ج1/ ص11–13 .

[2] – انظر النشر ج1/ص 112 ، ومعرفة القراء الكبار ج1/90–92 .

جليلاً ، وعالماً شهيراً أمَّ المسلمين بالجامع الأموي سنين عديدة في أيام عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه - ، وكان يأتم به ، وهو أمير المؤمنين ، وجمع له بين الإمامة والقضاء ، ومشيخة الإقراء بدمشق ، فأجمع الناس على قراءته ، وعلى تلقيها بالقبول .. [1]

2-- الإمام ابن كثير المكي : (ت120 للهجرة) : - هو عبد الله بن كثير بن عمر بن عبد الله ، من علماء الطبقة الثالثة ، قال ابن الجزري : (كان ابن كثير إمام الناس في القراءة بمكة ، لم ينازعه فيها منازع)..[2]

3-الإمام عاصم الكوفي : هو عاصم بن بهدلة ، أبي النجود السدي ، ويكنى بأبي بكر ، وهو من التابعين ، ومن علماء الطبقة الثالثة ..

4 – أبو عمرو بن العلاء البصري (ت 154 للهجرة) : وقيل : اسمه يحيى ، وكان إمام البصرة ومقرؤها . قال أبو عبيده معمر بن المثنى (ت 210 للهجرة) : (كان أبو عمرو أعلم الناس بالقراءات ، والعربية ، وأيام العرب ، والشعر ، وأيام الناس) .. [3]

5 –الإمام حمزة الكوفي (ت 156) : هو حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات ، ويكنى أبا عمارة ، وهو من علماء الطبقة الرابعة ، قال عن نفسه : ما قرأت حرفا من كتاب الله إلا بأثر ، وقد قرأ على عدة شيوخ..[4]

6 – الإمام نافع المدني : (ت 169 للهجرة) : هو أبو رُويم نافع بن أبي نعيم الليثي ، أصله من أصفهان ، وهو من علماء الطبقة الرابعة ، وكان شديد سواد اللون . قال مالك بن أنس - رضي الله عنه - : نافع إمام الناس في القراءة ، ولقب بوَرش **:** لشدة بياضه ،وكان حسن الصوت .. [5].

7 – الإمام السابع : علي بن حمزة النحوي (ت189 للهجرة) :- ويكنى أبا الحسن ، وقيل له الكسائي من أجل أنه أحرم في كساء ، وهو من علماء الطبقة الرابعة ....[6] .

القصة القرآنية

خصائصها .....وأهدافها

(شغلت القصة القرآنية مساحة واسعة من كتاب الله و ما نظن أن موضوعا آخر كان له ما للقصة من نصيب)7 . والقرآن الكريم ليس كتاب قصص أو روايات تحكي أمور متخيلة ، إنما هو كتاب هداية و إعجاز ، و القصة إحدى وسائله لإبلاغ دعوته، و تثبيت شريعته ، بل كانت القصة بيانا لحقائق الإسلام ، و أداة للتربية ، و موطنا من مواطن العبرة والعظة من أحوال السابقين .

---

[1] – انظر معرفة القراء الكبار ج1/67–79 . ، والنشر لابن الجزري ج1/ 144 .

[2] – انظر معرفة القراء الكبار ج1/ ص70 . والنشر ج1/ 120–121 ، ووفيات الأعيان ج1/ ص314

[3] – النشر ج1 / 123 ، ومعرفة القراء الكبار ج1/ 86 ، والمهذب في القراءات العشر ج1/ ص 7 .

[4] – معرفة القراء الكبار ج1/ ص93– 95 . والنشر ج1/ ص165– 166 .

[5] – النشر ج1/ ص112 ، وانظر المهذب في القراءات العشر ج1/ ص7 .

[6] – معرفة القراء الكبار ج1/ ص 100 والنشر ج1/ ص 172 ،.

7 – القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته : أ. د فضل حسن عباس . ص 10.

تعريف القصة : تعددت تعريفات الأدباء للقصة في الاصطلاح ، فعرفها القاص المصري محمود تيمور بأنها : (عرض لفكرة مرت بخاطر الكاتب ،أو تسجيل لصورة تأثرت بها مخيلته ، أو بسط لعاطفة اختلجت في تصوره , فأراد أن يعبر عنها بالكلام,ليصل بها إلى أذهان القراء) 1.

وهذا التعريف لا ينطبق على مفهوم القصة القرآنية، فهي ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه، وطريقة عرضه، وسير حوادثه، كما هي الحال في القصص الفني، بل كانت القصة في القرآن وسيلة من الوسائل الكثيرة التي استخدمها لغرضه الأصيل ، وهو:التشريع، وبناء الفرد والمجتمع، ولم يكن القصص القرآني سرداً لتواريخ الماضين، وذكراً لشؤونهم وأطوارهم فحسب ، بل يهدف إلى استخلاص النتائج للاتعاظ والاعتبار وتقول الدكتورة مريم السباعي :(هي تتبع آثار و أخبار الأمم الماضية ، و إيراد مواقفهم وأعمالهم , و بخاصة مع رسل الله إليهم , مع إظهار أثار تلك الدعوات فيهم و ذلك بأسلوب حسن جميل ، مع التركيز على مواطن العبرة والعظة) 2.

[الفرق بين القصة وغيرها من فنون القول]

الفرق بين القصة و الرواية :

تكاد تكون(الرواية)من مرادفات القصة ,ولكنها في أصل استعمالها اللغوي ليست كذلك ,فالرواية في اللغة:مصدرها الري, من روى يروي فهو ريّان ، والمرأة:ريا، وماء رُواء ورَوِيّ: هو الماء العذب الذي يكون للوارد فيه الري، أما من يروي أهله بخاصة، والناس بعامة,مع خيلهم ودوابهم في السفر فهو الراوي، وجمعه:الرواة حيث يقوم بحمل الماء على ظهور الدواب، ليروي بها من يطلب الري من أهله وقومه، ثم تطور بعد ذلك مجازا إلى الإرواء المعنوي بعلم أو خبر .. و من هنا كانت الرواية أوسع من القصة في معناها ، لأن معنى روى يقترن فيه الإرواء بالشبع و الامتلاء ، فهذا يعني تأكيد معنى الكثرة و المبالغة ، في الإرواء المادي و المعنوي ، ولما كانت الرواية بهذا المعنى تعنى التطويل و التفصيل و الإسهاب إلى حد ما في عرض الأحداث، ولم ترد في القرآن الكريم المعجز في إيجازه ..

الفرق بين القصة و الأسطورة :-

الأسطورة في أصلها اللغوي , تعني : الخط و الكتابة بشكلها المنظم الذي يتألف من سطور متتابعة، (فالسطر :الصف من كتب و من شجر مغروس و نحوه ، و السطر : الخط والكتابة ، و السطر: الكتاب يمحى ثم يعاد الكتابة فيه 3.. و قد وردت في القرآن الكريم بمعنى الخط و الكتابة في عدة مواضع 4.

وقال في اللسان : (واحد الأساطير أسطورة , و الأساطير : الأباطيل , و الأساطير : أحاديث لا نظام لها ، سطر فلان على فلان : إذا زخرف له الأقاويل و نمقها , و الأقاويل : الأساطير...) 5

فالأسطورة إذن : الأباطيل،والأكاذيب المؤلفة والمكتوبة ،أو المروية عن الآخرين.. والأساطير قصص خيالية مؤلفة ، فيها تنميق وتزو يق، وخيال وأكاذيب، وبُعد عن الواقع، ويتوسع حجم الأسطورة بمرور الزمن ، لأن كل من يحكيها يضيف إليها ما شاء من خياله ومبالغاته ، وبهذا تصبح قصصا شعبية إنسانية،تعبر عن تجارب الإنسانية البدائية ،وتهتم بالحديث عن موقف الإنسان من قوى الطبيعة ، كما تخيلها القدماء ، ومن هنا تختلف القصة عن الأسطورة ، من ناحية الصدق والحق فالأسطورة : تقوم على الكذب ، والأباطيل ، والأحاديث المنمقة ..

---

1 – فن القصص : محمود تيمور : ص 47 .

2 – القصة وأهدافها في القرآن : د. مريم السباعي ، ص 30.

3 – انظر : الجمهرة : ج2/ ص 329 . والصحاح : ج3/ ص 684. والتهذيب : ج2/ ص 326 .

4 – سورة القلم : آية / 1. ، وسورة الإسراء : آية / 18 . وسورة الطور : آية / 2.

5 – اللسان : ج6/ ص 28.

أما القصة القرآنية :فتلتزم الصدق و الحق ، (و هو أحسن القصص لما يمتاز به من حسن نظمه ، و إعجاز أسلوبه و بما يتضمنه من عبر و عظات و حكم ، فكل قصص القرآن هو أحسن القصص في بابه ، و أحسن من كل ما يقصه القاص في غير القرآن)1

خصائص القصة القرآنية ..وأهدافها .. وفوائدها

تختلف القصة في القرآن الكريم اختلافا جوهريا عن القصة في عرف الأدباء , من حيث الأسلوب ، والموضوع ، والهدف ، **ويمكن إجمال خصائص القصة القرآنية فيما يلي :-**

1- تلتزم القصة القرآنية الصدق والحق في عرض وقائع القصة , فالقصص القرآني ليس من نسج الخيال –كما أسلفنا - , بل هو من الواقع الذي يعيشه الناس ، تنزيل من حكيم عليم ، و لا يرد في أخباره إلا ما يكون موافقا للواقع , وليس في قصص القرآن إلا الحقائق التاريخية , يصاغ في صورة بديعة من الألفاظ المنتقاة، و الأساليب الرائعة,والإيجاز المعجز [2].

2- التركيز على بيان عقيدة التو حيد و البرهان عليها , و ذلك في أسلوب مشوق ، ففي سياق القصة تأتي الدلائل الواضحة على وحدانية الله و إرادته، و بالتالي إثبات أن العبودية لا تكون إلا له –سبحانه - ، فلا معبود سواه.

يقول الإمام محمد أبو زهرة –رحمه الله - : (..... وإنك لترى الدعوة إلى التوحيد واضحة في قصة يوسف –عليه السلام – فهو في السجن يدعو إلى التوحيد، وعبادة الله وحده ، ويجعل سلواه وهو في السجن ,الدعوة إلى الوحدانية , وسوق الأدلة على ذلك)[3] .. قال تعالى حكاية لما قاله يوسف -عليه السلام- : (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّار)(يوسف : 39) .

3- ارتباط القصة القرآنية بالوحي : فالقصة القرآنية من كتاب الله عز و جل ، و قد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في مقدمات بعض القصص و في أعقابها , فجاء في أول سورة يوسف –عليه السلام – (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)(يوسف : 3) . وجاء في سورة آل عمران في مبدأ عرضه لقصة مريم (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) (آل عمران : 44) .

فالقصص القرآني جزء لا يتجزأ من الوحي الذي نزل على رسول الله –صلى الله عليه و سلم - ، وهو –عليه الصلاة و السلام –لم يعرفها قبل نزولها عليه [4]

4- ركزت القصة القرآنية على الوسائل التربوية المختلفة ، التي لها دور فعال في غرس القيم الإسلامية الفاضلة ، مثل (التربية بالقدوة ، والتربية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتربية بالثوب والعقاب ، والتربية بالعادة ، والتربية بالأحداث الجارية) [5] وغير ذلك من الوسائل التي لها دور فعال في بناء الفرد والمجتمع ..

---

1 – التحرير والتنوير : للشيخ محمد الطاهر بن عاشور : ج12/ ص 202– 204 .

[2] – انظر القصص القرآني ، منطوقه ومفهومه : عبد الكريم الخطيب : ص12 . ومباحث في علوم القرآن : للشيخ مناع القطان : ص 306

[3] – المعجزة الكبرى : محمد أبو زهرة ، ص 190 .

[4] – الإعجاز والبيان في قصص القرآن : د. علي أحمد فراج ، ص 58 .

[5] – التربية الإسلامية : محمد قطب ، ج1/ ص180 .

5- تسامي القصة القرآنية في الهدف : - يرى المتأمل لقصص القرآن الشيئ الكثير من التسامي بالإنسان إلى الفضيلة ، ففي قصة امرأة العزيز يقول القرآن :- (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (يوسف : 23) . فالقصة لم تثر الغريزة الجنسية في الإنسان عند سماعه أو تلاوته هذه الآية الكريمة ، فقد وصفت القصة الموقف في كلمات معدودة ، خالية من الوصف الذي يحرك فيه غريزته الجنسية.. ومثل هذا التسامي نراه في قصة لوط - عليه السلام – مع قومه ، حيث يقول لهم :-(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ) (الأعراف : 80-81) . فالقصص القرآنية يدعو إلى التسامي ، وإلى الارتفاع عن الرذائل إلى الفضائل ، وهو دائما يسعى إلى إقامة مجتمع نظيف ، وتربية نفوس مستقيمة .

أهداف وفوائد القصص القرآني :

للقصص القرآني أهداف عديدة ، يصعب استقصاؤها في هذه العجالة ، منها **ما يلي** :-

1 - بيان أن الدين كله موحد الأساس، وأن الناس جميعا أمة واحدة ، والله الواحد هو رب الجميع [1] ، لذلك فالذي يقرأ في القرآن الكريم مجادلة الكافرين لأنبيائهم ، أمثال نوح ، وهود ، وصالح ،وإبراهيم – عليهم الصلاة والسلام -،يشعر بأنه يستعرض شريطا واحدا، ويتابع حلقات متصلة ،ذلك لأن دعوة الأنبياء واحدة ,فقد اتفقوا في الأصول وان اختلفوا في بعض الفروع والشرائع بما يناسب الزمان والمكان ..

2- بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة ، وأن استقبال قومهم لها متشابه ، على الرغم من اختلاف الزمان و المكان [2]، وقال تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)(النمل : 36) . ويقول سبحانه مبينا موقف الكافرين من أنبيائهم : (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) (الذاريات : 52-53) .

3- بيان أن الله سبحانه ينصر أنبياءه في النهاية ، و يهلك المكذبين ، وذلك تثبيتا للعقيدة في الأفئدة, قال تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ. فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)(العنكبوت : 14-15)

4-إطلاع المؤمنين على أحوال الأمم السابقة ، و الإفادة من تجاربهم ، و أخذ العبرة مما حل بهم ، و بيان درجات المؤمنين ، و درجات الكافرين ، و عاقبة كل من الفريقين , يقول تعالى : (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ . إلى قوله : وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) (هود : 100-103)

5- إيناس صاحب الرسالة - صلى الله عليه و سلم –و تثبيت قلبه ، يقول سبحانه : (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِين)(هود : 120) وفي ذلك تثبيت لمن آمن به إذا علموا أن مآل الثبات في سبيل الدعوة وجهاد الأعداء هو: الفوز والعزة للنبي – صلى الله عليه و سلم – وللمؤمنين، وأن مآل من يعاديهم هو : الخذلان والذل والوبال ، كما جرت سنة الله مع الأنبياء السابقين.

---

[1] – التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ، ص 130 .

[2] – التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ، ص 124 .

6- إظهار صدق النبي – صلى الله عليه و سلم - لأنه يخبر بما تطاولت عليه القرون و تقادمت عليه العهود , من غير أن يتصل بمعلم من المخلوقين ، ومن غير أن يقرأ في كتاب ، ولم يعرف القراءة ولا الكتابة , فكان ذلك من أكبر الأدلة على أن الله أعلمه ما لم يكن يعلم .

7- اشتمل القصص القرآني على أدلة قاطعة تبين حفظ الله و رعايته لرسله من خلال حديثها عن المعجزات و الخوارق التي أيد بها رسله ، فهذا نوح -عليه السلام – وسفينته تسبح في الطوفان الذي أغرق من لم يؤمن بدعوته .. و هذا إبراهيم – عليه السلام – و هو في وسط النار بعد أن جعلها الله تعالى بردا و سلاما عليه ، وهذه المعجزات كما أنها دليل قاطع على صدق من جرت على يديه , فهي دليل أكبر على رعاية الله و حفظه لرسله و أتباعهم .

8-- (كان للقصص القرآني عناية خاصة ببيان أسباب الهلاك التي يمكن أن تصيب الأمم والأفراد والجماعات وقد فصل ذلك تفصيلا عجيبا، وهو يتحدث عن الترف والطغيان ، والبطر والظلم ، والاستعباد الفكري ، والإرهاب والسخرية ،والرضا بالذل ، إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة المبثوثة في هذا القصص) [1]

هذه إلمامة ببعض الفوائد لورود القصص في القرآن الكريم ، وقد يكون لبعض القصص أغراض خاصة ، أو فوائد تخصه ، وقد يكون لكل قصة في موضعها إيراد مقصود ، وأثر مغاير يحتاج إليها السامع ، لتكتمل به الحقيقة التاريخية ، والعناصر التربوية [2] ، وما ذكرناه بمثابة الأصول الجامعة .

الوحدة الثالثة

إعجاز القرآن

الإعجاز في اللغة: نسبة العجز إلى الغير وإثباته له، والعجز هو القصور عن فعل الشيء..

والإعجاز: مصدر أعجز .. يقال: عجز فلان عن الأمر إذا حاوله فلم يستطعه، ولم تتسع له مقدرته وجهده، ويقال: أعجز الرجل أخاه، إذا أثبت عجزه عن شيء، وأعجز القرآن الناس: أي اثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز .

وإعجاز القرآن: مركب إضافي من إضافة المصدر إلى فاعله، أو الإضافة بمعنى (من) أي: إعجاز صادر من القرآن، أو بمعنى (باء السببية) أي إعجاز حاصل بسبب القرآن ، والتعجيز المذكور ليس مقصوداً لذاته، بل المقصود لازمه، وهو إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صدق[3]

والمعجزة في الاصطلاح: (أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة) [4]

ومن الملاحظ أن بعض الكاتبين في إعجاز القرآن لم يفرقوا بين المعجزة ودلائل النبوة عامة، بينما عمد مشاهير المحدثين إلى التفريق بينهما، فترجموا الكتب والأبواب المتصلة بالنبوة تحت عنوان (علامات

---

[1] – انظر : القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته : أ.د. فضل حسن عباس ، ص 11 .

[2] – انظر : المحاور الخمسة في القرآن الكريم : للشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – ص 97.

3 – انظر هذا الفصل في كتاب العقد النظيم في علوم القرآن الكريم، سامي عطا، غير منشور، بتصرف. وكتاب إعجاز القرآن للرافعي ص 203 ، ومختار الصحاح ص 414 ، والمعجم الوسيط 591/3 ، ومفردات الراغب ص 322 ، وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي 22/4 ، وعمدة الحفاظ للسمين الحلبي ص 343 ، ومناهل العرفان 331/2 .

4 – انظر الأربعين في أصول الدين ، للرازي ص 388 ط الهند .

النبوة)، كما فعل البخاري في صحيحه، أو (دلائل النبوة) ، كما فعل البيهقي وغيره..
ويراد منها: كل دليل يثبت نبوة محمد–صلى الله عليه وسلم – ويبرهن على صدقه، دون تقيد بشروط معينة، فتشمل السمات والعلامات الخاصة في جسده الشريف –صلى الله عليه وسلم -، وتبشير الكتب السماوية السابقة ببعثته، لكن تعريف المعجزة يؤكد أن من شرائطها (اقترانها بالتحدي)، إذ يتحدى النبي – صلى الله عليه وسلم-الناس، فيعجزون عن الإتيان بمثلها، فيثبت ذلك في أفئدتهم اليقين بأن الله أجراها على يده تصديقاً لنبوته، وتأييداً لدعوته، فكل معجزة علامة على نبوة صاحبها حتماً، ولكن ليس كل علامة أو دليل على النبوة أمراً معجزاً خارقاً للعادة مقروناً بالتحدي . فالمعجزة أخص من الدليل والعلامة [1].

وقد خلط بعض الباحثين بين **(الآية والمعجزة)**، فَهُما وإن اتفقتا في كونهما خارقين للعادة، إلا أن المعجزة تنفرد بأنها يُقصد بها التحدي، فلا تكون إلا بطلب من النبي – صلى الله عليه وسلم – والآية لا يُقصد بها ذلك، فلا يلزم أن تكون بطلبه ولا بإرادته.

فانقلاب العصا ثعباناً: آية ومعجزة،لأنه قصد بها التحدي ....

وانفلاق البحر آية، لأنه قصد به إنجاء موسى –عليه السلام – ومن معه، وليس بمعجزة لأنه لم يقصد به التحدي ..

وفرار الحجر بثوب موسى ، قُصِد به تبرئته، وليس بمعجزة لعدم التحدي .

وانشقاق القمر آية ومعجزة أيضاً لأنه وقع بطلب من النبي –صلى الله عليه وسلم – تحدياً للمشركين .

ونبع الماء من أصابعه الشريفة: آية وليس بمعجزة، لأنه وقع إسعافاً للصحابة بالماء في وقت عَزَّ وجوده فيه . عن جابر- رضي الله عنه – قال - (عطش الناس يوم الحديبية فأتوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبين يديه ركوة وقالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب، إلا ما في ركوتك، فوضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فتوضأنا وشربنا، وقيل لجابر: كم كنتم يومئذ ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا عشرة مائة) [2]

وحنين الجذع آية ، وليس بمعجزة لعدم التحدي ...

وحملُ مريم – عليها السلام – كان آية، قُصِد به إظهار قدرة الله في إيلاد البنت من غير مسيس ذكر، وقد حصل كُرهاً، حتى قال : (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا) (مريم: 23) لكنه ليس **بمعجزة لعدم نبوة مريم.**

---

1 – انظر : فتح الباري 375/6 ، والأربعين في أصول الدين ص 388 .ونبوة محمد في القرآن ، د. حسن ضياءالدين العتر ، ص 235.

2 – انظر : فتح الباري : ج6: 378.

وكلام عيسى- عليه السلام- في المهد آية، حصل لتبرئة مريم، وليس بمعجزة لعدم التحدي، وقد قال تعالى: (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)(المؤمنون/50)- فكل معجزة آية، وليست كل آية معجزة .

فالمعجزة إذن: هي أمر خارق للعادة، يظهره الله على يد مدعي النبوة يقصد بها التحدي تصديقاً له في دعواه، وغالباً ما تكون من جنس ما اشتهر به القوم، ويعجز البشر عن الإتيان بمثلها ...

فناقة صالح –عليه السلام -: معجزة، لأنهم تحدوه أن يخرج لهم ناقة ومعها فصيلها (أي : ولدها) من صخرة عينوها له، فخرجت الناقة كما أرادوها ..

وعصا موسى –عليه السلام- معجزة ، لأنها من جنس ما اشتهر به قوم فرعون في تلك الأيام، وهو السحر، فعصا موسى ليست بسحر، وإن كانت شبيهةً به، لذا عندما التقى موسى بالسحرة وألقوا حبالهم وعصيهم التي خُيِّلَ إليهم من سحرهم أنها تسعى، فأوجس في نفسه خيفةً موسى، ولو كان ساحراً لما خاف، لأن الساحر لا يخاف من السحر، فألقى عصاه فابتلعت كل ما صنعوا من السحر ، ثم عادت كما كانت عندما التقطها موسى -عليه السلام - ..

ومعجزة عيسى –عليه السلام – كانت من جنس ما اشتهر به قومه، إذ كان الفريسيون– وهم فريق من اليهود – قد أقنعوا عامة اليهود بقوة السحر على شفاء الأمراض، وطرد الجن من أجساد الناس، وما شابه ذلك، لكنهم لم يستطيعوا إحياء الموتى، أو إبراء الأكمه والأبرص، كما كان يفعل عيسى – عليه السلام- بإذن الله ..

وقد انتهت المعجزات بموت الرسل وانتهاء الرسالات، ولم يبق لنا إلا معجزة محمد –صلى الله عليه وسلم –، وهي معجزة عقلية بلاغية فصاحية، وكانت من جنس ما اشتهر به العرب الذين بعث فيهم محمد –صلى الله عليه وسلم – ، وتحداهم أن يأتوا بمثله، ثم بعشر سور من مثله، ثم بمثل أقصر سورة منه .. وقد ثبت عجزهم، ولو استطاعوا لما تخلفوا عن ذلك .. إذ كانوا حريصين على تكذيبه، ولوفروا على أنفسهم كثيرا من الدماء التي سالت فيما بينهم وبين المسلمين .وقد نشرت الكتب الكثيرة التي تبحث في إعجاز وأسرار القرآن البيانية، والعلمية، والطبية، والفلكية، وغير ذلك، مما يدل على أن القرآن ليس كتاب أمة واحدة، ولا عصر معين، إنما هو كتاب الدهر بأجمعه، وحجة الله القائمة مدى الحياة، ونور العقول الحرة وسراجها مهما ارتقت ، وأدب الطبيعة الإنسانية حيث حلّت، وأنى وُجِدَت، ولغة الحياة ، إذا تكلمت خشعت الأصوات لها، فلا تسمع إلا رِكزاً .

شروط المعجزة:

يشير تعريف المعجزة السابق إلى وجوب تحقيق سبعة قيود في المعجزة وهي:

1- أن تكون خارقة للعادة.. ويخرج بذلك: غير الخارق للعادة، وهو ما اعتاده الناس وألفوه من الأمور كطلوع الشمس من جهة الشرق، وغروبها من حيث تغرب، ونحو ذلك من المعتاد للناس .

2 - أن تكون على يد مدعي النبوة، لأنها إثبات له في دعواه وفيما يبلغه عن ربه، فهي بمثابة قوله: (صدق عبدي في كل ما يبلغ عني) . وبذلك تخرج:

الكرامة: وهي ما يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح

والمعونة: وهي ما يظهر على يد العوام تخليصاً لهم من شدة ...

والاستدراج: وهو ما يظهر على يد فاسقٍ خديعة ومكراً به...

والإهانة: وهي ما يظهر على يده تكذيباً له، كما وقع لمسيلمة الكذاب فإنه تَفَلَ في عين أعور فعميت الصحيحة .

3 - أن تكون مقرونة بدعوى النبوة أو الرسالة، وخرج بذلك الإرهاص: وهو ما كان قبل النبوة والرسالة تأسيساً لها، كإظلال الغمام له – صلى الله عليه وسلم – قبل البعثة.

4 - أن تكون سالمةً من المعارضة، بحيث لا يستطيع المعارض المنكر لدعوى النبوة أو الرسالة ، أن يأتى بمثل ما أتى به النبي أو الرسول، حتى تسلم المعجزة وتثبت الدعوى، وبذلك يخرج السحر ونحوه، وهي خفة في اليد يرى البعض أن له حقيقة، ويرى البعض الآخر أن لا حقيقة له ....

5 - أن تكون موافقةً للدعوى، فخرج بذلك المخالف لها، كما لو قال: آية صدقي: انفلاق البحر، فانفلق الجبل أو الحجر، مما يخالف قول المدعي.

6 - تحدي المنكرين بها لأنها إشارة لصدق دعوى النبوة أو الرسالة، وإظهار لعجز المنكرين وعدم قدرتهم على الإتيان بمثل ما تحداهم به .

7 - أن لا تكون في زمن نقض العادة، كزمن طلوع الشمس من مغربها، وخرج بذلك ما يقع من الدجال، كأمره للسماء أن تُمطر، وللأرض أن تُنبت فتنبت.[1]

القدر المعجز من القرآن:

لا خلاف بين العلماء في أن القرآن الكريم بجملته معجز، ولكن الخلاف في أقل ما يتأتى به الإعجاز ويقع.

1- يرى الجمهور أن القدر المعجز من القرآن، هو ما يُقَدر بأقصر سورة، أو ما يماثلها من آيات تستبين فيها درجة البلاغة، ويمكن الحكم عليها من جهة الفصاحة والأسلوب .قال البيجوري على الجوهرة: (ولا خلاف في أن القرآن بجملته معجز، وإنما الخلاف في أقل ما يقع به الأعجاز من أبعاضه، واختار جمهور أهل التحقيق أن أقله أقصر سورة منه ، أو ثلاث آيات، ويقول:..... وقال القاضي عياض: إن أقله - أي اقل ما يقع به الإعجاز – سورة الكوثر ، أو آية، أو آيات في قدرها)[2]

2 - ويرى المعتزلة أن الإعجاز منوط بالقرآن كله لا بعضه، وهذا رأي مردود بما سيأتي بيانه من آيات التحدي الدالة صراحة على أن التحدي وقع بمثل القرآن، ثم وقع بعشر سور منه، ثم وقع بسورة واحدة منه، فكيف يقال بأن التحدي وقع بالقرآن كله؟

3 - وترى طائفة أن القدر المعجز هو ما صدق عليه اسم (قرآن) قليلاً كان أو كثيراً، لا يتقيد بسورة ولا

---

1 – انظر خلاصة البيان في اعجاز القرآن د . مسموع أو طالب وانظر شرح المواقف – علي بن محمد الجرجابي 223/8 ومذكرات التوحيد للشيخ محمود أبو دقيقة– لطلبة السنة الرابعة لكلية أصول الدين في الأزهر الشريف – مطبعة العلوم سنة 1933 .

2 – انظر المختار من شرح البيجوري على الجوهرة ص 168 .

بآيات، ودليلهم قوله تعالى(فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) (الطور:34) - والحديث يصدق على القليل والكثير، وهذا الرأي مردودٌ أيضاً ، لأن قائله اقتصر في الاستدلال على آية واحدة من آيات الاستدلال ، وترك ما عداها من الآيات . ويقال لهم: إن الحديث التام إنما يتحقق في مثل سورة قصيرة .

قال القاضي أبو بكر الباقلاني: (وأما قوله عز وجل (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ) فليس بمخالف لهذا، لأن الحديث التام لا تتحصل حكايتة في أقل من كلمات سورة قصيرة وهذا يؤكد ما ذهب إليه أصحابنا ويؤيده).[1]

الفرق بين المعجزة والكرامة:

إن المعجزات والكرامات وإن اشتركا في كون كل واحد منهما أمراً خارقاً للعادة ، إلا أن المعجزة تمتاز عن الكرامة من وجوه، نوجزها في النقاط التالية:

1- إن الكرامة أمر خارقٌ يقع على يد رجل صالح غير مدع للنبوة، ولا يتحدى بها أحداً، بخلاف المعجزة فهي أمر خارق مُتحدى بها .

2- الكرامة لا تثبت بها نبوة الولي أو الرجل الصالح، إذ الولي الصالح لا يدعي النبوة، ولو ادعاها لم يكن ولياً، بل ينقلب كذاباً، بخلاف المعجزة، تثبت بها نبوة النبي.

3- يشترط في المعجزة أن تأتي مقرونةً بدعوى النبوة الصادقة، ويكون فيها معنى التحدي، أما الكرامة فلا يشترط فيها ذلك.

آيات التحدي في القرآن

جاء التحدي في القرآن الكريم بصور متعددة، وأساليب متنوعة، تهز كيان العبد هزّاً، وتجرهم إلى الميدان جَرَّاً، في أسلوب ممتع أخّاذ ، يملك عليهم شعورهم، ويستحوذ على أفئدتهم بسحره ، وجماله ، ورونقه .

وآيات التحدي خمس آيات، أربع منها مكية ، والخامسة مدنية ..

وجمهور المفسرين على أن التحدي كان مرحلياً متدرجاً، فقد تحدى الله سبحانه الناس بالقرآن كله في سورة الإسراء، ثم تحداهم بعشر سور في سورة هود، ثم تحداهم بسورة واحدة في سورة يونس، ثم عاد وتحداهم بحديث مثله في سورة الطور، ثم عاد وتحداهم بسورة واحدة في سورة البقرة المدنية..... وهذا ترتيب معقول لو ساعد عليه تاريخ النزول، كما يقول الشيخ محمد رشيد رضا.. وتاريخ النزول لا يساعد على ذلك .. [2]

وأيا كان الأمر فإن الرسول –صلى الله عليه وسلم – بَلَّغَ القرآن إلى العرب، وأسمعه آذان كل معاند ومنكر، بعيد أو قريب، يتحداهم به ... وقد تنبه الشيخ محمد رشيد رضا إلى سِرٍّ قلما انتبه إليه عالم من علمائنا القدامى أوالمحدثين، وهو قوله في تفسير قوله تعالى: (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (يونس /37) **قال**: (ومن المعلوم بالبداهة أنه ما كان لعاقل مثله –صلى الله عليه وسلم – أن يتحداهم هذا التحدي، لو لم يكن

---

1 – انظر إعجاز القرآن للباقلاني ص 275، 276 وانظر الاتقان 123/2 .

2 – انظر البيان في إعجاز القرآن د. صلاح الخالدي ص 68، نقلا عن تفسير المنار 193/1 .

عالماً موقناً بأنه لا يستطيع الإنس والجن الإتيان بمثل هذا القرآن في جملته، ولا بسورة مثله، لا أفراد العلماء والبلغاء منهم، ولا جماعاتهم ولا جملتهم، إن فرض إمكان اجتماعهم وتعاونهم، ومظاهرة بعضهم لبعض، فلو كان هو الذي أنشأه وألفه لمصلحة الناس برأيه، كما ارتأى بعض المعجبين بعقله وذكائه وعُلُوّ أفكاره، من الفلاسفة المتقدمين، والعلماء الماديين المتأخرين، لكان عقله وذكاؤه وعلو فكره مانعات له من هذا الجزم، لعجز عقلاء الخلق من العوالم الظاهرة (الإنس) والخفية (الجن) عن الإتيان بسورة مثل ما أتى هو به، فإن كل عاقل متوسط الذكاء والفكر يعلم أن كل ما أمكنه من الأمر فهو يمكن غيره، بل لا يأمن أن يوجد من هو أقدر عليه منه، فهذه آية بَيِّنَةٌ للعقل على أن النبي –صلى الله عليه وسلم -كان موقناً بأنه من عند الله تعالى، وأنه هو كغيره لا يقدر على الإتيان بسورة مثله، وهي إحدى حجج الذين قالوا إنه لا يعقل أن يكون كاذباً مفترياً له..).[1]

مراحل التحدي حسب ترتيب جمهور المفسرين

المرحلة الأولى:-

تحداهم على أن يأتوا بمثل القرآن .. قال تعالى : (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (القصص:49)- وقال سبحانه : (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) (الطور /33-34).ثم حكم سبحانه باستحالة ذلك في قوله تعالى : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء /88)

والمراد بالحديث في هذه الآيات الكريمة قرآن مثله، أي: يأتوا بقرآن يشبه الذي جاءهم به محمد –صلى الله عليه وسلم – ، والذي زعموا أنه افتراه، وتقوله على الله، فعجزوا وولوا الأدبار، مع أنهم فرسان الفصاحة وملوك البيان .

المرحلة الثانية:

لما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن، تنزل معهم إلى عشر سور مثله مفتريات، فانقطعوا وانحصروا، وعجزوا عن الإتيان بتلك السور العشر . قال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (هود /13).

المرحلة الثالثة:

لما عجزوا عن الإتيان بمثل عشر سور تنزل معهم إلى ما هو أسهل وأيسر، إلى الإتيان بمثل سورة واحدة فقط من سور القرآن، قال تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (يونس /38).

---

1 – انظر تفسير المنار 369/11 وما بعدها .

المرحلة الرابعة:
الآيات الكريمة السابق ذكرها، تحدت كفار العرب أن يأتوا بمثل القرآن، أو بمثل عشر سور، أو بمثل سورة واحدة، فلما عجزوا جاء الطَّور الرابع والأخير، فتحدى الناس جميعاً عربهم وعجمهم، وطالبهم بسورة تماثل القرآن مماثلة جزئية ولو في بعض نواحيه، ولذلك جاءت كلمة (من) في موضعها وميقاتها لتؤدي فقط المعنى المطلوب بذاته في هذا المقام، على حد قول الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد ...[1]

فالقرآن آية الله في الأرض، ومعجزته الخالدة للبشر، ثم للثقلين جميعاً . وعجز العرب عن المعارضة ما هو إلا عجز للعرب في عنفوان شبابها، وريعان قوتها، فعجزهم وهم الفصحاء البلغاء فيه دلالة واضحة على عجز من يأتي بعدهم [2] .

عجز العرب عن المعارضة يثبت إعجاز القرآن:
لم يستطع أحد معارضة القرآن مع توافر الدواعي لذلك، وقد اختلف المشركون في تعليل عجز العرب المُتَحَدين بالقرآن عن الإتيان بمثله، فذهبت طائفة من المعتزلة، والشيعة، وأهل السنة، إلى القول بالصَّرْفَة، بمعنى أن الله صرفهم عن معارضة القرآن ، وسلبهم الداعي لذلك، لتقوم الحجة عليهم بمرأى ومسمع من العرب جميعاً .. والصَّرفة ليست من وجوه إعجاز القرآن لأنها تسلب الإعجاز الذاتي للقرآن ..

وجوه إعجاز القرآن الكريم

للعلماء مسالك شتى فيما يتعلق بالوجوه التي كان القرآن بها معجزاً، فقد اختلفت طرائقهم ومسالكهم في ذلك، وهذا في حدِّ ذاته وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم فكلما نظر الناظر فيه، وتدبر معانيه وعايَشَ أسلوبه، تراءى له ما كان غافلاً عنه وجاهلاً فيه، (كما تتراءى للناظر إلى قطعة من الماس ألوان عجيبة متعددة، بتعدد ما فيها من زوايا وأضلاع، مختلفة باختلاف ما يكون عليه الناظر، وما تكون عليه قطعة الماس من الأوضاع)[3].

غير أن التقيد بشرط التحدي في المعجزة القرآنية، وكون هذا التحدي يتجه أساساً إلى ما نبغ فيه المخاطبون بالمعجزة، جعل الدارسين للإعجاز القرآني، والمتكلمين، يقصرون الإعجاز على الجانب البلاغي، أو يكادون يقصرون الإعجاز عليه.

وقد أجمع كل من تحدثوا عن الإعجاز القرآني، أو ألفوا فيه، على اعتبار هذا الجانب حجر الزاوية، وهذا ابن عطية المفسر ، يؤكد ذلك في القرن السادس حين يقول: (الصحيح الذي عليه الجمهور أن إعجاز القرآن هو بنظمه وصحة معانيه، وتوالي فصاحة الفاظه)[4].

وأهم وجوه إعجاز القرآن التي اتفق عليها جمهور العلماء من المسلمين .. هي: -

---

1 – انظر المدخل إلى التفسير الموضوعي ص 80 – د. عبد الستار فتح الله سعيد

2 – انظر إعجاز القرآن ، للباقلاني ، ص 38 . ط4، تحقيق أحمد صقر .

3 – انظر : مناهل العرفان للزرقاني : : 2 : 228

4 –انظر الاتقان للسيوطي ، 2: 227.

أولاً: - الإعجاز البياني واللغوي للقرآن .

ثانياً: - الإعجاز العلمي للقرآن .

ثالثاً: - الإخبار عن الغيب (الماضي، والحاضر، والمستقبل)

رابعاً: -. إعجاز القرآن التشريعي .
وسنتحدث عن كل وجه من هذه الوجوه بإيجاز.

أولاً: الإعجاز البياني واللغوي للقرآن:

لا خلاف بين أهل العلم أن التعبير القرآني تعبير فريد في علوه وسموه، وأنه بهر العرب، فلم يستطيعوا مداناته، والإتيان بمثله، مع أنه تحداهم أكثر من مرة، ورأوا أن سبيل الحرب والدماء وتجميع الأحزاب أيسر عليهم من مقابلة تحدي القرآن .

ولعل إعجاز القرآن الكريم بلفظه (الإعجاز البياني واللغوي) من أهم وجوه إعجازه إن لم يكن أهمها على الإطلاق، لأنه يتعلق بالقرآن ذاته في بنيته اللغوية، لا ينفك عنها، كما أنه يتفق مع الشروط التي اشترطها العلماء للمعجزة، وهي أن تكون من جنس ما اشتهر به القوم، والقوم كانوا أميين لا يكتبون ولا يحسبون، ومن ثم كان هذا الوجه أول ما تناوله العلماء بالبحث، وكان قدراً مشتركاً بينهم في الحديث عن الإعجاز، كما أفردوه بالتنصيف مثل الباقلاني في (إعجاز القرآن) والجرجاني في (دلائل الإعجاز)، والرافعي في (إعجاز القرآن) والشيخ محمد عبد الله دراز في (النبأ العظيم) وجعلوه أكثر الأوجه بياناً إذا تكلموا فيه مع غيره، ولهذا أيضا كان حقيقاً بالبدء به وجعله في صدارة وجوه الإعجاز.

وأصدق دليل على هذا الإعجاز موقف مَن تحَّداهم القرآن من فصحاء العرب من هذا التحدي عجزاً واستسلاماً، مع حرصهم على تكذيب القرآن ..
وللقاضي عياض في ذلك عبارات جامعة تذكر جانباً من هذا الموقف في العجز، والاعتراف بإلهية المصدر القرآني- رغم الجحود والكفر، وأمثلة يسيرة تشهد لذلك نذكرها بنصها لتمام الفائدة.

قال رحمه الله تعالى: (فلم يزل – صلى الله عليه وسلم - يقرعّهم أشد التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويُسَفِّه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، مُحجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب، والإغراء بالافتراء، وقولهم: إن هذا إلا سحر يؤثر، وسحر مستمر، وإفك افتراه، وأساطير الأولين، والمباهتة والرضى بالدنيئة كقولهم: قلوبنا غلف، وفي أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وَقْر، ومن بيننا وبينك حجاب، ولا تسمعوا لهذا القرآن والغَوا فيه لعلكم تغلبون، والادعاء مع العجز بقولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا، وقد قال لهم الله "ولن تفعلوا" فما فعلوا ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كُشِفَ عَواره لجميعهم، وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم، وإلا فلم يخف على أهل المَيْز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم، ولا جنس بلاغتهم، بل ولّوا عنه مدبرين، وأتوا مذعنين من بين مهتد وبين مفتون، ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي – صلى الله عليه وسلم - (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل: 90). الآية قال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، مايقول هذا بشر، وذكر أبو عبيد أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ:

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) (الحجر: 94). فسجد وقال: سجدت لفصاحته، وسمع رجلاً آخر يقرأ (فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا) (يوسف:80). فقال:أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام) [1]. وإذا كان العرب - وهم بهذه المنزلة بلاغة وفصاحة- قد عجزوا هذا العجز التام المطبق، فغيرهم أشد عجزاً..

والإعجاز اللغوي وجهٌ لا يتسرب إليه الطعن بأي حالة، فبلاغة القرآن وفصاحته لا تخلو منها سورة من سور القرآن الكريم، ولا آية من آياته، وهذا قد يخالف وجوه الإعجاز الأخرى التي ساقها العلماء مثل الحديث عن الأخبار الماضية وسير الأولين، أو الآيات التي تشير إلى حقائق علمية، أو نحو ذلك..

لمسات من الإعجاز البياني في القرآن

الدقة في التعبير القرآني :

والأمثلة على ذلك كثيرة تجدها في كل مقطع من مقاطع سور القرآن الكريم، وإليك أمثلة على ذلك:

1 - دلالة تكرار الاسم في نفس الموضع: عندما يكون الاسمان المكرران معرفتين.. دل على أن الأول هو نفس الثاني ـ غالبا ـ.مثال ذلك قوله تعالى في سورة الفاتحة: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ.....) (الفاتحة : 6-7) فالصراط في المَوضع الأول معرفة بأل.. وبالثاني معرفة بالإضافة .. والمراد بالاسم الأول الاسم الثاني.. فصراط الذين أنعم الله عليهم هو نفس الصراط المستقيم.....(وانظر: الصافات 158، والزمر2-3، وغافر 9.) أما إذا كان الاسمان المكرران نكرة .. فإن الأول غير الثاني ـ غالبا ـ لأن تكرار النكرة يدل على تعددها.. فالنكرة الأولى غير النكرة الثانية.

مثال ذلك قوله تعالى في سورة سبأ: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) (سبأ : 12) فالشهر الثاني غير الشهر الأول.. ويكون المجموع شهران.

كل هذا مقدمة لتوضيح الإعجاز البياني في سورة الشرح عند تفسير قوله تعالى : (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) (الشرح : 5-6) العُسر : مكرر وهو عسر واحد: (العسر الأول هو العسر الثاني فكلاهما معرفة). ويُسر " مكرر ، ولكنهما يسران: (اليسر الأول غير اليسر الثاني فكلاهما نكرة).
إن السورة الكريمة تأتي في سياق يتحدث عن تبشير أصحاب الابتلاء والمحنة والضيق والعسر.. بأن ذلك كله سيزول .. وسيحل اليسر مكانه مضاعفاً..
إن مقصد هذه السورة بعث الأمل في صدر سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه من الدعاة المبتلين ، وتخفيفاً عنهم ، وبعث الأمل في نفوسهم.
ولذلك جاءت نسبة العسر إلى اليسر واحد إلى اثنين ، حتى ينتظر المسلم المبتلى اليسرَ بأمل عريض ، وصبر جميل.وقد ورد في الأثر " لن يغلب عسر يسرين ".
قال الشاعر العتبي:

---

(1) الشفا: 1/219- 220.

ألا يا أيــهـا المــرء الذي الهَـمُّ بـِهِ بَـرَّحْ

إذا اشتدت بك البلوى ففكر في " ألم نشرح "

فـَعُسـرٌ بين يُسـرين إذا أبصـرته فـافـرحْ

وهذا دليل على فهم العرب للإعجاز البياني في القرآن الكريم على السليقة.

2- ومن هذا القبيل: [**عمل .. وفعل**]: **فالعمل** لما كان مع امتداد الزمان، جاء التعبير القرآني موافقاً لذلك .. قال تعالى: [يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ..] (سبأ: 13)، وقال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ)(**يس:71) ..** لأن خلق الأنعام والثمار والزروع يكون على امتداد الزمان . أما [الفعل] فلا يحتاج إلى زمن، لذلك جاء التعبير القرآني مؤكداً هذا، فقال تعالى يخاطب محمداً – صلى الله عليه وسلم – (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) (الفيل: 1) وقوله : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ) (الفجر: 6)، وقوله تعالى يخاطب أهل مكة : (... وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ...) (إبراهيم: 45) لأن كل هذه الأفعال إهلاكات وقعت في غير بطء، وقوله تعالى في وصف الملائكة : (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)(النحل: 50) أي: في طرفة عين ..ولهذا السر عبر بالفعل [**عمل**] في قوله تعالى :(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ....) (البقرة: 25) حيث كان المقصود: المثابرة على عمل الصالحات، لا الإتيان بها مرة واحدة أو بسرعة .. ولهذا السر أيضاعبر بالفعل في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (الحج: 77) حيث كان [افعلوا] بمعنى [سارعوا] كما قال سبحانه : (.. فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة:148) .

3- قدّم المفعول به في (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ولم يقدمه في (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) وذلك في سورة الفاتحة.. إياك: ضمير منفصل (مفعول به) مقدم على فعليه: نعبد، نستعين .اهدنا: نا (مفعول به أول) والصراط مفعول به ثان . فلماذا لم يقدم هذا المفعول به فيصير: إيانا إهدي . كما قال قبلها إياك نعبد ؟؟ سبب تقديمه في الأولى هو الاختصاص ، فالعبادة لا تكون إلا لله ، ومن عبدَ غير الله واستعان بغيره فقد كفر، ومن هنا تظهر حكمة التقديم لغرض إيماني من خلال هذا الأسلوب البلاغي..

أما عدم تقديمه في(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) لأن طلب الاختصاص في الهداية لا يصح ، فالله يهدي من يشاء.. وهم كثيرون...فيجوز لك أن تقول: اللهم اهدني وارزقني .... أي اجعلني في زمرة من كتبت لهم

الهداية والرزق....ولا يجوز لك أن تقول: إياي إهدِ ، إياي ارزق ... بمعنى اللهم اهدني وحدي وارزقني وحدي.....فالمسلم ليس أنانياً.

4 - تفريق القرآن بين كلمة النِعمة والنَّعمة في القرآن الكريم؟

نَعمة بالفتح وردت في سورة الدخان : (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ.وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)(الدخان : 25- 27) لم ترد في القرآن كلّه إلا في السوء ، والشر ، والعقوبات.

ووردت نِعمة بالكسر في مواضع كثيرة في القرآن ، منها في سورة النحل : (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) (النحل : 83) ودائماً تأتي في القرآن في سياق الخير.

5- وكذلك **سَنَة وعام** في قوله تعالى في قصة نوح – عليه السلام - (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسن عاماً)؟ **فكلمة سنة** في القرآن تدلّ عادة على الجدب والقحط ، ويقال : أسنَتَ الناس إذا أصابهم قحط ، ويقال أصابتنا سَنَة بمعنى جدب وقحط.

أما كلمة عام فهي عادة تستعمل في الخير في الغالب. وفي قصة نوح – عليه السلام – يقول المفسرون أنه لبث في الدعوة 950 سنة مع قومه بشدة وصعوبة ، وتكذيب له واستهزاء به ، أما الخمسن عاماً فهي ما كان بعد الطوفان حيث قضاها مع المؤمنين في راحة وطمأنينة وهدوء بعيداً عن الكافرين من قومه الذين أغرقهم الله بالطوفان.

6- ويختلف الاسم عن الفعل في الدلالة فالاسم يدل على الثبوت والدوام، والفعل الماضي يدل على حدث قد وقع في الزمن الماضي، والفعل المضارع يدل على حدث يقع في الحال، ويستمر وقوعه في الاستقبال، فهو يدل على الحدوث والتجدد . ومن أجل هذا الاختلاف في دلالة كل من الاسم والفعل، أوثر التعبير بالاسم عند إرادة الدلالة على الثبوت والدوام، وعبر بالفعل عند إرادة الدلالة على وقوع الحدث، أو الدلالة على الحدوث والتجدد، ويكون وراء ذلك معاني بقصد البلاغ إلى تحقيقها، ودلالة التعبير عليها . انظر إلى قوله تعالى : (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) (الكهف: 18). تجد أن التعبير بالأسماء في قوله: (أيقاظا ..هم رقود .. كلبهم باسط) قد دل على دوام هذه الأفعال، وثبوت تلك الهيئات واستمرارهم عليها، فالكلب باسط

ذراعيه، ثابت ومستمر على تلك الهيئة، وهم مستمرون في رقودهم أيقاظا، أي: دائمي اليقظة منتبهين، لا تغمض أعينهم ألبته .

إن إتيان التعبير بتلك الأسماء، قد كشف عن هيئة أهل الكهف، وأفصح عن ثباتهم على الهيئات المذكورة، ولما كان التقليب يتجدد، ويقع حينا بعد حين، لئلا تأكل الأرض من أجسادهم، فقد عبر عنه بالفعل المضارع (وَنُقَلِّبُهُمْ) الدال على التجدد والحدوث.

7 – كان القرآن دقيقا في استعمال الألفاظ، فاستعمل أصفى الألفاظ جرسا، وأدقها تعبيراً، وأحلاها نغما، وأدرج كل لفظة في مكانها المناسب، ببراعة فائقة .

كما اختص كثيراً من هذه الألفاظ باستعمالات خاصة، من ذلك: (المطر) فإنك لا تجد القرآن يذكره إلا في موضع الانتقام، بخلاف (الغيث) الذي يذكره القرآن في الخير .

وجماع القول: إنه قد اجتمع لآي القرآن الكريم من المزايا في المعاني والألفاظ، ما علا به على سائر الكلام علوا استأثر فيه بمعجزة الإعجاز . [1]

ثانياً: الإعجاز العلمي للقرآن

انقسم العلماء ما بين مؤيد للتأويلات العلمية، ومعارض لها، وفي ظني أن مَرَدّ ذلك هو الخَلْط الخابط بين (الإعجاز العلمي) التي سمقت منارته على دعامات اليقين، و(التفسير العلمي) الذي يجلّي من حكم الله للمؤمنين، وبين هاتيك التأويلات التي تضرب في مجاهل الوهم، أو تتعلق بظنيات مفترضات من العلم، وحُكْمُنا في هذه القضية هو : أننا نقسم النظرة العلمية إلى آي القرآن الكريم إلى ثلاثة أنواع:

أ- الإعجاز العلمي :

من نافلة القول أن نقول: إن إعجاز القرآن الكريم، ليس قاصراً على وجه واحد من وجوه الإعجاز، بل الصحيح أن للإعجاز وجوها شتى، منها الإعجاز العلمي .

وهذا الوجه من الإعجاز يتضح في بعض آيات القرآن الكريم خاصة تلك التي يتعلق موضوعها بالأكوان، وبالخَلْقِ العامر لهذه الأكوان، ويجد القارئ المتدبر لتلك الآيات الكريمة ممن أوتي حظا من العلوم العصرية، أنها تقرر حقائق علمية مستقرة .. لا يعتريها الزيف ولا التغيير .

وأن هذه الحقائق لم تكن معروفة في عصر التنزيل، وهي لا تتعلق بأمر اعتقادي يجب أن يكون قاطعاً، ولا بحكم شرعي يجب أن يكون مفصلاً . ولا يَنقص من قدر أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أنهم لم يعرفوا تفاصيل هذا السر من أسرار الكون، الذي جاءت آيات قرآنية تشير إليه في ايجاز، فهو كما أسلفنا، أمر لا تتعلق به عقيدة، ولا شريعة، وقد ظهر لهم في عصرهم من وجوه إعجاز القرآن وأولها: الإعجاز

1- انظر(التعبير القرآني – للدكتور فاضل السامرائي، وصفاء الكلمة، –د. عبد الفتاح الأشين، ودقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، د. محمد ياس خضر . ، والبيان في روائع القرآن –د. تمام حسان، ومن بلاغة النظم القرآني د. بسيوني عبد الفتاح، والتفسير القيم – لابن القيم، وبدائع الفوائد لابن القيم ، والفروق لإسماعيل حقي وغيرها).

البياني ما يكفي أن يكون حجة ناهضة، ودليلا رائعا، ومقنعا رادعاً لمن لم يؤمن، أو في نفسه شيء من ريب.

ثم شاءت حكمة العليم الخبير أن يكون هذا الوجه من الإعجاز مخبوءاً في هذا الكتاب الذي لا ينقضي عجائبه، لهذا الجيل من الناس، الذي فُتن فُتونا بمبتكرات العلم التجريبي ومخترعاته.. والقرآن معجزة الاسلام الكبرى، وقد نص دون سائر الكتب السماوية من خلال آياته على كونه معجزة، ويتحدى كل المعاندين والشاكين في كونه وحياً أوحى به إلى محمد –صلى الله عليه وسلم-، وسيظل كذلك معجزة على مدى الأزمان والعصور، بحيث سيكتشف كل عصر من وجوه الإعجاز، ومظاهر المعجزة، ما يصدق الرسالة المحمدية، ويجعلها ملزمة كل زمان ومكان، وبذلك تكون معجزة القرآن دليلاً حاضراً ومشهوداً أمام كل الأجيال .

ب- التفسير العلمي :

ونعني بالتفسير العلمي أن يقوم المفسر بشرح بعض التفصيلات العلمية لشيء ذكره القرآن، وذكر آية الله فيه، ومنهم الذين استمعوا القرآن من رسول الله –صلى الله عليه وسلم- نعمة الله فيما ذكر على سبيل الإجمال، ونفصل هذا الإجمال بمثال شارح.قال تعالى : (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ) (النحل:66). فالله سبحانه يمتن على عباده بهذا اللبن السائغ، وكل من سمع الآية وقت نزولها، من مؤمن وكافر، لايشك في فائدة هذا اللبن.

ثم جاء عصرنا بأجهزته، ومعامله، ومختبراته، فتمكن من أن يعرف مقدار الدُّهن الذي في اللَّبن، وماذا فيه من سكريات، وفيتامينات وما ماثل ذلك، بالكميات المحددة، والمقادير المفصلة، فهل يكون ذكر هذه المعارف حول هذه الآية الكريمة إلا إظهارا لأسرار آيات الله في الخلق، وبيان لمزيد فضله على عباده، وردا على بعض المولعين بتقدم العلوم في عصرهم، فهذا ما نعنيه بالتفسير العلمي .

وإن كان هناك من ينكرون تفسير بعض آيات القرآن الكريم وفق ما جاء به العلم الحديث، محتجين بأن آيات القرآن لها مدلولات ثابتة مستقرة، بينما معطيات العلم قد تتغير وتتبدل من حين إلى آخر، نتيجة البحث الدائم المستمر . لكن هذا الرأي لا يسلم من النقد، ذلك لأن تفسير آية قرآنية بما كشف العلم الحديث من سنن كونية، ما هو إلا فهم للآية بوجه من وجوه الدلالة على ضوء العلم، وليس معنى هذا أن الآية لا تفهم إلا بهذا الوجه. فإذا ظهر خطأٌ ما اكتشفه العلم، ظهر خطأ فهم الآية على هذا الوجه، لا خطأ الآية نفسها، وهذا ينطبق تماماً على غير ما اكتشفه العلم، ألا ترى أن عالما قد يفهم حكما شرعيا من آية قرآنية، ثم يعدل عن هذا الفهم إذا تبين له خطأ فهمه، بظهور دليل جديد أبطل فهمه الاول. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يجب على من يتصدى لتفسير آيات القرآن وفقا لما جاء به العلم الحديث، أن يتحرى حقائق العلم، التي أثبت العلماء أنها حقائق لا مجال للرجوع عنها، تاركاً الفروض والنظريات التي لم تصبح حقائق بعد، كما عليه أن يتجنب تحميل النصوص القرآنية ما لا تحتمل .

ومما تجدر الإشارة إليه استحالة أن ياتي يوم يصل فيه العلم إلى حقيقة تتعارض مع آية قرآنية قطعية الدلالة، لأن القرآن كلام الله المسطور، والكون صنع الله المنظور، وهما لا يتناقضان أبدا بل يصدق أحدهما الآخر، لأن مصدرهما واحد، لذا فقد جاءت الحقائق العلمية مؤيدة لما في كتاب الله تعالى ومصدقة له . لقد

تكلم القرآن في لغة العلم قبل كشفه، كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم تستوحشها أذواق الأقدمين، ولا معارفهم على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث[1] .

ج- التأويل العلمي :

أما التأويل العلمي فهو التعسف في فهم آيات القرآن، وبترها من سياقاتها، لتخدم معاني بعيدة عن أغراضها، فتؤول آيات القرآن بالمُزعزع من النظريات، والمضطرب من التخمينات، وهذا التأويل: سفهٌ في الرأي، وقول على الله بغير علم، وهذا التأويل مردود ومرفوض، فهو تفسير بالهوى، وقول بالظن، والهوى لا ضابط له، والظن لايقمعه إلا اليقين .

ومن أمثلة ذلك: تفسير الدابة التي تكلم الناس، والتي ورد حديث القرآن عنها في سورة النحل (آية 82) بأنها هي المذياع، وعند مفسر آخر: سفينة الفضاء، وعند ثالث: هي الصاروخ الموجه، إلى غير ذلك من التخرصات .

نماذج للإعجاز العلمي في القرآن:

صور الإعجاز العلمي في القرآن كثيرة، وقد الفت في ذلك الكتب[2]، وللعلماء أبحاث ومقالات في كثير من المجلات العلمية، وسنقتصر على ذلك صور منها .

أ. قال تعالى : (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) (القيامة: 3-4) . ففي الآية الأخيرة صورة من صور الإعجاز العلمي في القرآن، ذلك أنه قد أضحى من المسلمات القطعية أن بصمات أصابع أي إنسان لا تتشابه مع بصمات أي إنسان آخر، من هذه الملايين التي عاشت أو تعيش أو ستحيا على هذه الارض، حتى أصبحت هذه البصمات دليلا لا يرقى إليه الشك في كثير من المعاملات الرسمية، فتوقيع إنسان ما على صك مالي، أو وثيقة بيع مثلا، قد يداخله التزييف والتزوير، وأما أمر البصمة فهو يستعصي على التزييف والتزوير .

ولهذه الأسرار في البصمة الانسانية جاء قوله تعالى:(بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) (القيامة : 4)

وتسوية البنان -وهو طرف الاصبع - : أن يكون على هذا النحو المبدع المعجز.

ب- قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) (الحج: 65).

---

1 – انظر مباحث في علوم القرآن – للقطان ص 308 والإسلام يتحدى ص 142 وأصول الفقه لخلاف ص 29–30

2 – انظر – مع الطب في القرآن الكريم عبد المجيد ذياب وزميله ط2 دمشق ،والقرآن وإعجازه العلمي – محمد إسماعيل إبراهيم، والقرآن والعلم – احمد محمد سليمان/ الإسلام يتحدى – تعريب صديقنا طفر الإسلام خان، وبين الطب والإسلام د. حامد الغوابي، والإعجاز الطبي في القرآن للسيد الجميلي، والإعجاز العلمي في القرآن محمد السيد ارناؤوط ط1 وغيرها.

وقال سبحانه : (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) (الرعد:2).

فهاتان الآيتان وغيرهما تقرران أن الله جلت قدرته جعل لهذا الكون نظاما عجيبا، وتشيران إلى بعض القوانين التي أجرى الله عليها نظام هذا الكون، وما **الجاذبية** التي اكتشف الباحثون أمرها إلا نظام من هذه الأنظمة التي شاءتها إرادة العلي الأعلى[1]

ج- قال تعالى : (... فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة: 24).

يقول الدكتور: سيد علي الفقي –أستاذ كيمياء الوقود النووي المساعد بهيئة الطاقة الذرية بالقاهرة-:(الطاقة النووية هي ما يقصد بها:اما الطاقة المنطلقة نتيجة انشطار ذرات بعض العناصر الثقيلة (اليورانيوم، والبلوتونيوم)، او نتيجة اندماج نويات ذرات بعض العناصر الخفيفة (الهيدروجين) لتكوين نواة عنصر أثقل (الهيليوم) وللتعرف على حقيقة الطاقة النووية علينا مقارنتها بأنواع الطاقة الأخرى، فالكيلو غرام الواحد من البترول –وهو أفضل أنواع الوقود التقليدية-يعطي عند احتراقه تماماً (6, 11 كيلو واط) في الساعة من الطاقة الحرارية، بينما يعطي انشطار ذرات (اليورانيوم 235) ما يساوي: (6, 22 مليون كيلو واط / ساعة) أي: ما يعادل حوالي اثنين مليون ضعف الطاقة الناتجة عن حرق البترول ،وهذه الكمية الهائلة من الطاقة إما أن تنطلق كلها مرة واحدة في أقل من (واحد على مليون من الثانية) كما هي حالة انفجار القنبلة النووية، أو تدريجاً كما متبع في محطات القوى النووية، لاستخدامها في الأغراض السلمية .

وإن كانت هذه الطاقة الهائلة ناتجة عن انشطار النواة إلى اثنتين .. فلإنسان أن يقف هنا وقفة ليتدبر كم من الطاقة التي ستنتج – ولا يعلم عظمتها إلا الله – لو تفتت المادة كلها، فصارت الحجارة وقوداً .. ثم يقول: وإذا كان انشطار ذرات العناصر الثقيلة يعطي مثل هذه الكمية الهائلة من الطاقة، فان الطاقة الناتجة عن اندماج نويات ذرات الهيدروجين لتكوين الهيليوم، يساوي (5, 117) مليون كيلو واط في الساعة لكل كيلو غرام من الهيدروجين، وللأسف فان طاقة الاندماج هذه لم يمكن الاستفادة منها بعد في الأغراض السلمية لضخامتها، وعدم القدرة على السيطرة عليها، وإنما تستخدم فقط في الأغراض العسكرية، كما في حالة انفجار القنبلة الهيدروجينية .ولعل الوقت الذي يتمكن فيه العلماء من التحكم في طاقة الاندماج ، لَهُوَ وقت سعادة البشرية جمعاء، لاسيما أن هناك مئات الملايين من الكيلو مترات المكعبة من المياه في المحيطات والانهار والبحيرات، والمياه الجوفية، والرطوبة الجوية، وعشرات الملايين أيضاً من الكيلو مترات المكعبة من الثلوج في المناطق القطبية وكلها مصادر للهيدروجين . وفي الحقيقة لا يستطيع المرء مجرد تصور عظمة وخطورة ما ورد في قوله تعالى في سورة التكوير: (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) (التكوير :6) ، أي: أوقدت، فصارت نارا .. لا يمكنه تصور هول ما يمكن أن يحدث نتيجة حرق هيدروجين البحار، أو دمج ذراته لتكوين الهيليوم)[2].

---

1 – انظر كتاب مع الله في السماء ص 75 وما بعدها للدكتور أحمد زكي .

2 – انظر مقال أضواء على الطاقة النووية –د. سيد علي الفقي استاذ كيميا الوقود النووي لهيئة الطاقة الذرية بالقاهرة / مجلة الوعي العربي عدد 2 سنة 1981/2 مارس آذار ص 77، اليمن.

لقد قرأ المسلمون القرآن قراءات متعددة، وأصدق دليل على ذلك هذه المكتبة التفسيرية الضخمة للقرآن، برغم ما يطبعها من تكرار المضامين والمعارف، فلكل عصر وجيل أن يقرأه بقدر وسعه من الفهم للاستدلال على حقيقة إعجازه، ومكمن هذا الإعجاز، وبقدر سعة منظوره إلى الكون والحياة الإنسانية، وعلى ضوء ما يتم كشفه عن طريق العلوم والمناهج من حقائق ومعارف . لأن كتاباً تقع به الحجة على الخلق، وتقوم به البينة على العقول، لابد أن يقدم إلى كل عصر بما يحقق ظهور الحجة فيه ظهوراً مناسباً لمدارك الأجيال، والعصور المتطورة ولا خطر في ذلك، اللهم إلا خطر التحريف، أو التأويل بغير علم .

ثالثا: الإعجاز التشريعي في القرآن

إعجاز القرآن في هديه وتشريعه:

جاء القرآن الكريم بشرائع الهدى لإصلاح الخلق، وإقامتهم على طريق الحق والفلاح، فلم تسمُ شريعة من الشرائع أن تبلغ ما في شريعة القرآن من:إحكام، ويسر، ودقة، ذلك أنها شريعة الله تعالى التي تنطلق في تكاليفها من رحمته سبحانه بعباده، ومراعاة مصالحهم وقدراتهم البشرية، قال الله تعالى : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة: 286) وقال سبحانه (.... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ....) (البقرة: 185). وقال عز وجل : (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ) (المائدة: 7).

لقد ألزم تشريع القرآن بالواجبات إلزاما، ثم هو بعد ذلك جعل للضرورات أحكامها : (فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المائدة: 3). وقوله : (.....فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (الأنعام: 145).وجعل للرُّخَصِ مجالاتها: (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (النحل:106).

لقد تميز تشريع القرآن وهديه ، بسوقه ما يسوق من تكاليف الدين موصولة بمصدرها، وبكونها مما أمر الله به سبحانه، فهي بذلك ليست في إتيانها كمالاً يمكن الوقوف دونه، أو ترفا يمكن التنازل والاستغناء عنه، وإنما هي من صميم إيمان المؤمن، وكذلك يمتاز بسوقه لهذه التكاليف في إيجاز لفظي يسهل استيعابه، ويمكن معرفة ذلك من قول الله تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (الأنعام:151-153).

وكذلك من قول الله سبحانه: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا . وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا . وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا . إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا . وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا . وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا . كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا . ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا .)
(الإسراء: 23-35).

كما تميز تشريع القرآن وهديه بتوازن دقيق- لا تستقيم حياة البشر إلا به- بين تطلعهم إلى الدنيا وحاجتهم فيها، وسعيهم إلى الآخرة وتشوقهم إلى ثوابها، فجاء من آيات القرآن ما يرسي جوانب هذا المنهج في قول الله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)(الأنعام: 141، 142) وقوله سبحانه : (يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .) (الأعراف: 31-33).

وكذلك في قول الله عز وجل: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (القصص:77)

كما تميز تشريع القرآن وهديه بتلطفه إلى النفوس البشرية عند تكليفها بما يريد ليقودها قوداً جميلا إلى الامتثال، وييسر عليها المشقة بما يرتبه على صالح العمل من عظيم الأجر.

فهو إذا تعرض لتشريع الزكاة- والأنفس شحيحة بالمال- جعلها طُهْرَةً للمال: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (التوبة:103).

وإذا تعرض لتشريع الحج- وهو عبادة مبنية على المشقة غالباً- قرنه بمنافع مشهودة للحجيج، فقال : (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) (الحج: ٢٧ - ٢٨) وإذا تعرض للأمر بالصلاة بين أنها طريق للطهارة من الآثام، والبعد عن الفواحش: (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) (العنكبوت: 45).

وإذا تعرض لأصول الإيمان والعبادات مجتمعة وصفها بالبر، ورتب عليها التقوى، فقال : (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (البقرة /177).

وهو يخاطب في النفس البشرية رغبتها في النعيم، ورهبتها من الجحيم (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) (المؤمنون:101-103).

وهو بعد ذلك كله يعين على الأعمال الصالحة بضمان ثوابها لكل عامل دون تفرقة في جنس العاملين (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل:97).

وممن اهتم بهذا الجانب الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى في كتابه (المعجزة الكبرى) وكذلك الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني رحمه الله تعالى في كتابه (مناهل العرفان في علوم القرآن)

,إذا كان الغربيون يتباهون بأن حضارتهم كانت أول حضارة سبقت وأعلنت حقوق الإنسان رسمياً في مختلف دولها لأول مرة في التاريخ، ويتفاخرون بأنهم في القرن العشرين وضعوا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ويعتبرونه الأنموذج المثالي لهذه الحقوق، فإنهم نسوا أو تناسوا أن القرآن الكريم قد قرر هذه الحقوق منذ أربعة عشر قرناً بأسمى مبدأ للبشرية جمعاء يقول تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:13)

والخطاب في هذه الآية موجه للناس جميعاً و أنهم خلقوا على اختلاف أجناسهم و ألوانهم و دياناتهم من رجل واحد وامرأة واحدة، وأنهم متساوون في الميلاد و الأصل، والقرآن بهذه الآية يركز على وحدة الجنس البشري، ولا فضل لأحد إلا بالتقوى. وقد اشتمل القرآن على كثير من المبادئ السامية التي تدل على عظمته وأصالته، ومنها:

1- مبدأ حرية العقيدة و الرأي في قولـه تعـالى : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقـرة: ٢٥٦) و قوله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)(الكـافرون : 1-6)

2- قواعد عادلة في المعاملات: في قوله تعالى : (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة:275) و قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا) (البقرة:282)

3- قوانين الأحوال الشخصية: و هي قواعد عادلة ومستقرة لتعلقها بأحوال الإنسان الشخصية في الأسرة، فوضع الشرع لها نظاماً كاملاً مفصلاً في مسائل الزواج

والطلاق,والحمل,والعدة,والرضاع,والنفقة,والميراث,وحقوق الأبناء,وذوي القربى وتوسع في أحكامها الكلية,وجعلها مرنة وقابلة لاجتهاد المجتهدين من الفقهاء في استنباط أحكامها بما يساير الزمان و المكان .

4- القانون الجنائي: وهو بحق أعظم برهان يدل على عظمة القرآن في تشريعه لجرائم الحدود التي بين نوعها,وحدد عقوباتها,التي تتمثل فيها العدالة والحكمة والرحمة بما فيه الكفاية للردع والزجر بصورة تكفل الأمن والسلام للعباد والبلاد .
وبالجملة: فإن هدى القرآن وتشريعه في إصلاح حياة البشر، وفي مراعاته لكل طوائفهم، وصلاحه لكل أزمنتهم وعصورهم تشريع معجز، لا يرقى إليه ولا يستطيعه تشريع بشري.

رابعا: من إعجاز القرآن إخباره عن الغيب

لقد تضمن القرآن كثيراً من أنباء الغيب ، سواء في هذا ما يتصل بالماضي، أو الحاضر، أو المستقبل .
ووجه دلالة الإخبار بالغيب على الإعجاز: أن الإخبار بالغيب وتحقق هذه الغيوب كما أخبر بها تماما ليس في طاقة الانسان، لأن غاية ما يستطيعه العقل البشري في هذا هو أن ينقل عن غيره، أو يقيس غائبا على شاهد، وكل ما كان بعيدا عن هذه الدائرة فهو مما لا يتمكن لعقل الانسان أن يناله بحال . والله تعالى يخاطب نبيه قائلا: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) (النمل:65)-

ولما كان القرآن الكريم زاخراً بأخبار كثيرة عن الغيوب التي لا علم للرسول –عليه الصلاة والسلام- بها، ولا سبيل لمثله أن يعلمها بوسائله البشرية، دلَّ ذلك دلالة بينة على أن هذا القرآن المشتمل على تلك الغيوب ، لا يعقل أن يكون نابعاً من نفس محمد –صلى الله عليه وسلم- ، بل هو كلام علاّم الغيوب، وبالتالي فان البشر مهما حاولوا فَهُم عاجزون عن الإتيان بمثله ، وهذه نماذج من الغيوب التي أخبر عنها القرآن الكريم:

غيب الماضي:

لقد حفل القرآن بأخبار السابقين الأولين من الرسل مع أقوامهم، ومن غير الرسل، فجاء فيه قصص:آدم، ونوح ، وإبراهيم ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط وموسى ، ويحيى، وزكريا، وعيسى، وغيرهم - عليهم جميعاً السلام-، كما جاء فيه قصص: ابني آدم، وأصحاب الكهف، وأصحاب السبت، وأصحاب الجنة، وأصحاب الأخدود، ولقمان، وقارون ..إلى غير ذلك من أنباء عن الأمم والشعوب الضاربة في أعماق التاريخ، والتي لا يَتصور عقل أن تُتاح معرفة أخبارها لأمي نشأ في بيئة أمية، ثم يأتي التاريخ فيكون شاهد صدق على كل ما أخبر به القرآن الكريم ..
ومن عجيب الإعجاز في القصص القرآني، أن بعضه من المَخفي جداً في الكتب التي لا يعرفها إلا أخص المتخصصين من الدارسين ، الذين أفنوا حياتهم في الدرس والاطِّلاع.

فمثلا مجادلة إبراهيم لأبيه في عبادة الأصنام، ليست مذكورة في التوراة، وإنما هي في (التلمود) ، والى الآن لم يترجم إلى اللغة العربية، فكيف عرفها النبي –صلى الله عليه وسلم- ؟ كما أن من عجيب الإعجاز في القصص أيضا: أن الله سبحانه يذكر الفروق الدقيقة بين الكتب التي تحدثت عن القصة الواحدة، مثال ذلك : (قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ....) (يوسف/72)- ولا توجد كلمة (الصواع) في التوراة العبرانية، وإنما هي موجودة في التوراة (اليونانية) .

وقد يقول قائل: إن الرسول –صلى الله عليه وسلم- ربما ترجم له بعض الدارسين لهذه اللغات، وصاغ هو ذلك بأسلوب من عنده، **وهذا القول مردود،** لأن الرسول –صلى الله عليه وسلم- كان يذكر ما يذكر سواء في القصص أو غيره **بأسلوب التحدي،** ولو كان يُردد ما يسمع، ما كان له أن يتحدى .. إذ ربما أن يكون ما سمعه لغواً من القول، أو من دارسٍ غير ثقة، أما أن يتحدى الراسخين في العلم، فذلك إعجاز ما بعده إعجاز، إنه لا يعقل أن يكون رجلاً واحداً محيطاً على وجه الدقة بجميع العلوم والفنون، أو لغات العالم، وأشدُّ بُعداً في العقل أن يكون رجلاً واحداً محيطاً على وجه الدقة بلغات العالم ومعارفه معاً، وان وُجِدَ –ولا يمكن أن يوجد- فهل يستطيع أن يصوغ معلوماته بأسلوب محكم منظم ؟ وإذا كان هذا الذي ذكرت مستحيلا في عصرنا هذا، عصر التقدم الهائل في العلم والفن، فهل كان ذلك معقولاً لنبي أمي في زمنٍ سَمْتُهُ البارز الجَهلْ) .[1]

غيب المستقبل: -

أخبر القرآن الكريم بأمور ستقع في المستقبل، فجاءت كما أخبر، لم تتخلف أو تتغير، وهذا ما لا سبيل للبشر إليه بحال، وذلك في القرآن كثير، لكنا سنضرب أمثلة منه تكون دليلا على ما سواها.

أولا: لعل أوضح ما يذكر في هذا المجال ما جاء في آيات التحدي بالقرآن ذاتها، فقد أخبر الله تعالى أن الكفار سيعجزون عجزاً كاملاً مطبقاً عمَّا وُوجهوا به من التحدي أن يأتوا بمثل القرآن أو بسورة من مثله، وذلك في قوله سبحانه : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء:88) وقوله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة:24،23). فكان الأمر كما أخبر، يشهد بذلك الواقع، فلم يستطع عربي فضلا عن أعجمي أن يقوم بهذا التحدي ويأتي بسورة من مثلـــه.

ثانيا: إخبار القرآن بالتمكين للمسلمين، ونصرهم وتأمينهم، وذلك في قول الله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور:55). وقد مكن الله لهم بالفعل، وظهر الإسلام، وقامت دولته، وملكت مشارق الأرض ومغاربها في وقت يسير ، كما هو معروف في تاريخ الإسلام، ونسأل الله تعالى أن يُعيد للمسلمين هذا التمكين ، وأن يُعِزَّ الإسلام وأهله.

ثالثا: إخباره بنصر المؤمنين وإحقاق الحق، وهزيمة الكفار واندحارهم، أخبر ذلك قبل أول قتالٍ في بدر، وذلك في قول الله تعالى : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) (آل عمران:12). وقوله سبحانه : (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) (القمر:45). وقد نزلت هذه الآية في مكة، وقد حدث ما

1 – انظر إعجاز القرآن ، د. أحمد حجازي السقا ، ص16 وما بعدها .

أخبرت به في المدينة في بدر بدقة كانت مثار عجب عند الصحابة -رضوان الله عليهم - أنفسهم، حتى إن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه لما نزلت- (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) (القمر : 45) قال: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ فلما كان يوم بدر ، عرف تأويلها .)[1].

رابعا: إخباره بدخول النبي– صلى الله عليه وسلم - والمسلمين المسجد الحرام آمنين، وذلك في قول الله تعالى : (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) (الفتح:27). وقد تحقق ذلك ودخله النبي – صلى الله عليه وسلم - وأصحابه في عمرة القضاء [2].

خامسا: إخباره بانتصار الروم بعد هزيمتهم المنكرة أمام الفرس، وذلك في قول الله سبحانه قال تعالى : (الم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . ...الآيات) (الروم/1-6). وقد تحقق ذلك في أقل من عشر سنين كما ورد في حديث ابن عباس.[3]

جاء في مختصر ابن كثير عن سبب نزول هذه الآية ما يلي: - (قال عكرمة: لقي المشركون أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وقالوا: إنكم أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل ألكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله تعالى : (الم . غُلِبَتِ الرُّومُ .)(الروم: ١ - ٢) إلى قوله تعالى (ينصر من يشاء) فخرج أبو بكر إلى الكفار فقال: أفرِحتم بظهور إخوانكم على إخواننا، فلا تفرحوا، ولا يقرن الله أعينكم، فوالله ليظهرن الله الروم على الفرس، أخبرنا بذلك نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم- فقام إليه –أبي بن خلف- فقال: كذبت يا أبا الفضيل , فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله . فقال: أناجيك عشر قلائص مني، وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت، وإذا ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين . ثم جاء أبو بكر إلى النبي - صلى الله عليه وسلم- فأخبره، فقال - عليه الصلاة والسلام - (ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر (والخطر: هو السبق الذي يتراهن عليه) ومادِّهُ في الأجل فخرج أبو بكر فلقي أُبَي فقال: لعلك ندمت ؟ فقال أبو بكر: لا، تعال أزايدك في الخطر، وأمادك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص (وهي الشابة

1- يراجع في ذلك: تفسير ابن كثير 266/4

2- السيرة النبوية الصحيحة:465/2

3- أخرجه الترمذي في تفسير سورة الروم (3193)، وأحمد (276/1)، والطبراني في المعجم الكبير (29/12)، والحاكم في المستدرك (410/2) كلهم من طريق أبي إسحاق الفزاري عن سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عنه.

قال الترمذي: حسن صحيح غريب. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

من النوق) إلى تسع سنين قال: فعلت . فظهرت الروم على فارس قبل ذلك فغلبهم المسلمون)[1] .وهنا يقول الزمخشري: (وهذه الآية من الآيات البينة على صحة النبوة، وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله) [2]

سادسا: - أنباء القرآن بأن الله عاصم رسوله ، وحافظه من الناس،قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (المائدة/67). لقد كان الرسول –صلى الله عليه وسلم- يتخذ الحراس قبل نزولها، فلما نزلت، صرف حراسه وقال لهم: (أيها الناس، انصرفوا فقد عصمنا الله عز وجل) ومن شواهد حفظ الله له ما رواه مسلم عن جابر قال: (كنا إذا أتينا في سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله –صلى الله عليه وسلم- فلما كنا بذات الرقاع، نزل نبي الله تحت شجرة ، وعلق سيفه فيها، فجاء رسول من المشركين، فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبي –صلى الله عليه وسلم- أتخافني ؟ قال: لا . قال من يمنعك مني؟ قال: الله يمنعني منك . ضع السيف، فوضعه). وقد ورد عن علي –رضي الله عنه – قال: (كنا إذا اشتد البأس وحمي الوطيس، اتقينا برسول الله –صلى الله عليه وسلم- . فما يكون أحد منا أقرب إلى العدو منه) فهل هذا تصرف إنسان يقدر الأمور حسب ما يملكه من أسباب مادية، أم أنه يركن إلى ركن شديد، يتضاءل كل شيئ أمام قوته وقهره ؟

سابعا : - قوله تعالى في الوليد بن المغيرة : (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ . هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ. مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ . أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) (القلم/10-16) فأخبر الله سبحانه أن هذا الرجل سيقاتل المسلمين ويصاب بضربة سيف على أنفه، يبقى أثرها سمة له في وجهه يعرف بها مدة حياته . وقد كان الأمر كما أخبر به إذ يصاب الوليد بضربة سيف في غزوة بدر، وفي نفس الموضع الذي حدد لها، ويبقى أثرها في وجهه يدل عليه ..

ثامنا : - أخبر القرآن بأن أبا لهب سيصلى نارا ذات لهب ، فلم يستطع أن يكذب خبر القرآن ..وأن يتظاهر بالإسلام .. بل ظل على عناده وكفره كما أخبر القرآن .. [3]

والمقصود من هذا الوجه من وجوه الإعجاز، هو إثبات أن القرآن وحي من عند الله تعالى، باعتبار ذلك دليلاً لا يقبل الجدل، إذ ليس في مقدور أحد من البشر أن يتنبأ بشيء فيصدق كما قال تماماً، ولو حدث ذلك مرة أو مرات على سبيل الافتراض فإن ذلك لا يمكن أن يكون أمراً دائماً مطرداً.

---

1 – مختصر تفسير ابن كثير ، تفسير سورة الروم .

2 – انظر الكشاف للزمخشري : 4: 345. وانظر : الإعجاز القرآني ، د. عبد الغني بركة ، ص 20 – 23.

3 – انظر : مختصر تفسير ابن كثير ، 1: 534 . ومناهل العرفان ، للزرقاني : 2: 371– 372.

الإعجاز التأثيري للقرآن وتطوره

تتصل نشأة هذا الوجه الإعجازي للقرآن بنزول القرآن الكريم نفسه اتصالاً مباشراً، وذلك لما يلي:

أولاً: أمر الله سبحانه وتعالى ـ في كتابه بالحرص على إسماع المشركين القرآن الكريم، ليكون ذلك عوناً على دعوتهم للإسلام، ولا خلاف بين العقلاء أن كتاب الله تعالى معجز، لم يقدر أحد على معارضته بعد تحديهم بذلك، قال تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ) (التوبة : 6) فلولا أن سماعه حجة عليه لم يقف أمره على سماعه، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة، والمعجزة لابدّ لها من أثر فيمن تعجزه، إما تصديقاً أو تكذيباً.
ثانياً: ما ورد في كتب السيرة والتفسير وأغلب الكتب التي تتناول قضية الإعجاز عن لجوء رسول الله – صلى الله عليه وسلم - لإعجاز القرآن التأثيري ، كوسيلة أساسية من أسس الدعوة للإسلام ، وظهور أثر هذه الوسيلة الفعال في كل من استعملت معه، إما قبولاً واعتناقاً للإسلام، أو نفوراً وإعراضاً عنه، أو إقراراً بإعجاز القرآن في حاله

أمثلة للإعجاز التأثيري للقرآن الكريم

أولا ـ تأثير القرآن في أنفس المشركين:-
لقد تأثر المشركون بروعة بلاغته ونظمه، وأسلوبه الجاذب لفهم دعوته والإيمان به، ووقفوا حيارى أمام هذا القرآن العظيم، بماذا يرمون محمدا حتى لا تؤمن به القبائل والبطون، وحتى لا يؤثر قرآنه فيمن سمعه، فعقدوا عدة اجتماعات ليتفقوا على وصف يصفوا به محمدا – صلى الله عليه وسلم – والقرآن الكريم، وصفا ينفر الناس عنه، وبالتالي لا يقبلون دعوته، ولا يسمعون ما أنزل عليه من آيات.

أ – يورد ابن هشام في سيرته كيف دار الحديث في اجتماع ضم الوليد بن المغيرة ونفرا من قريش، فيقول:- (تم إن الوليد بن المغيرة، اجتمع إليه نفر من قريش . وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم – أي يوم الحج – فقال لهم:- يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقل به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا نقول: كاهن، قال: والله ما هو بكاهن .
لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن – (الزمزمة: الكلام الخفي الذي لا يسمع) – ولا سجعه، قالوا: نقول: مجنون. قال: ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر .

لقد عرفنا الشعر كله، رجزه، وهزجه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشعر .

قالوا: فنقول: ساحر – قال: ما هو ساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم – إشارة إلى ما كان يفعله الساحر بأن يعقد خيطاً ثم ينفث فيه – قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس ؟

قال:والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق (يشبهه بالنخلة التي ثبت أصلها وقوي وطال فرعها) وإن فرعه لجنا (أي كثير الجنى وهو الثمر)، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وأن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك.

فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا له أمره. فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة قوله : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا .وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ .فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) (المدثر / 11-25). أما ما نزل في النَّفر الذين كانوا مع الوليد، فإن ابن اسحق يحكي ذلك فيقول:- [أنزل الله تعالى في النفر الذين كانوا معه (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (90) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (91) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)] [1].

فليس اعتراف أبلغ مما صدر عن الوليد بن المغيرة، فهو على رياسته وتقدمه في العلم بالفصاحة، ينزه القرآن عن مشابهة شئ من فنون القول الممكنة للعرب، ويجلي البيان عن رفعة مقامه عن هاتيك الافانين، حتى تندحر جميعها دونه (إنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته) – كما ورد في رواية أخرى عن ابن عباس – فما الذي تراه صانعاً بعد أن بهره جلال القرآن وجماله، وضاق صدره بتفوقه ونفوذه، كان لابد أن ينسبه إلى أمر يراه العامة عسيراً عليهم ميسوراً لغيرهم، ليصرفهم عن الإيمان والاذعان، (فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) كما فعل سلفه فرعون من قبل . وما كان ليقوله لو علم إمكان معارضته .

ب - ومما يدل على روعة تأثيره وقوة بيانه، أن صناديد الشرك وعتاة المعاندين والمنكرين له، كانوا يَسْتَرِقُون سماعة من محمد – صلى الله عليه وسلم – ، وكل منهم يخفي عن الآخرين أنه ذاهب ليسمع من محمد – صلى الله عليه وسلم - (فقد أخرج ابن اسحق والبيهقي عن الزهري قال: حدثت أن أبا سفيان، والأخنس بن شريق، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يصلي بالليل في بيته، وأخذ كل رجلٍ منهم مجلساً ليستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا

1 – انظر سيرة ابن هشام 1/270–271 ووردت هذه القصة في رواية أخرى أوردها الحاكم في مستدركة عن ابن عباس والآيات من سور الحجر رقم /90–93 .

أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا.
حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا فلما كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقالوا لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال:أخبرني يا أبا حنطلة عن رأيك فيما سمعت من محمد فقال: يا أبا ثعلبة، لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال يا أبا الحكم: ما رأيك فيما سمعت من محمد فقال: ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب (وفي بعض الروايات تحاذينا أي تساوينا) وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذا، والله لا نؤمن به أبدا. ولا نصدقه)[1] .

وما مر من أخبار في حق مشركي قريش تدل على اعترافهم الصريح بإعجاز القرآن العظيم، وبلوغه درجة في البيان لم يبلغها شاعر ولا خطيب منهم، ولن يبلغها أحد في عصر من العصور.

ت - وهناك أقوال أناس كانوا على جاهلية، فلامس القرآن شغاف قلوبهم، وملك أفئدتهم وعقولهم، فعرفوا مزيته وإعجازه, فقادهم إلى صراط الحق القويم.. من ذلك :

1- روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر – رضي الله عنه – حديثاً طويلاً عن إسلامه، وفيه: أن أُنَيسا أخا أبي ذر ذهب إلى مكة ثم عاد، فقال لأبي ذر: (لقيت رجلا بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله، قلت: فما يقول الناس) قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر ، - وكان أنيس أحد الشعراء – قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أَقراءِ الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وأنهم لكاذبون[2] ..ثم قدم على النبي – صلى الله عليه وسلم – فأعلن إسلامه.

2- وقد صرح جبير بن مطعم أن سبب تحول قلبه إلى الإسلام ، أنه أصغى إلى تلاوة الرسول – صلى الله عليه وسلم – سورة الطور في صلاة المغرب، فقد روى البخاري في صحيحه عن محمد بن جبير عن أبيه قال:- (سمعت النبي – صلى الله عليه وسلم – يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي) [3] .

---

1 – انظر كتاب الرسول للدكتور عبد الحليم محمود ص 89 ط1 1974 ، وتفسير ابن كثير 4/90-91

2 – انظر صحيح مسلم 4/1920 ط الحلبي والمراد بقوله (أقراء الشعر : طرقه وبحوره وقوله فما يلتئم أنه شعر، أي لا يوافق نسق الشعر .

3 – انظر صحيح البخاري جـ 5/20 – كتاب المغازي والسير .

4- القرآن والطُّفَيل بن عمرو الدَّوسي: وأمر الطفيل بن عمرو الدوسي كأمر هؤلاء الذي أثر فيهم القرآن، كان شريفاً في قومه، شاعرا نبيلا، قدم مكة فمشى إليه رجال من قريش يحذرونه من اتباع محمد الذي فرق جماعتهم، وشتت أمرهم، فقوله كالسحر يفرق بين المرء وأخيه، وبين الرجل وزوجته، قائلين: إنا يخشى عليك وعلى قومك، فإذا ما دخل عليك فلا تكلمه ولا تسمع منه، يقول الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت – أي قصدت وعزمت – على أن لا أسمع منه شيئاً، حتى حشوت في أذني حين غدوت المسجد كُرسفاً أي قُطناً، فَرَقاً (أي خوفا) من أن يبلغني شيئا من قوله، فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائم يصلي عند الكعبة فقمت قريباً منه، فأبى الله الا أن اسمع بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، قلت في نفسي: أنا ما يخفى عليه الحسن من القبيح ، فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتى به حسنا قبلت، وان كان قبيحاً تركت، فمكثت حتى انصرف إلى بيته، فقلت: يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا، حتى سددت أذني بكرسف كي لا أسمع قولك، فأعرض على أمرك. فعرض عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن، قال الطفيل: والله ما سمعت قط قولاً أحسن من هذا، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمت[1]

ثانيا: تأثير القرآن في أنفس المؤمنين:

لقد كان في أثر القرآن في أنفس المؤمنين أن جعلهم لا يحنون هاماتهم إلا لمنزل القرآن، فهو وحده القوي المتين، فلا اختيار غير اختياره، ولا شريعة غير شريعته، وكان كل من يدخل الإسلام يعكف على تلاوته وتدبر ما نزل من القرآن اقتداء بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وصحابته الكرام، حتى أن من كان يمر ببيوتهم ليلا يسمع منها دويا كدوي النحل، حيث غيرت ما كان بأنفسهم من مفاسد الجاهلية من عصبية وما شابهها، وزكت بأخلاقهم نحو الكمال، وأحدثت في نفوسهم أعظم ثورة روحية اجتماعية عرفها التاريخ. فللقرآن تأثيرات بالغة على النفوس والقلوب التي استجابت لهديه، واستضاءت بنوره تنعكس على البدن كله بالخشية والخضوع لله رب العالمين .

يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واصفاً خبره، كاشفا زاده الطيب: (إنه ستكون فتن كقطع الليل، قيل: فما النجاة منها يا رسول الله، قال كتاب الله تبارك وتعالى، فبه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو فصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، ونوره اليقين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم)[2] .

---

1 – انظر السيرة الحلية 364/1 .

2 – رواه الترمذي وقال: حديث غريب وفي حديث الحارث مقال، ولكن ذكره الحافظ السيوطي في الإتقان وقال: أخرجه الترمذي والدارمي وغيرهما وسكت عنه، وكذا ذكره الحافظ ابن كثير في (فضائل القرآن) له وتعقب كلام الترمذي بما يدل على اعتماده للحديث، والمتأمل فيه يجد فيه قبساً من نور النبوة وحكما من ينابيع الوحي مما يجعل العبد يطمئن إليه، انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم – للشيخ الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة هامش ص 15 ط1 1992 .

الوحدة الرابعة

التفسير

تعريف التفسير وأهميته:

لغة: هو البيان والإظهار والكشف. انظر : لسان العرب حرف الراء فصل الفاء ج5 ص55 والمفردات ص381

إصطلاحاً: هو علم يعرف به فهم كتاب الله تعالى وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه. انظر البرهان في علوم القرآن للزركشي 147:2

أهميته: لعلم التفسير أهميه بالغه لفهم وإدراك معاني عبارات وألفاظ آيات القرأن الكريم قصد استخراج واستنباط الأحكام الشرعيه والوصول إلى مقاصد المشرع من نصوص القرآن.

-**نشأته** : هو أول علوم القرآن نشأةً ، إذ ظهر مند عصر الرسول(صلى الله عليه وسلم) ففهم الصحابه القرآن الكريم بسليقتهم العربية الأصيله إلا ما أشكل عليهم أحياناً فيسألون عنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليجيبهم عن استفهامهم . فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال :لما نزلت هذه الآيه(الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم ألامن وهم مهتدون). شق ذلك على

الناس فقالوا : يارسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟. قال (إنه ليس الذي يعنون، ألم تسمعوا ماقال العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم). رواه البخاري (3246) ومسلم (124).

بذلك يتضح أن الصحابة رضي الله عنهم أخذوا القرآن الكريم عن الرسول(صلى الله عليه وسلم) لفظاً ومعنى، قال الله تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم). وفي عصر التابعين لقن الصحابة القرآن الكريم لمن بعدهم كما لقن التابعون لمن دونهم بتفسيره مشافهه وكتابة، وبعد القرن الثالث أخد التفسير منحنى آخر حيث فسر كل عالم القرآن حسب تخصصه العلمي فمنهم من انتهج إبراز الإعجاز اللغوي للقرآن أو بيان أحكام القرآن أو إعرابه أو التصورالعلمي أو الإصلاحي في القرآن الكريم . انظر: محاضرات *في علوم القرآن* ، خالد الفتياني، ص86

أقسام التفسير

قسم العلماء التفسير إلى ثلاثة أقسام :

- تفسير بالرواية ويسمى :التفسير بالمأثور ..

- وتفسير بالدراية ويسمى :التفسير بالرأي ..

– وتفسير بالفيض والاشارة ، ويسمى : التفسير الاشاري .. وهذ ما سنوضحه في محله ..

أولا : التفسير بالمأثور :

يدرج بعض كتب علوم القرآن تفسير القرآن بالقرآن ، وتفسير القرآن بالسنة ، وتفسير القرآن بأقوال الصحابة ، وتفسير القرآن بأقوال التابعين ، تحت عنوان: التفسير بالمأثور ...

والطريقين الأخرين ، وهما : تفسير القرآن باللغة ، وتفسير القرآن بالرأي والاجتهاد ، تحت عنوان التفسير بالرأي....

وهذا التقسيم فيه نظر، ويحتاج إلى تحرير [1] . لأن لفظة – مأثور – غير دقيقة في إعطاء هذا الوصف ، وذلك: لأن تفسير القرآن بالقرآن لا نقل فيه، بل هو داخل ضمن تفسير من فسر به، فإن كان المفسر هو الرسول – صلى الله عليه وسلم - فهو من التفسير النبوي ، وإن كان المفسر هو الصحابي، فهو من تفسير الصحابي. وإن كان المفسر هو التابعي، فهو من تفسير التابعي.

ثم لاحظ أن تفسير الصحابي أو التابعي للقرآن بالقرآن ، هو من التفسير بالرأي ، وذلك لأن طريق الوصول إلى تفسير هذه الآية بهذه الآية ، هو: الرأي والاجتهاد.

[1] – انظر : فصول في أصول التفسير : د. مساعد الطيار : ص53.

ولا يلزم أن كل من فسر آية بآية أن تفسيره هذا يقبل ، بل قد يكون مرجوحاً، وبناء عليه فحكمه حكم تفسير الصحابي ، أو التابعي... ولو كان يلزم قبول قول كل من فسر آية بآية، لما رد شيء من هذه الأقوال ، فمجاهد مثلا فسر قوله تعالى :- (ثم السبيل يسره) بقوله تعالى:- (إنا هديناه السبيل) ومع ذلك رجح الإمام الطبري القول الآخر، بأنه خروجه من بطن أمه ، ولو كان تفسير الآية بالآية من التابعين ملزماً ، لما عدل عنه الطبري ،[1] وهذا واضح عند أدنى تأمل .

والذي يظهر لنا أن ما يمكن أن يطلق عليه: تفسير بالمأثور – **ويجب الاخذ به ثلاثة أنواع :-**

الاول: - ما روي عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من تفسيره القرآن

الثاني :- ما روي عن الصحابة مما له حكم المرفوع ، كأسباب النزول والمغيبات.

الثالث: ما أجمع عليه الصحابة ، أو التابعون ، وهذا يلحق بالمأثور ، لوجوب الأخذ به، لأن الإجماع حجة.

وأما تفسير الصحابة فإن كان مجمعاً عليه، أو كان سبب نزول، أو إخباراً عن أمر غيبي ، فله حكم المرفوع .. وإن كان غير ذلك ، فهو من باب الاجتهاد والرأي، سواء أكان معتمده اللغة ، أو غيرها من أدوات الاجتهاد في التفسير. وتفسير التابعي يلحق بالمأثور، إذا كان مما أجمع عليه التابعون ، وما عداه من التفسير فهو تفسير بالرأي [2] عند معظم العلماء .

أهم كتب التفسير بالمأثور

يعتبر بعض العلماء أن للتفسير يالمأثور عدة كتب ، - وإن كنت لا أقرهم على ذلك – لأن هذه الكتب حوت بعض الروايات التفسيرية المأثور وغير المأثورة ، ومن هذه الكتب : تفسير معالم التنزيل : للبغوي . وتفسير القرآن العظيم : لابن كثير . والدر المنثور : للسيوطي .. وجامع البيان : للطبري .. وهو ما سنلقي عليه الأضواء ..

– تفسير جامع البيان عن تأويل أي القرآن – محمد بن جرير الطبري (تـ 310 هـ – 922 م) .

التعريف بصاحب التفسير ومنزلته العلمية :

هو الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، المؤرخ ، المفسر ، الإمام ، ولد بآمل طبرستان سنة أربع وعشرين ومائتين للهجرة النبوية المباركة، رحل إلى كثير من الأقاليم طلبا للعلم فذهب إلى مصر والشام ، والعراق ، طلبا للعلم من منابعه ومصادره ، حتى صار فريد عصره، ووحيد دهره علما وعملا .. وحفظا لكتاب الله، ومعرفة بمعانيه، وإحاطة بالآيات ناسخها ومنسوخها، وأسباب

[1] – انظر : جامع البيان : 30/ 55 وانظر : فصول في أصول التفسير : للطيار ، ص 54. بتصرف .

[2] – انظر هذا الفصل في كتاب: العقد النظيم في علوم القرآن الكريم، سامي عطا، غير منشور، بتصرف. وانظر : فصول في أصول التفسير : للطيار ، ص 54.

نزولها وما يتعلق بها، كما كان عالما بالسنن وطرقها، فقيها عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، بصيرا بأيام الناس وأخبارهم .

وصنف –رحمه الله- في كثير من العلوم وبرع في ذلك ، وزادت مؤلفاته عن ثمان وعشرين مؤلفا ناهيك عما فُقِدَ منها ولم يصل إلينا، مما ينبئ عن مزيد علمه ، وعلو مكانته . إلا أنه –رحمه الله- قد وصل إلى ما وصل إليه بكتابيه العظيمين : تاريخ الأمم والملوك، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن، ويعد ابن جرير بهذين الكتابين: شيخ المؤرخين، وشيخ المفسرين أيضا .[1].

وبعد حياة حافلة بالعلم والبحث والدرس والتأليف توفي ابن جرير في شوال سنة 311هـ.

ويعدّ تفسير الطبري – جامع البيان- مرجعا هاما في التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي كذلك، لما جمعه فيه من الأقوال، وتوجيهه لها، وترجيح بعضها على بعضها الآخر في كثير من الأحيان، ولما ذكر فيه من وجوه الأعراب، واستنباطه للأحكام ، فضلا عما أسنده من التفسير بالمأثور .. وقد كان هذا التفسير إلى عهد قريب من الكتب المفقودة، يقرأ له العلماء بعض الفقرات من تفسيره في مصنفات نقلت عنه، ولكنهم لا يعرفون له مكانا، إلى أن وجدت نسخة منه في حيازة أمير حائل (الأمير حمود بن عبد الرشيد) فحقق عليها الكتاب، فأصبحت في أيدينا دائرة معارف غنية في التفسير المأثور، فسعد العالم الإسلامي بهذا السفر النفيس الذي طبع مرارا، وصار متداولا بين أيدي العلماء ويقع في ثلاثين جزء.

ثانيا :- التفسير بالرأي :

التفسير بالرأي هو : التفسير بالاجتهاد ، أو الاستنباط ، و عليه فالتفسير بالرأي عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر للعلوم الضرورية التي تعينه على التفسير ، و يطلق الرأي على الاعتقاد ، وعلى الاجتهاد ، و على القياس ، ومنه أصحاب الرأي ، أي : أصحاب القياس .

والمراد بالرأي هنا : الاجتهاد المبني على أصول صحيحة, وقواعد سليمة متبعة , يجب أن يأخذ بها من أراد الخوض في تفسير كتاب الله تعالى , أو التصدي لبيان معانية , وليس المراد مجرد الرأي أو الهوى , أو تفسير القرآن بحسب ما يخطر للإنسان من خواطر. وقد وردت أحاديث كثيرة , وأقوال متعددة , ومواقف متباينة عن سلفنا الصالح ، بعضها يفيد الترهيب والتوقف عن تفسير القرآن بالرأي ، وبعضها يفيد إباحة ذلك ، والترغيب فيه ، ومن ثم لم يكن تفسير القرآن بالرأي محل اتفاق أو قبول من جميع العلماء ، بل اختلفوا في حكمه ، فمنهم من منعه ، ومنهم من أجازه ، وقد استدل كل فريق لمذهبه بأدلة وحجج ..

والتحقيق أنه لا تعارض بين الرأيين ،ولا تناقض بين القولين ، فالكل يجيز ولكن بشروط وضوابط ، والكل يمنع إذا لم تتوفر هذه الشروط والضوابط.

أقسام التفسير بالرأي :

1- التفسير بالرأي الجائز: وهو الجاري على موافقة الكتاب والسنة ، والقواعد المقررة في الشريعة ، والمنقولة عن ائمة السلف ، وموافقة كلام العرب، أي على المفسر أن يلاحظ في التفسير بالرأي ، الاعتماد على المنقول عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ، مما ينير السبل للمفسر برأيه ، وأن يكون

[1] – انظر : طبقات المفسرين للسيوطي : 82.

عارفاً بقوانين اللغة، بصيراً بقوانين الشريعة ، وأن يتجنب الخوض فيما لا يجوز الخوض فيه وهذا بلا شك مقبول محمود .

2- التفسير غير الجائز .. والمذموم.

وهو الذي لا يجري على قوانين اللغة ، ولا يكون موافقاً للأدلة الشرعية ، ولا للقواعد المقررة عن أئمه السلف ، فهذا النوع لا ريب فيه انه مردود مذموم.

المنهج الأمثل الذي يجب أن يسلكه المفسر :

على المفسر أن يلتزم بالضوابط الآتية ليكون منهجه صحيحاً ، وتفسيره يكون محل القبول والرضا

1 - أن يبدأ بتفسير القرآن بالقرآن ، فما أجمل منه في موضع ، فقد فصل في موضع آخر ، وما اختصر منه في مكان ، فقد بسط في مكان آخر .

2- ثم إذا لم يجده في القرآن ، طلبه من السنه ، فإنها شارحه للقرآن ، وإذا عرف تفسير القرآن من جهة النبي _ صلى الله عليه وسلم _ فليس بعد بيان النبي بيان .

3 - فإذا لم يجد التفسير في السنه ، رجع إلى أقوال الصحابة - رضي الله عنهم – لأنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن وأحوال نزوله ، ولما تميزوا به من الفهم العام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح .

4- فإذا لم يجد التفسير في القرآن ، ولا في السنه ، ولا في أقوال الصحابة ، فإنه بوسعه أن يرجع إلى أقوال التابعين ، فقد رجع إليهم كثير من الأئمه .

5-- مطابقة التفسير للمفسر من غير زيادة لا يتطلبها المقام ، ولا نقص يخل بالمعنى وتوضيح الكلام

6- مراعاة المعنى الحقيقي وتقديمه على المعنى المجازي ، وحمل الكلام على ما يقتضيه المقام .

7- مراعاة التآلف والترابط بين الآيات ، وربط السابق باللاحق ، ومراعاة الغرض الذي سيق له الكلام ، والمقصد الذي ترمي إليه الآيات ، من غير فصل بين الكلمات والآيات .

8- على المفسر أن يرجع إلى أسباب النزول قبل الشروع في تفسير الآية . فمعرفة السبب تعين على معرفة المسبب .

9 - ثم بيان معاني المفردات واشتقاقها وإعرابها ، ومايتعلق بها من البلاغة والبيان ، ثم يختم بذكر المعنى العام ، وذكر ما ترشد إلى الأيات من هدايات ، وما يؤخذ منها من أحكام واستنباطات .

10 - على المفسر أن يتجنب الخوض فيما استأثر الله بعلمه من أمور الغيب ، وفيما أجمله القرآن ، أو طوى ذكره في القصص القرآني ، ولم يرد على التفصيل فيه دليل .

11- على المفسر أن يتجنب الدخيل والإسرائيليات ، والأحاديث الموضوعه ، وكل ما يحجب نور القرآن وهدايته عن القلوب ، أو يصرف الناس عن التدبر والاعتبار[1].

الرأي المذموم ....وسبب ذمه :

سبق أن ذكرنا التفسير بالرأي المذموم هو الذي لا يجري على قوانين اللغة، وهو الغالب على تفسير أصحاب الأهواء وتفسير الفرق المبتدعه ، والابتداع درجات يبدأ بالانحراف والفسق ، وينتهي بالكفران والظلال والعياذ بالله .

وكان التفسير قد جرى منذ زمن النبوه إلى أتباع التابعين ، على طريقه تكاد تكون واحدة ، فَخَلَفُ كل عصر يحملون التفسير عمن سلف بطريق الروايه والسماع ، وفي كل عصر تتجدد نظرات تفسيريه لم يكن لها وجود قبل ذلك ... لكثرة الداخلين في الإسلام ... ولازدياد نواحي الغموض في التفسير بالنسبه لكثير من غير العرب

ثم إن هذا التضخم في الحقيقه ما هو إلا محاولات عقليه ، ونظرات إجتهاديه ، قام بها أفراد ممن لهم عنايه بهذه الناحيه ، غير أنها لم تخرج بادىء الأمر عن قوانين اللغه ، ولم تتخط حدود الشريعه ، وبقيت في دائره التفسير بالرأي المحمود ، ولم تتجاوزه إلى دائره التفسير بالرأي المذموم الذي لا يتفق وقواعد الشرع .. وظل الأمر كذلك إلى أن قامت **الفرق المختلفه** ، وظهرت **المذاهب الدينيه المتنوعه** ، وتبارى أربابها في محاوله نصره مذاهبم والدفاع عن عقيدتهم ، وكان القرآن الكريم مرجع الجميع .. فأخذ كل منهم يبحث في القرآن لعله يجد فيه ما يقوي رأيه ، وينصر مذهبه ، مع علمهم بأن القرآن محفوظ .. لا يتطرق إليه تبديل أو تحريف ، فلجأوا الى تأويل الآيات لتتفق ومذاهبهم ، ولا تتعارض معها ، ومن هنا بدأ الخروج من دائره الرأي المحمود إلى الرأي المذموم .

من أمثلته : ما دفع بعض الكتاب من حُبِّ التجديد المزيف إلى أن يساير روح الإلحاد ، ويحارب من يتهمون الشريعه الإسلاميه بالقسوه في أحكامها وحدودها ، فراح يتأول آيات الحدود بما يتفق وهواه وهوى أصحابه ، فحمل الأمر في قوله تعالى :(الزانيه والزاني فاجلدوا .. الآيه) (والسارق والسارقه ..)

على الإباحه ، وجعل الامر في ذلك مفوضا إلى رأي ولي الأمر وحده ، فقال هذا الكاتب في مقال نشر تحت عنوان (التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي)[2] : (ولكن يبقى بعد هذا في تلك الحدود ذلك الأمر الذي سنثيره فيها ، ليبحث في هدوء وسكون ، فقد نصل فيه إلى تذليل تلك العقبه التي تقوم في سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامي من ناحيه تلك الحدود بوجه آخر جديد ، وسيكون هذا بإعادة النظر في النصوص التي وردت فيها تلك الحدود ، لبحثها من جديد بعد هذه الأحداث الطارئه ، وسأقتصر في ذلك على ذكر ما ورد في تلك الحدود من النصوص القرآنيه ، وذلك قوله تعالى في حد السرقه (والسارق والسارقه فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم فمن تاب من بعد ظلمه واصلح فإن الله يتوب عليه إن

---

[1] – انظر : البرهان في علوم القرآن : 1/ 34، ودراسات ومباحث في تاريخ التفسير ومناهجه : 110–113.

[2] – نشر هذا المقال في مجلة السياسة الأسبوعية المصرية : العدد الخامس ، السنة السادسة ، سنة 1937م ، انظر : التفسير والمفسرون : 1/ 528–529.

الله غفور رحيم)(سورة النائدة : 28-29) .
وقوله تعالى في حد الزنا : (الزانيه والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائه جلدة ولا تأخذكم بهما رأفه في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفه من المؤمنين) (سورة النور : 2) فهل لنا ان نجتهد في الأمر الوارد في حد السرقه وهو قوله تعالى (فأقطعوا) والامر الوارد في حد الزنا وهو قوله تعالى (فاجلدوا) فنجعل كلا منهما للاباحه لا للوجوب .. ؟! ويكون الأمر مثل الامر الوارد في قوله تعالى : (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)(سورة الأعراف : 31) فلا يكون قطع يد السارق حدا مفروضا لا يجوز العدول عنه في جميع حالات السرقه ، بل يكون القطع في السرقه هو أقصى عقوبه فيها . ويجوز العدول عنه في بعض الحالات إلى عقوبات أخرى رادعه . ويكون شأنه في ذلك شأن كل المباحات التي تخضع لتصرفات ولي الأمر ، وتقبل التأثر بضروف كل زمان ومكان ، وهكذا الأمر في حد الزنا ، سواء أكان رجما أم جلدا ،مع مراعاه أن الرجم في الزنا لا يقول به فقهاء الخوارج ، لعدم النص عليه في القرآن الكريم .. ؟!
وهل لنا أن نذلل بهذا عقبه من العقبات التي تقوم في سبيل الاخذ بالتشريع الاسلامي ، مع اننا في هذه الحاله لا نكون قد ابطلنا نصاً ولا الغينا حداً ، وإننا وسَّعنا الامر توسيعا يليق بما امتازت به الشريعه الاسلاميه من المرونه والصلاحيه لكل زمان ومكان وبما عرف عنها إيثار التيسير على التعسير والتخفيف على التشدد) [1] إننا نرى في هذا المقال ما وصل اليه الكاتب من الجرأه على كتاب الله ، إذ أول آيه السرقه وآيه الزنا تأويلاً غير مقبول بأي حال من الاحوال ، ومن ينظر في آيه السرقه ، وآيه الزنا لا يفهم منها إلا أن الامر فيهما للوجوب، فليس لأحد أن يعدل عنه مطلقا ، ثم إن قوله تعالى في آيه السرقه : (جزاء بما كسبا نكالا من الله) ، وقوله في آيه الزنا : (ولا تأخذكم بهما رأفه في دين الله)، وقوله : (وليشهد عذابهما طائفه من المؤمنين) ، يؤكد أن الأمر في الآيتين للوجوب لا للإباحه ، ثم إن هناك من سنه رسول الله _صلى الله عليه وسلم _ القوليه والعمليه، ما يؤكد كون الأمر للوجوب في الآيتين ، فهل يجوز للكاتب بعد هذا كله أن يتهجم عن آيات الحدود بمعول ذلك التأويل الذي تنكره اللغه ، ولا تقره السنه ، ولا يتفق وحكم التشريع) [2].

أهم كتب التفسير بالرأي

للتفسير بالرأي كتب كثيرة ، منها :

تفسير المحرر الوجيز لابن عطية ،

وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : لأبي السعود ،

وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : لأبي الثناء محمود شهاب الدين الآلوسي ،

والتفسير الكبير للفخر الرازي وهو ما سنلقي عليه الضوء ..

- **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب – محمد بن عمر الرازي (ت 606هـ – 1209م)**

[1] – انظر : مجلة السياسة الأسبوعية ، عدد6، سنة 6/ 1937م .

[2] – انظر : التفسير والمفسرون : 2/ 61 .

التعريف بالفخر الرازي :

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الطبرستاني الرازي الملقب بالفخر الرازي ، والمعروف بابن الخطيب الشافعي ، ينتهي نسبة إلى أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – ، ولد بالريّ عام 542 هـ – 1148م ، (وقيل : 544هـ / 1149م) ، في أسرة اشتهرت بالعلم والفضل ، تتلمذ الرازي في أول حياته على والده ، وأخذ عنه علم الأصول والمذهب ، ونبغ في صباه في كثير من العلوم – وبرع فيها ، حتى صار حجة في التفسير ، وعلم الكلام ، والعلوم اللغوية ، واستوعب ثقافة عصره ، فكان طبيبا مشهورا ، وواعظا بارعا باللسان العربي ، واللسان الأعجمي . [1] .

توفى رحمه الله (606 هـ) بعد أن خلف ثروة واسعة في مختلف العلوم والفنون وكان أهمها تفسيره المسمى بمفاتيح الغيب ويقع في ثاني مجلدات من الحجم الكبير ، وهو مطبوع ومتداول .

ويعدّ تفسير الفخر الرازي من أوسع وأشمل ما كتب في التفسير بالرأي ، والذي يقرأ في تفسير هذا الإمام ، يجد انه أمام موسوعة تشمل كثيرا من العلوم ، وليس التفسير فقط ، مما يدل على تبحر هذا العالم الكبير في شتى أنواع المعرفة .

وخلاصة القول : فالكتاب موسوعة علمية ضخمة مليئة بالاستنباطات الدقيقة ، والحِكَم والأسرار اللطيفة ، كما جلى وجوه إعجاز القرآن ، وبخاصة الإعجاز العلمي المتعلق بعلوم الكون والطبيعة . غفر الله له وشكر صنيعه[2]. .

مناهج واتجاهات المفسرين

كتب التفسير تختلف مشاربها ، فبمعرفة مناهج المفسرين ودراستها يقف الدارس على الطريقة التي سلكها كل مفسر، كما أن معرفة منهج المفسر يعدّ مفتاحاً للتعامل مع تفسيره، والإفادة منه، ومناهج المفسرين تشكّل اتجاهات تفسيرية، ومدارس ينتظم في كلٍّ منها عدد من المفسرين، وبدراسة هذه الاتجاهات والمدارس نتعرّف على تطور علم التفسير، وما أضافه كلٌّ مفسر، وما هي جهوده في خدمة هذا العلم.

تفسير الفقهاء

الفقه في اللغة : الفهم ..[3].

قال حجة الاسلام الغزالي : (والفقه عبارة عن العلم والعمل في أصل الوضع ، يقال : يفقه الخير والشر - أي : يعلمه ، ويفهمه) [1] .

---

[1] – انظر : طبقات الشافعية ، للسبكي : 35/5.

[2] – انظر : دراسات ومباحث في تاريخ التفسير : 126.

[3] – انظر : معجم ألفاظ القرآن الكريم : 2/ 161.

وقال الجرجاني : (الفقه في اللغة عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه) [2].

والفقه في اصطلاح العلماء هو :(العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتنها التفصيلية) [3] .

التفسير الفقهي : في القرآن الكريم آيات تتضمن أحكاما فقهية ، ميزها الفقهاء وفسروها في مصنفات خاصة تعرف بـ (أحكام القرآن) ، مثل كتاب : كتاب (أحكام القرآن) للجصاص و(أحكام القرآن) لابن العربي المالكي ، و أحكام القرآن للكيا الهراسي الشافعي ، حيث قدم ما اختاره فقهاء الشافعية من آراء مستنبطة من كتاب الله تعالى .

وظهرت تفاسير فقهية فسرت القرآن كاملا كتفسير القرطبي . ولو استعرضنا ما في المكتبة العربية من تفاسير قامت على أساس فقهي ، لوجدنا كتبا لأهل السنة ، وللظاهرية ، وللخوارج ، وللشيعة ، كتبا كثيرة في التفسير الفقهي ، وسنتحدث عن كتاب منها لأهل السنة ، وهو : تفسير الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله أحمد بن محمد القرطبي. (تـ 671 هـ – 1272 م) ؛ الذي يعدّ من كبار المفسرين ، رحل إلى المشرق ، واستقر بمدينة ابن خصيب (شمال مدينة أسيوط بصعيد مصر) وتوفى بها ، وله مصنفات كثيرة منها : قمع الحرص بالزهد والقناعة . والتذكار في أفضل الأذكار : تناول فيه فضل الذكر وقراءة القرآن ، والتذكرة بأحوال الموت وأحوال الآخرة . والمقصد في شرح أسماء الله الحسنى والجامع لأحكام القرآن . وهو من أهم مؤلفاته ويقع في عشرين مجلدا .

ويعدّ هذا التفسير من خيرة كتب التفسير قديمها وحديثها ، فقد جمع بين البسط والتوسع ، وسهولة العبارة ، والأمانة العلمية ، والبعد عن الشطحات ، والتعصب المذهبي ، ومن هنا أقبل العلماء على هذا التفسير ، وسارت به الركبان .. وقد استفاد القرطبي ممن سبقه من المفسرين ، ورجع كثيرا إلى كتاب ابن عطية (المحرر الوجيز) . وعلى عادة أغلب المؤلفين القدامى ، يبين القرطبي في مقدمة تفسيره دوافعه للتصنيف في التفسير ، ويوضح الأسس التي سيتبعها في تفسيره ، والطريقة التي سيسير عليها ..

التفسير البياني

هو التفسير الذي تدور مباحثه حول بلاغة القرآن ، من تشبيه ، واستعارة ، وكناية ووصل ، وفصل ، وما يتفرع من ذلك من استعمال حقيقي ، أو استخدام مجازي ، والبحث في هذا الجانب ، يعد بحثا أصيلا في جوهر الإعجاز القرآني، ومؤثرا دقيقا في استكناه البلاغة القرآنية .[4]

---

[1] – انظر : المستصفى من علم الأصول : 11.

[2] – انظر : التعريفات للجرجاني : 90.

[3] – انظر : المرجع السابق : 90.

[4] – انظر : المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم : محمد حسين علي الصغير : ص 103.

وممن برع واستوفى البيان في ذلك : الزمخشري في (الكشاف) ، وشيخ الاسلام أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي : في تفسيره : (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم). وسنوجز الحديث عن تفسير الكشاف ..

- تفسير الكشاف : للزمخشري(تـ 538هـ- 1144م) **هو**: محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي ، الحنفي ، المعتزلي ، الملقب بـ : جار الله ، لأنه جاور البيت العتيق بمكة زمانا فعرف به . ولد - رحمه الله - في رجب سنة 467هـ ، بقرية زمخشر ، من قرى خوارزم [1]، قام برحلات علمية ، وقدم بغداد ، ولقي كبار علمائها ، وأخذ عنهم ، كما تتلمذ له كثيرون ، كان إماما في التفسير، والحديث ، واللغة ، والنحو ، والأدب ، والبلاغة وصنف في كثير من العلوم والفنون ، وذاع صيته ، حتى صار إمام عصره ، وترك مصنفات كثيرة ، من أجَلِّها : كتابه في التفسير ، الذي أسماه : **(الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)** ، والفائق في غريب الحديث، وأساس البلاغة في اللغة ، ورسالة في إعجاز سورة الكوثر .. وغيرها [2].

وكان الزمخشري معتدا بهذا التفسير ، فخورا به إلى حد بعيد ، حتى نسب إليه صاحب (كشف الظنون) البيتين التاليين :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمري مثل كشافي .

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشافي [3].

وهو بالفعل تفسير عظيم القدر ، لإبانته وجوه الإعجاز في آيات القرآن الكريم ، وقد أعانه على ذلك معرفته بلغة العرب ، وإحاطته بعلوم البلاغة والنحو .

التفسير الحديث

كثرت المؤلفات في علم التفسير في هذا العصر ، منها : محاسن التأويل : لجمال الدين القاسمي . وتفسير المنار : للشيخ محمد رشيد بن علي بن رضا . وتيسير الكريم الرحمن في تفسير الكريم المنان : لعبدالرحمن ناصر آل سعدي من مشاهير علماء نجد ، وغيرها . وسنكتفي بإلقاء الضوء على تفسير : في ظلال القرآن

- في ظلال القرآن:لسيد قطب (ت 1387هـ - 1966م) :

هو سيد بن قطب بن إبراهيم بن حسين الشاذلي - ولد في قرية موشا في سنة 1326هـ من محافظة أسيوط ، نشأ في بيئة إسلامية ، تلقى دراسته الأولية في القرية ، ثم رحل من قريته إلى القاهرة.، وتخرج في كلية

---

[1] – انظر : وفيات الأعيان : 110/2.

[2] – انظر : وفيات الأعيان :2/ 81. ولسان الميزان : 4/6. والاعلام : 55/8–56. وطبقات المفسرين للسيوطي:41. وشذرات الذهب : 121/4.

[3] – انظر : كشف الظنون : 2/ 1476.

دار العلوم عام 1933م ، حاصلا على شهادة الليسانس في الآداب ، التحق بعد تخرجه من الكلية بوظيفة في وزارة المعارف ، ولكنه بعد خمس عشرة سنة استقال منها . اعتقل عام 1365هـ ، وبقى في السجن ثلاثة عشر شهرا ، ثم اعتقل مرة ثانية في سنة 1374هـ . استشهد قبل بزوغ فجر يوم الاثنين 1966/8/29م الموافق : 23 جمادى الأولى سنة 1386هـ .

آثاره ومؤلفاته : التصوير الفني في القرآن . ومشاهد القيامة في القرآن . والعدالة الاجتماعية في الإسلام . و المستقبل لهذا الدين . و خصائص التصور الإسلامي . و معالم في الطريق . وغيرها .. [1].

تفسير – في ظلال القرآن - تفسير فريد من نوعه ، احتل مكانة بارزة عند المسلمين ، يلبـي حاجـات الناس في هذا العصر . اهتم المفسر ببيان التناسب الموضوعي في موضوعات السورة ، والتنسيق الفني في صياغتها وأساليب عرضها . كانت له أهدافه التي تتلخص بما يلي :

1 - إزالة الفجوة العميقة بني المسلمين المعاصرين ، وبين القرآن الكريم، و(الظلال) وسيلة لتقربهم إليه

2 - تزويد المسلم المعاصر بدليل عمل مكتوب عن سمات الشخصية الإسلامية المنشودة.

4 - تربية المسلم تربية قرآنية إسلامية متكاملة .

5 - بيان معالم الطريق الذي تسلكه الجماعة المسلمة إلى ربها .

6 - بيان الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم [2] .

[1] – انظر: مدخل إلى القرآن الكريم : د. صلاح الخالدي : 51.

[2] – انظر : مدخل إلى ظلال القرآن : للخالدي : 98.

الوحدة الخامسة

"مدخل إلى علم الحديث"

أ- تعريف الحديث و السنة:

أولاً: **الحديث لغة**: الجديد، وهو ضد القديم[1].

والحديث اصطلاحاً: ما أضيف إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خُلقية وما أضيف إلى الصحابة والتابعين باعتبارهم شهود عصر النبوة[2].

مثال القول: "من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه"[3].

ومثال الفعل: ما روي عن عائشة أنها قالت: "كان -صلى الله عليه وسلم -إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي(4112)

([1]) انظر هذا الفصل في كتاب محاضرات في علوم الحديث للدكتور محمد مختار المفتي ، ص10 وانظر لسان العرب: (حديث).

([2]) تدريب الراوي للسيوطي 45/1.

([3]) مسند أحمد 20/1.

والتقرير: هو ما أقره رسول الله- صلى الله عليه وسلم - مما صدر عن الصحابة من أقوال وأفعال وذلك بسكوته وعدم إنكاره وهو لا يسكت على شيء منكر، ولا يقر على باطل، ومثاله ما رواه البخاري في صحيحه قال: "وأكل على مائدة النبي صلى الله عليه وسلم الضب فاستدل ابن عباس بأنه ليس بحرام[1].

الصفة الخِلْقية: كل ما ورد من الأحاديث في ذكر أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم الخلقية مما زخرت به كتب السنة.

ومثاله: حديث علي يصف رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فيقول: "لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطويل ولا بالقصير[2].

والصفة الخُلُقية هي كل ما ورد من الأحاديث في ذكر أوصاف النبي-صلى الله عليه وسلم- الخُلقية ومناقبه الحميدة التي تحلى بها.

ومثاله: حديث أنس قال: خدمت رسول الله -صلى الله عليه وسلم -عشر سنين فما قال لي أف وما قال لي لشيء صنعته لمَ صنعته، ولا لشيء تركته لمَ تركته؟[3].

ثانياً: السُّنّة :

السنة في اللغة: الطريقة والسيرة[4]مرضية كانت أم غير مرضية، حسنة كانت أم سيئة.

وعلى المعنى اللغوي يتنزل قوله صلى الله عليه وسلم:" من سن في الإسلام **سنة حسنة** فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجوره شيء، ومن سن في الإسلام **سنة سيئة** فعليه وزرها ووزر من عمل بها[5].

واصطلاحاً: ما أضيف إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خُلُقية، من مبدأ بعثته إلى وفاته[6].

وإذا تأملنا مفهوم السنة ومفهوم الحديث فسيظهر لنا الفرق بين المفهومين من حيث اتساعه مفهوم الحديث ليشمل السنة وما لا يدخل في السنة فالحديث عن الأخبار التي ما قبل البعثة يدخل في مسمى الحديث، ولا يدخل في السنة ولا يدخل في السنة صفات النبي صلى الله عليه وسلم الخِلْقية باعتبارها صفات فطرية، وليست موضع اقتداء ولا يستفاد منها حكم شرعي. ومن هنا نقول: إن كل سنة حديث وليس كل حديث سنة، لأن الحديث أعم من السنة.

([1]) صحيح البخاري ح(2677) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الأحكام التي تعرف بالدلائل وكيف معنى الدلالة وتفسيرها.

([2]) جامع الترمذي (3623) كتاب المناقب، باب في مبعث النبي صلى الله عليه وسلم.

([3]) سنن أبي داوود 04774) كتاب الأدب، باب في الحلم وأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم.

([4]) لسان العرب: "سنن".

([5]) صحيح مسلم (017) كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، الترمذي (2675) كتاب العلم، باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى

([6]) انظر مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية 1/0-18. وانظر كتاب محاضرات في علوم الحديث للدكتور محمد مختار المفتي ، ص18

والسنة عند الفقهاء هي: ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه[1]. -وتطلق السنة في مقابل البدعة.

ومن ذلك قولهم: "فلان على السنة" إذا عمل وفق ما عمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقولهم: "فلان على البدعة" أي إذا أحدث في الدين ما لم يكن عليه السلف.

(ب) أدلة حجية السنة :

تعد السنة المصدر الثاني -بعد القرآن الكريم- من مصادر التشريع الإسلامي، وقد دل على حجيتها أمور كثيرة منها:

أولاً: الأدلة من القرآن الكريم:

أمر الله باتباع رسوله وطاعته، فقال جل شأنه:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) [الحشر:7].

وفرض على المؤمنين طاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، لأنها من طاعة الله، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا) [النساء:59].

والرد إلى الله هو الرد إلى الكتاب والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته.

وحذرنا من مخالفة أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقال:

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [النور:13]. ولم يجعل لنا الخيرة أمام حكمه فقال:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [الأحزاب: 36].

وجعل الله -سبحانه وتعالى -ذلك من أصول الإيمان فقال:

(فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء:65].

- وبين أن طاعة الرسول طاعة لله عز وجل فقال:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) [النساء: 80].

([1]) روضة الناظر، ابن قدامة المقدسي، ج1 ص35.

إن كل هذه الآيات تدل على وجوب طاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم -وما طاعته إلا العمل بسنته والإقتداء بهديه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: الأدلة من السنة نفسِها:

عن المقدام بن مَعْدي كَرِب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يُوشِكُ الرَّجُلُ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يُحَدَّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي فَيَقُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ أَلَّا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ"[1].

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-قال:

"عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ" [2].

وقال -صلى الله عليه وسلم-: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي"[3].

وقوله صلى الله عليه وسلم: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، فقالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى"[4].

ثالثاً: الإجماع

أجمعت الأمة الإسلامية على العمل بالسنة وقبل المسلمون السنة كما قبلوا بالقرآن الكريم.

واعتنى المسلمون بالسنة النبوية ونقلها الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل، ورجعوا إليها في جميع أمور دينهم .

رابعاً: التزام الصحابة بالسنة النبوية

فهم الصحابة - رضي الله عنهم –من القرآن أن أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم -واجب الاتباع وأن ما شرعه لهم مما شرعه الله تعالى، وإليك أمثلة تبين ذلك:

أ- سأل رجل عمران بن الحصين، وطلب منه دليلاً على مسألته من القرآن الكريم، فقال له: "إنك امرؤ أحمق، أتجد في كتاب الله الظهر أربعاً لا تجهر بها بالقراءة، ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال أتجد هذا في كتاب الله مفسراً؟ إن كتاب الله أبهم هذا، وإن السنة تفسر ذلك"[5].

ب- قال رجل لمطرف بن عبد الله لا تحدثونا إلا بالقرآن فقال له مطرف: "والله ما نريد بالقرآن بدلاً، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا[1] ، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

([1]) سنن ابن ماجه (12) المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

([2]) جامع الترمذي (2676) كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع.

([3]) المستدرك للحاكم.

([4]) فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم 13/ 249 حديث رقم (7280).

([5]) جامع بيان العلم وفضله 23/1.

ج- جاءت امرأة إلى عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه -إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت والواشمة والمستوشمة، وإني قرأت ما بين اللوحين فلم أجد مما أقول، فقال: وما لي لا ألعن من لعنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ومن هو في كتاب الله؟ قالت: إني لأقرأ ما بين اللوحين فما أجده، قال إن كنت قارئة فقد وجدت، أما قرأت: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) [2] [الحشر:7].

- منزلة السنة من القرآن الكريم:

سبق أن ذكرنا أن السنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي.

فالسنة مثل القرآن الكريم في التشريع وإفادة الأحكام.

وأما عن أوجه بيان السنة للقرآن الكريم فإنَّ الله - عز وعلا - قال: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ **لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نزلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل: 44].

ويتمثل هذا البيان بالأوجه الآتية:

1. أن تكون السنة موافِقة ومؤكِّدة لما جاء في القرآن الكريم: فمن ذلك أنَّ الله تعالى حث على حسن معاملة النساء بقوله: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)[النساء: من الآية19]، وجاءت السنة تؤكد هذا المعنى إذ يقول النبي- صلى الله عليه وسلم-: "أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ "[3].

2. بيان المجمل: فقد فرض الله الصلاة على عباده بقوله: (فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً)[النساء: من الآية103]، وجاءت السنة لتبين ذلك، فقد بيّن النبي-صلى الله عليه وسلم- كيفية الصلاة وطبق ذلك عمليا، ثم قال: "... َصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي وَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ"[4].

3.تخصيص العام: قال تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ) [النساء:23-24]، فقوله تعالى: **(وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ)**عامٌّ في حِلّ ما سوى تلك الأصناف المذكورة، لكن السنة خصصت هذا الحكم العام، وحرمت الجمع بين الزوجة وخالتها أو عمتها، فقد روى مسلم بسنده عن أبي هريرة – رضي الله عنه - قال: قال رسول

([1]) المرجع السابق، الموضع نفسه.

([2]) مسند أحمد 21/6.

([3])جامع الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، برقم(1163)وقال حسن صحيح.

([4])صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمته بالناس والبهائم، برقم(6008).

الله - صلى الله عليه وسلم- : " لَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا وَلَا عَلَى خَالَتِهَا"[1]، وهذا الحكم لا يفهم من الآية، لولا أن خصصتْه السنةُ.

4. تقييد المطلق: فمثلاً :من المعلوم أن حد السرقة هو قطع يد السارق أو السارقة، إلا أن القرآن الكريم أطلق لفظ القطع بقوله تعالى: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [المائدة:38].
فلم تبين الآية الكريمة موضع القطع، وأي اليدين التي تقطع، ولم تبين النصاب أو الشروط الموجبة للقطع، فجاءت السنة تبين لنا ذلك، فقد روى البيهقي بسنده عن رجاء بن حيوة عن عدي بن حاتم أن النبي - صلى الله عليه وسلم- قطع يد سارق من المفصل"[2]، وقال - صلى الله عليه وسلم- : "لا تُقطعُ يدُ السارقِ إلا بعد ربعِ دينارٍ فصاعداً"[3]

5. توضيح المشكل: ورد في بعض الأحاديث قوله-صلى الله عليه وسلم-: " مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ "[4]، فأَشْكل ذلك على بعض الصحابة؛ لأن الله جل وعلا يقول: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً) [الانشقاق:7-8]، ، فسألت السيدة عائشة-رضي الله عنها- النبي- صلى الله عليه وسلم- عن ذلك فقال: " ذلك العرض"[5]، وروى البخاري بسنده عن عائشة-رضي الله عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-قال: " لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً) [الانشقاق:7-8] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ε:"إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُذِّبَ"[6].

6. تفسير المبهم: روى الترمذي بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: "قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم- هَذِهِ الْآيَــةَ: (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) [الزلزلة:4]، قَالَ:" أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ:" فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا تَقُولُ عَمِلَ يَوْمَ كَذَا كَذَا وَكَذَا فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا". قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ[7].

كما أن السنة يمكن أن تأتي بأحكام شرعية جديدة لم تَرِدْ في الكتاب العزيز، فهي واجبة الاتباع إذا جاءت من طرق صحيحة، ومن أمثلة ذلك:

([1])صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح، برقم(1408).

([2])سنن البيهقي الكبرى(271/8) جماع أبواب قطع اليد والرجل في السرقة، باب السارق يسرق أولا فتقطع يده اليمني من مفصل الكف.

([3]) المصدر نفسه 254/8.

([4])صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، برقم(6536).

([5])صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، برقم(6536).

([6])صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، برقم(6537).

([7])جامع الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب من سورة الزلزلة برقم(3353).

1. عقوبة الرجم للزاني المحصن[1]**:** وهي من أشد العقوبات في الإسلام؛ ففيها الحكم بالإعدام رجماً بالحجارة، وقد ثبت هذا الحكم في السنة النبوية الشريفة، ولم يرد في القرآن الكريم -وإنما ورد في القرآن عقوبة الزاني غير المحصن-، فقد روى البخاري بسنده عن عليτ حِينَ رَجَمَ الْمَرْأَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَقَالَ قَدْ رَجَمْتُهَا بِسُنَّةِ رسول الله - صلى الله عليه وسلم- "[2]، كما روى بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري - رضي الله عنه - أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَسْلَمْ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَحَدَّثَهُ أَنَّهُ قَدْ زَنَى فَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَرُجِمَ وَكَانَ قَدْ أُحْصِنَ"[3].

2.تحريم متعة النساء[4]**:**

3. تحريم لحوم الحمر الأهلية: فقد روى البخاري بسنده عن علي بن أبي طالب

-رضي الله عنه - ثم أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- نَهَى عَنْ مُتْعَةِ النِّسَاءِ يَوْمَ خَيْبَرَ وَعَنْ أَكْلِ لُحُومِ الْحُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ" [5].

4. تحريم كل ذي ناب من السباع، وأمور أخرى كثيرة، فقد روى الإمام أحمد بسند صحيح عن المقدام بن مَعْدي كَرِب سنان، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-:" أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا يُوشِكُ رَجُلٌ يَثْنِي شَبْعَانًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ أَلَا وَلَا لُقَطَةٌ مِنْ مَالِ مُعَاهَدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُمْ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُمْ فَلَهُمْ أَنْ يُعْقِبُوهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُمْ"[6]. ومن هذا الباب أيضاً تحريم لبس الحرير والتختم بالذهب على الرجال ثبت تحريمهما عليهم في السنة وليس في القرآن الكريم.

وهكذا نجد أن السنة استقلت ببعض الأحكام الشرعية التي سكت عنها القرآن الكريم، وهي واجبة الاتباع مثلها مثل الأحكام التي جاءت في القرآن الكريم، ولا عجب في ذلك ، فكلاهما-القرآن والسنة-وحي من الله عز وجل، قال تعالى: : **(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)**[النجم:3-4].

([1]) الزاني المحصن: الرجل المتزوج إذا زنى، وكذلك المرأة المتزوجة إذا زنت.

([2])صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رجم المحصن، برقم(6812).

([3]) صحيح البخاري، في الموضع السابق، برقم(6814).

([4])متعة النساء: هو زواج المتعة الذي يحدد بأجل معين، بحيث ينتهي عقد الزواج بمدة محددة يتفق عليها الطرفان، فهذا الزواج محرم عند جمهور العلماء من أهل السنة والجماعة.

([5])صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر(4216).

([6]) مسند أحمد(130/4)وقد سبق ذكر سنده آنفاً.

الوحدة السادسة

جهود الصحابة والتابعين في خدمة السنة النبوية

المبحث الأول

كتابة الحديث في العهد النبوي

تمهيد:

صحت أحاديث واردة في الإذن بكتابة الحديث، وأحاديث أخرى واردة بالنهي عنها، والأحاديث من هذه الشاكلة هي من أحاديث مختلف الحديث، وستثبت المطالب التالية أنَّ أنسب أوجه التوفيق بين هذه الأحاديث أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يأذن بالكتابة لمن علِمَ إتقانه لها، إذ لو كتب الحديث أحدٌ ممن لا يحسن الكتابة، أو لم يحرص تمام الحرص على عدم خلط القرآن بشيء من كلام النبي-صلى الله عليه وسلم- فيه لكأنما تقوَّل على النبي-صلى الله عليه وسلم- ما لم يقل، فالصواب في حق هؤلاء أن يُنْهَوا عن الكتابة، مصداقاً لقوله -صلى الله عليه وسلم-: "لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"[1].

المطلب الأول: الكتابة عند الصحابة رضي الله عنهم.

عُرف العرب قديماً بقوة الحفظ، وكان كثير من الصحابة والتابعين مطبوعين على ذلك كابن عباس -رضي الله عنهما - ، والشعبي، والزهري، والنخعي، وقتادة... ألا ترى إلى ابن عباس أنه حفظ قصيدة عمر بن أبي ربيعة في سَمعة واحدة، وهي خمسة وسبعون بيتاً، وما جاء عن الزهري أنه كان يقول: إني لأمرُّ بالبقيع فأسدُّ آذاني مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا، فوالله ما دخل أذني شيء قط فنسيته[2].
ولم تكن حاجة الناس قديماً-في الجاهلية- إلى القراءة والكتابة كحاجتنا إليها اليوم، فهي إذ كانت مطلباً ثانوياً، غدت اليوم مطلباً أساسياً، ووسيلة أكيدة في اكتساب العلم، وكسب الرزق، وفي تسيير الأمور وتيسيرها في

---

[1] رواه الإمام مسلم، مسلم بن الحجاج(ت261هـ) في "الجامع الصحيح" 2298/4 باب:التثبت في الحديث، رقم(3004) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

[2] "بعض الشبه الواردة على السنة" ص (418)

الحل والترحال، ولما جاء الإسلام ازدادت الحاجة إلى الكتابة، وانتشرت في مكة أكثر من انتشارها في المدينة[1]. وقال الشعبي سألتُ المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الحِيرة[2]، وأمر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أسارى بدر ممن لا يملكون فداءً أن يعلّموا عشرة من غلمان المدينة الكتابة. فعن الشعبي أيضاً قال: أسر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يوم بدر سبعين أسيراً، وكان يفادي بهم على قدر أموالهم، وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداؤه.[3]..وفي رواية: فكان زيد بن ثابت ممن عُلِّمَ .

ومع انتشار الإسلام ازداد عدد من يعرفون الكتابة، فليس الأمر على ما ترجح عند ابن قتيبة –رحمه الله تعالى- من أنَّ الصحابة –رضي الله عنهم- كانوا أميين لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان، وإذا كتب لم يتقن، ولم يصب التهجي.[4]، إلا إذا أراد بذلك القلة النسبية، فإنّ هنالك عدداً وافراً من الصحابة الذين كانوا يعرفون الكتابة لعله يطول المقام بسرد أسمائهم...

المطلب الثاني: إذن النبي-صلى الله عليه وسلم- بالكتابة للمشهورين بالعناية بالحديث وإتقان كتابته.

كان النبي- صلى الله عليه وسلم - على علم بما يصلح له كل أحد من الصحابة من المهام التي يمكن أن يكون أحدهم أولى بها من غيره وأحذق، ومن هذا الباب كتابة الحديث، فكان يأذن بالكتابة لمن وثق بإتقانه وتيقظه وأهليته لكتابة النصوص بالغة الأهمية، إذ ينبغي أن يكون:

* متقناً للكتابة –خاصة وأنَّ كثيراً من الصحابة حديثو عهد بتعلّم القراءة والكتابة.

ولذا، لم ينهَ النبي- صلى الله عليه وسلم- بعض الصحابة عن الكتابة، ومن هؤلاء عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. ولا يخفى حرص عبد الله بن عمرو على كتابة الحديث، وقد كتب قبل أن يستأذن النبي -صلى الله عليه وسلم - ، ثم استأذن وحضه النبي- صلى الله عليه وسلم - على الكتابة، وهذا أعظم درجة من مجرد الإذن فقد أجابه بلفظ:**"اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق"**[5]. وكان ابن عمرو - رضي الله عنهما - أسلم في السنة السابعة للهجرة إلى أول الثامنة، وهو ابن أربع عشرة سنة.

والظاهر أنّ ابن عمرو ابتدأ كتابة الحديث في السنة الثامنة للهجرة بعيد فتح مكة-وهو ابن خمس عشرة سنة-، وهذا ما يشير إليه الحديث التالي:

---

[1] رواه ابن شاهين، عمر بن أحمد(ت385هـ) في "ناسخ الحديث ومنسوخه" ص(472)، ط1، مكتبة المنار ، الزرقاء.

[2] الفاكهي، محمد بن إسحاق، "أخبار مكة" 214/3، تحقيق: د. عبد الملك بن دهيش، ط2، دار خضر، بيروت، 1994م.

[3] أبو الحسن، مقاتل بن سليمان، "تفسير مقاتل بن سليمان"45/2، تحقيق: د.أحمد فريد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت2003م.

[4] ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم(ت 276هـ)، "تأويل مختلف الحديث" ص(287) ، تحقيق: محمد زهري النجار، دار الجيل_ بيروت، 1972م. وانظر كتاب محاضرات في علوم الحديث للدكتور محمد مختار المفتي ، ص250

[5] سيأتي تخريجه ص(15).

روى عطاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: يا رسول الله إنا نسمع منك أحاديث أفتأذن لنا أن نكتبها قال: "نعم". فكان أولُ ما كتب كتابَ النبيِّ - صلى الله عليه وسلم - إلى أهل مكة: لا يجوز شرطان في بيع واحد...الحديث.[1]

وهو من رواية عطاء الخرساني عن عبدالله بن عمرو، ولم يسمع منه.[2] ولكن جاء من طريق أقوى من هذه –وليس فيها أول ما كتب-ذكرها الإمام مالك بلاغاً، ووصلها ابن عبد البر، وقال: وهذا الحديث محفوظ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو حديث صحيح رواه الثقات عن عمرو بن شعيب، وعمرو بن شعيب: ثقة إذا حدث عنه ثقة، وإنما دخلت أحاديثه عن جده صحيفة يقول إنها مسموعة صحيحة.[3]

ثم صار يكتب كل شيء يسمعه من النبي صلى الله عليه وسلم:

قال رضي الله عنهما: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أُريد أن أحفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله-صلى الله عليه وسلم- فقال: "اكتبْ فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق".[4]

وفي بعض طرق الحديث : قال عبدالله بن عمرو: أنا نسمع منك أشياء لا نحفظها أفنكتبها؟ قال: "بلى فاكتبوها".[5]

وتفيد بعض الروايات أنّ ابن عمرو استأذن له ولجماعة معه ولعلهم مثله في الإجادة والإتقان، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ما يؤيده الحديث التالي:

فقد روى الدارمي بإسناد حسن من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: بينما نحن حول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نكتب إذ سئل رسول الله-صلى الله عليه وسلم- : أيُّ المدينتين تفتح أولاً

---

[1] أخرجه ابن حبان في "صحيحه" 161/10، والبيهقي في "سننه" 3/10.

[2] انظر: ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، ت(852هـ)، " التلخيص الحبير" 17/3، تحقيق: عبدالله اليماني، المدينة المنورة، 1964م.

[3] ابن عبد البر، يوسف بن عبدالله (ت463هـ) "التمهيد" 384/24 تحقيق: مصطفى العلوي، وزارة عموم الأوقاف، المغرب، 1387هـ. وانظر كتاب محاضرات في علوم الحديث للدكتور محمد مختار المفتي ، ص145

[4] أخرجه الإمام أحمد في "مسنده" 162/2 والدارمي في "سننه" 136/2–باب: من رخص في كتابة العلم، برقم(484).

والخطيب في "تقييد العلم" ص(74) كلهم من طريق يوسف بن ماهك عن عبدالله بن عمرو.

ومن طرق كثيرة عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده. ومن طريق مجاهد بن جبر عن عبدالله بن عمرو، ومن طريق خالد بن يزيد، عنه، أيضاً.

[5] وللحديث متابعات أخرى رواها جميعا الخطيب في كتابه "تقييد العلم"ص(74–82).

قسطنطينية أو رومية؟ فقال النبي-صلى الله عليه وسلم-: "لا بل مدينة هرقل أولاً".[1] ودل على ذلك أيضاً إحدى الروايات السابقة والتي فيها: أنا نسمع منك أشياء لا نحفظها أفنكتبها؟ قال: "بلى فاكتبوها".

والحاصل أنَّ ابن عمرو تفوَّق على جميع الصحابة في كتابة الحديث الشريف، وهو ما شهد به أبو هريرة رضي الله عنه الذي هو أكثر الصحابةروايــةً للحديث بلا منازع:

فقد صح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : ما من أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم- أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب[2].
ثم جعل ما كتبه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيفة وهي الصحيفة الصادقة:

قال رضي الله عنهما: ما يرغّبني في الحياة إلا الصادقة والوهط؛ فأما الصادقة: فصحيفة كتبتها من رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ، وأما الوهط: فأرضٌ تصدّق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها.[3] واستأذن رافع بن خديج - رضي الله عنه - في الكتابة، فأُذِنَ له، وثبت أنه كتب، فقد عُرض على النبي - صلى الله عليه وسلم - في يوم أحد جماعة من صغار الصحابة، فردّهم، وكان فيمن ردَّ ابن عمر وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، وأذن لرافع وسمرة بن جندب، فعن رافع بن خديج -رضي الله عنه - قال: قلنا يا رسول الله! إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها؟ قال: اكتبوا ولا حرج"[4]

وثبت أيضاً أنَّ سمرة بن جندب كتب عن النبي -صلى الله عليه وسلم -، وله صحيفة قال ابن أبي حاتم: مروان بن جعفر بن سعد بن سمرة روى صحيفة سمرة [5] ووصفها ابن حبان بالكتاب الطويل.[6] وغالب ظني أنها رسالته التي كتبها لبنيه، ومنهم من وصفها بأنها وصيته لبنيه[7]، والتي فيها أحاديث كثيرة بإسناد واحد، ومنها ما رواه أبو داود من طريق سليمان بن سمرة عن أبيه سمرة أنه كتب إلى ابنه: أما بعد فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالمساجد أن نصنعها في ديارنا ونصلح صنعتها ونطهرها.[8]

وأذن النبي-صلى الله عليه وسلم- بالكتابة للملازمين له ممن يتقن الكتابة كأنس بن مالك - رضي الله عنه- فقد كتب عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وتمكن من العرض عليه بعد الكتابة وذلك لمكانه منه - صلى الله عليه وسلم -، وهذا يدل حقاً على أهليته لكتابة السنة: جاء بإسناد حسن عن هبيرة بن عبدالرحمن أنَّ

---

[1] رواه الدارمي في "سننه"136/1، كتاب(العلم)–باب: الرخصة فيه، برقم(485).

[2] أخرجه البخاري في "صحيحه" 54/1، كتاب "العلم" باب : كتابة العلم.

[3] رواه الدارمي في "سننه"139/1، كتاب(العلم)–باب: الرخصة فيه، برقم(496)، وإسناده ضعيف فإنه من رواية شريك عن الليث وهو ابن أبي سليم قال عنه الحافظ ابن حجر في "التقريب": صدوق اختلط جداً ولم يتميز حديثه فتُرك. إضافة إلى ما يعرف عن شريك من تغيّر حفظه منذ ولي القضاء...

[4] أخرجه الطبراني سليمان بن أحمد(ت360هـ) في "المعجم الكبير" 276/4 تحقيق: حمدي السلفي، ط2، مكتبة العلوم، الموصل، 1983م.والخطيب في "تقييد العلم" ص(72،73) وفيه أبو مدرك واسمه عبدالله بن مدرك الازدي ولم أجد له ترجمة، ولكنه يتقوى بالشواهد السابقة

[5] ابن أبي حاتم عبدالرحمن بن محمد(ت327هـ)"الجرح والتعديل" 276/8، دار إحياء التراث، بيروت، 1952م.

[6] "الثقات" 58/9.

[7] ابن سعد ،"الطبقات الكبرى" 417/6.

[8] "سنن أبي داود" 125/2،كتاب (الصلاة)–باب: اتخاذ المساجد في الدور، برقم(456).

أنس بن مالك - رضي الله عنه - : كان إذا حدّث فكثر عليه الناس جاء بمجالٍ[1] فألقاها ثم قال: "هذه أحاديثُ سمعتُها وكتبتُها عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وعرضتُها عليه"[2].

وكان - رضي الله عنه - يأمر بنيه بكتابة الحديث ويحثهم عليها:

فقد صحَّ عنه رضي الله عنه أنه قال: حدثني محمود بن الربيع عن عتبان بن مالك قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "لا يشهد أحدٌ أنْ لا إله إلا الله وأني رسول الله فيدخل النار أو تطْعَمه" وفيه قصة...قال أنس : فأعجبني هذا الحديث فقلت لابني: اكتبْه فكتبه[3].

المطلب السادس: تحسر أبي هريرة - رضي الله عنه -على عدم كتابته للحديث.

أبو هريرة رضي الله عنه أحفظ الصحابة على الإطلاق،وأكثرهم ملازمة للنبي -صلى الله عليه وسلم- منذ أسلم سنة (7هـ) وقد ثبت أنه لم يكتب، لكنه تحسر لذلك، وروى أحاديث الإذن.

* روى همَّام بن منبّه قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول : ما من أصحاب النبي-صلى الله عليه وسلم- أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب[4].

* **وما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه** - أن خزاعة قتلوا رجلاً من بني ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه، فأخبر بذلك النبي- صلى الله عليه وسلم- فركب راحلته فخطب فقال إن الله حبس عن مكة القتل... الحديث" . فجاء رجل من أهل اليمن فقال : اكتب لي يا رسول الله فقال: **" اكتبوا لأبي فلان[5]"**

* وما رواه أبو هريرة -رضي الله عنه - قال: كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبي-صلى الله عليه وسلم- فيسمع من النبي - صلى الله عليه وسلم - الحديث فيعجبه، ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : **"استعنْ على حفظك بيمينك"**[6] وأومأ بيده للخط.

---

[1] المجالُ هي جمع المجلة، وهي الصُحف. ابن الأثير ،"النهاية في غريب الحديث والأثر" 289/1.

[2] رواه البيهقي أحمد بن الحسين(ت458هـ) في "المدخل إلى السنن" 415/2تحقيق د.محمد الأعظمي،دار الخلفاء، الكويت، 1404هـ بإسناد حسن فيه عتبة بن أبي حكيم الهمداني صدوق يخطئ كثيراً كما في "التقريب" وانظر "تهذيب التهذيب" 87/7

[3] رواه الإمام مسلم في "صحيحه" 61/1 باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً. ومن لطائف هذا الإسناد أن فيه ثلاث صحابة يروي أحدهم عن الآخر.

[4] أخرجه البخاري في "صحيحه" 54/1، كتاب "العلم" باب : كتابة العلم، رقم(113).

[5] أخرجه البخاري في "صحيحه" 53/1، كتاب"العلم"– باب: كتابة العلم، رقم(112). والرجل هو أبو شاة كما جاء في روايات الحديث.

[6] أخرجه الترمذي في "سننه" 39/5 كتاب(العلم)–باب ما جاء في الرخصة فيه، والخطيب في "تقييد العلم" ص(65) وقال الترمذي : إسناده ليس بذلك القائم. قلت: فيه الخليل بن مرة وهو ضعيف كما في " التقريب".

* وروى الدارمي عن بشير بن نهيك قال: كنت أكتب ما أسمع من أبي هريرة فلما أردتُّ أنْ أفارقه **أتيته بكتابه فقرأتُهُ** عليه فقلت له: هذا ما سمعتُ منكَ؟ قال: نعم.[1]

* وقد كتب عنه همام بن منبّه صحيفة.[2]

المطلب الثالث: أحاديث كراهة الكتابة :

لقد عني النبي - صلى الله عليه وسلم - بالقرآن الكريم عناية فائقة محفوفة بالدقة والحرص والانتباه البالغ، وهذا يذكرنا بقوله تعالى واصفاً حال نبيه وحرصه على ألاّ يتفلّت منه حرف واحد من كلام الله تعالى **"لا تحركْ به لسانكَ لتعجلَ بهِ إنّ علينا جمعَهُ وقرءانَهُ"**[3] وإذا ما تصورنا المخاطر التي كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخشاها حال كتابة القرآن الكريم:

- من خلط غيره به. وقد جعله الشيخ محمد مصطفى الأعظمي هو السبب لكراهة الكتابة، ووصفها بالخطوة الوقائية.[4]
- أو انشغال الصحابة رضوان الله عليهم عنه وصرْف اهتمامهم إلى شيء غيره.
- أو كون بعض الصحابة ردىء الكتابة، وغير ذلك من المخاطر التي إذا تصورناها فلا نستغرب أبداً أن يأمر النبي-صلى الله عليه وسلم- بالكف عن كتابة أي شيء غير القرآن الكريم سواء أكان كلاماً من كلامه -صلى الله عليه وسلم - أم كان من أحاديث بني إسرائيل وقصصهم.

على أن ذلك لا يتعارض مع إذنه ابتداءً بكتابة غير القرآن لمن أمن عليه من اندراج تلك المخاطر فيه- وهذا ما أردت إثباته في هذا البحث-؛ فقد أذن-مثلاً- لعبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-، وكان كما قال ابن قتيبة: "قارئاً للكتب المتقدمة ويكتب السريانية والعربية وكان غيره من الصحابه أميين وإذا كتب لم يتقن ولم يصب التهجّي ولما خشي عليهم الغلط فيما يكتبون نهاهم، ولمّا أمِنَ على عبدالله بن عمرو ذلك أذن له"[5].

فإذَنْ الحكم يدور حيث دارت علته وجوداً وعدماً، فكان -صلى الله عليه وسلم - إذا خشي المحذور نهى، وإذا أمن أباح وأذن. ثم استقر الأمر على جواز الكتابة.

وقد جاء في كراهة الكتابة أحاديث منها:

---

[1] "سنن الدارمي"1/ 138، كتاب(العلم)-باب: من رخص بكتابة العلم، رقم(484). وإسناده صحيح.

[2] المصدر السابق 128/1. وهي صحيفة مشتملة على أحاديث بإسناد واحد، وهي نحو من مائة وأربعين حديثاً أكثرها في الصحيحين، مما رواه معمر بن راشد عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه. انظر ابن حجر، "فتح الباري" 518/11، الذهبي،محمد بن أحمد(748هـ) "سير أعلام النبلاء" 312/5،تحقيق" شعيب الأرنؤوط،ط9، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1413هـ.

[3] سورة "القيامة" آية رقم (16،17).

[4] الأعظمي، د.محمد مصطفى، "دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه" 83/1 المكتب الإسلامي- بيروت، 1992م.

[5] ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم(ت276هـ)"تأويل مختلف الحديث" ص(286) تحقيق: محمد زهري النجار، دار الجيل، بيروت، 1972م. وقد جمع كثير من العلماء بين النهي والكراهة انظر مثلاً "فتح الباري" 187/1، "عون المعبود" 348/5 ، السيوطي، "الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج" 314/6. والبيهقي في "المدخل إلى السنن" 406/2 "سير أعلام النبلاء" 81/3،

الحديث الأول:

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمْحُهُ، وحدثوا عني ولا حرج ومن كذب عليّ-قال همام: أحسبه قال:- متعمداً فليتبوأ مقعده من النار[1]".

الحديث الثاني :

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه - قال: استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم أن أكتب الحديث فأبى أن يأذن لي[2]. وفي لفظ : استأذنا النبي - صلى الله عليه وسلم - في الكتاب فأبى أن يأذن لنا[3]. وهو حديث صحيح.

والظاهر أنَّ هذا الخطاب النبوي هو خطاب مخصوص لجماعة فيهم أبو سعيد الخدري، خشي عليهم رسول الله –أو على طائفة منهم- خلط ما يكتبونه من القرآن بما يكتبونه من الأحاديث، وخشي أنْ يضاهئوا بالقرآن غيره حتى لو كان كلاماً من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يمنع –كما تقدم ذكره- أن يجيز الكتابة ابتداءً لمن وثق بدرايتهم وحرصهم وحذرهم من إدخال غير القرآن فيه.

فكأنما معنى الحديث : أما القرآن فاكتبوه ولا تخلطوا به غيره.

وأما الحديث فحدثوا به واحذروا الكذب علي.

ولو كانت الحكمة خشية الاتكال على الحفظ –كما قيل- لما أمر بكتب القرآن، ولاكتفى بالأمر بحفظه في الصدور فحسب.

ولا أرى الحكمة من النهي في هذا الحديث خشية الانشغال عن القرآن الكريم فلو كان كذلك لما أمر - صلى الله عليه وسلم - بمحو ما كُتِبَ، ولكان الخطاب: مَنْ كتب عني غير القرآن فلا يكتب بعد ذلك . والظاهر كذلك أنه -صلى الله عليه وسلم - نهى ضمناً عن كتابة أحاديث بني إسرائيل بدليل الرواية: "لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن فمن كتبَ غيره فَلْيمحُهُ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج"[4]

الحديث الثالث :

وما رواه أيضاً عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء ابن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - ونحن نكتب الأحاديث فقال: "ما هذا الذي تكتبون؟!

قلنا : أحاديث سمعناها منك.

---

[1] رواه الإمام مسلم في "صحيحه"2298/4، باب:التثبت في الحديث.

[2] رواه الترمذي في "سننه" 38/5، كتاب(العلم)–باب: ما جاء في كراهية كتاب العلم وقال : وقد روي هذا الحديث من غير وجه أيضاً عن زيد بن أسلم، رواه همام عن زيد بن أسلم.

[3] رواه الخطيب في "تقييد العلم" ص(33)

[4] رواه الخطيب في "تقييد العلم" ص (31).

قال : "أكتاباً غير كتاب الله تريدون! ما أضل الأمم من قبلكم إلا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله".

قال أبو هريرة: فقلت: أنتحدث عنك يا رسول الله؟

قال : نعم، تحدثوا عني ولا حرج، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار"

وفي رواية، فنتحدث عن بني إسرائيل ؟

قال: " تحدثوا ولا حرج "

قال أبو هريرة : فجمعناها في صعيد واحد فألقيناها في النار. وفي رواية: " أكتاب مع كتاب الله! امحضوا كتاب الله وأخلصوه"[1].

وعلة النهي في الحديثين:

أولاً : حديث أبي سعيد الذي فيه أنه استأذن النبي - صلى الله عليه وسلم - بالكتابة فلم يأذن له يفسره ما رواه أبو نضرة عن أبي سعيد- رضي الله عنه- وقد سأله بقوله: لو كتبتم لنا! فإنا لا نحفظ .

قال : "لا نكتبكم ولا نجعلها مصاحف"[2]

ثانياً: حديث أبي هريرة - رضي الله عنه- فيه " أكتاباً غير كتاب الله تريدون!"

فيبدو أن العلة فيهما هي خشية أن يتخذوا كتاباً غير القرآن الكريم ينشغلوا به عن القرآن.

وعلة أخرى ذكرها البيهقي -رحمه الله- حيث قال: "هاتان الروايتان عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري تدلان على أن النهي عن الكتابة إنما وقع خشية أن يخلط بكتاب الله عز وجل شيئاً"[3].

* المستشرقون وكتابة الحديث

أثار المستشرقون شبهات حول السنة النبوية المطهرة، وأقوالاً وأفكاراً لا تعتمد على منهج علمي واضح، وإنما هي محض آراء ودسائس مغرضة لزعزعة الثقة بالسنة النبوية، ولتسميم أفكار شبابنا المسلم، حتى يصلوا إلى هدفهم المنشود، وهو تعطيل الشريعة الغراء، وإبطال العمل بالسنة، تحت ستار الاكتفاء بالقرآن الكريم، وهو لا ريب قولٌ ظاهره الرحمة وباطنه من قبله العذاب.

---

[1] رواه الامام أحمد في "المسند" 12/13 والخطيب في "تقييد العلم" ص(34) كلاهما من هذا الطريق، وقال الهيثمي علي بن أبي بكر(ت 807هـ)في "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد" 151/1 دار الريان القاهرة، 1407هـ: "رواه احمد وفيه عبدالرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف وبقية رجاله رجال الصحيح". فالإسناد ضعيف لضعف عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كما في "تقريب التهذيب" وانظر ذلك في ترجمته في "تهذيب التهذيب"161/6.

[2] أخرجه الخطيب في "تقييد العلم" ص(36).

[3] "المدخل إلى السنن الكبرى"406/2.

ومن بين طعونهم الطعن في كتابة السنة في العهد النبوي، وعلى رأس هؤلاء جولد زيهر الذي ادعى أنَّ شيئاً من السنة لم يُدوّن، ولكن بقيت في إطار المشافهة حتى بداية القرن الثاني الهجري، وشكك بكل ما روي في كتابة الصحابة للحديث الشريف. وفيما يتصل بمقصده الخفي من هذه الفرية قال الدكتور محمد عجاج الخطيب: يرمي –جولد زيهر- بذلك إلى غرضين:

- أحدهما إضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها في الصدور، لتعويل الناس منذ القرن الثاني على الكتابة.
- والآخر: وصْم السنة كلها بالاختلاق والوضع.[1]

والحقيقة أن إنكار تقييد الحديث في عهد النبي- صلى الله عليه وسلم- لا يمكن أن يأتي ممن يتحاكم إلى الإنصاف، ويسلك نهج العلم، فإنَّ روايات كتابته قد تعددت بالأسانيد الموثوقة الكثيرة جداً في مختلف مراجع السنة، وغفل المستشرقون أو تجاهلوا عوامل الحفظ الكثيرة التي توفرت في الصحابة، وهي بلا شك عوامل كافية كل الكفاء لحفظ الحديث النبوي، فتوهموا أنَّ القدح في كتابة الحديث يوصلهم إلى غرضهم.

أما تقييد العلم في عصر ابن عبد العزيز –رحمه الله- فليس يعني أبدا أنه لم يدون من قبل، غاية الأمر أن هذا الخليفة العادل وجد كثيراً من العلماء يحجم عنه، كما أنهم لم يكونوا يتداولون الكتب ليعتمدوا عليها، فأصدر أمره بكتابة الحديث لينتقل بالعلم إلى التدوين العام، الذي يعتمد مع الحفظ على الكتابة، ويجعل الكتابة مرجعاً متداولاً معتمداً لا يختص بصاحبه فقط.[2]

المبحث الثاني

مرحلة تدوين الحديث

هناك فرق واضح بين كتابة الحديث وتدوينه، إذ إنَّ كتابة الحديث تعني تقييده في الصحف بمبادرة قام بها جماعة من الصحابة - رضي الله عنهم - أذن لهم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بذلك، ولم يعزم عليهم، ولو ألزمهم أو كما قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم- لكان تدويناً، فالتدوين مشروع كبير قام بأمر السلطان لجمع السنة المشرّفة، وقد ابتدأ تدوين الحديث على رأس المائة بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز-رحمه الله-(تـ101هـ). وكان الدافع لهذا التدوين أسباب، منها[(3)]:

1- زوال أسباب كراهة كتابة الحديث.
2- الخشية من ضياع الحديث بموت علمائه ورواته.
3- ظهور الوضع في الحديث، بسبب الخلافات السياسية والمذهبية بعد الفتنة، وانقسام المسلمين إلى شيعة علي وأتباع معاوية، وخوارج خرجوا عليهما معاً، وحرصت كل طائفة على تحميل نصوص السنة ما لا تحتمله.

---

[1] الخطيب، محمد عجاج،"السنة قبل التدوين" ص(376) ط2، مكتبة وهبة– القاهرة، 1988م.

[2] عتر "منهج النقد في علوم الحديث" ص(49)

([3]) انظر هذا الفصل في كتاب محاضرات في علوم الحديث للدكتور محمد مختار المفتي ، ص 56 ، وانظر منهج النقد في علوم الحديث، د. نور الدين عتر، ص 58.

4- ضعف ملكة الحفظ في الناس، فالحافظة القوية التي تميز بها العرب أخذت تضعف.

5- طالت الأسانيد وتشعبت بسبب بعد العهد وكثرة حملة الحديث.

وعندما عزم عمر بن عبد العزيز على التدوين كَتَبَ إلى أبي بكر ابن حزم(تـ117هـ)عامله على المدينة: انظر ما كان من حديث رسول الله أو كما قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فاكتبْه، فإني خفتُ دروسَ العلم، وذهابَ العلماء.[1] وقد عدّ علماء الحديث عمل عمر بن عبد العزيز هذا أول تدوين للحديث.

لكن المحاولة الجادة، الشاملة، كانت على يد الإمام محمد بن شهاب الزهري (تـ 124هـ) حيث استجاب لعمر بن عبد العزيز، فاستقصى ما وصل إليه من حديث، وجمعه، حتى قال كثير من العلماء: "لولا الزهري لضاع كثير من السنة"[(2)]. وقالوا: "أول من دوّن العلم ابن شهاب"[(3)] ، قال ابن شهاب: "لم يدون هذا العلم أحدٌ قبل تدويني"[(4)].

وكان تدوين الحديث بغض النظر عن موضوع الحديث ، أو درجته من حيث القبول أو الرد، ثم شاع التدوين بعد الزهري مختلطاً بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين.

والخلاصة أن التدوين الرسمي كان في عصر عمر بن عبد العزيز، أما كتابة الحديث – في الصحف والرقاع- فقد مارسه الصحابة في عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

المبحث الثالث

مرحلة التصنيف في الحديث

ما إن شارف القرن الثاني الهجري على الانتهاء حتى بدأت حركة التصنيف المنهجي في الحديث، فاتجه العلماء إلى تأليف كتب مرتبة مبوبة، ثم توسعت هذه الحركة في القرن الثالث الهجري، الذي عُرف بعصر السنة الذهبي، وكان من أوائل هذه الكتب كتاب "الموطأ" للإمام مالك بن أنس (ت 179هـ)، فقد جاء هذا الكتاب نموذجاً فريداً في عرض الأحاديث التي تتناول الأحكام الشرعية، مع ذكر الأبواب والعناوين، ويعتبر "الموطأ" بحق باكورة الإنتاج المنهجي في الحديث.

ثم تطور التصنيف والتأليف في السنة وازدهر ازدهاراً عظيماً، إذ دونت فيه أغلب كتب السنة المعروفة وبرز الأئمة المشهورون والنقاد المعتبرون الذين أسهموا في جمع السنة وتنقيحها وتصنيفها كما سيأتي بيانه:

*** أهم طرق التصنيف في الحديث:**

في مطلع القرن الثالث الهجري أخذت الرواية شكلاً جديداً غير الذي كانت عليه فيما مضى.

---

[1] ذكره الإمام البخاري تعليقاً بصيغة الجزم في "صحيحه" 194/1"فتح الباري" كتاب"العلم"–باب: كيف يقبض العلم.

([2]) علوم الحديث لابن الصلاح ص171.

([3]) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر 76/1.

([4]) الرسالة المستطرفة للكتاني ص4.

وقد نهج المصنفون في الحديث مناهج شتى في التأليف، ترجع إلى طريقتين رئيستين وهما:

1- **التصنيف حسب راوي الحديث**، ويندرج تحته نوعان من المصنفات الحديثية:

أ- المسانيد: وهي كتب حديثية رُتبت الأحاديثُ فيها حسب الصحابي راوي الحديث، وذلك بغض النظر عن موضوع الحديث، وأشهر المسانيد: "المسند " للإمام أحمد، وقد ذكر الكتاني في "الرسالة المستطرفة" 82 مسنداً، منها: مسند الحميدي، مسند البزار، مسند أبي داود الطيالسي، مسند أبي يعلى الموصلي، وغيرها.وكتب المسانيد لا تقتصر على جمع الحديث الصحيح، بل تشمل الصحيح وغيره، ولم ترتب على حسب أبواب الفقه ؛ لأن ترتيبها يقوم على جمع مسند كل صحابي دون مراعاة لموضوع مروياته.

ب- **المعاجم:** وهي كتب حديثية رتبت الأحاديث في بعضها على أسماء الصحابة، وفي بعضها الآخر على شيوخ المصنِّف، وأشهرها المعاجم الثلاثة للطبراني (تـ 360هـ):

أ- "فالمعجم الكبير": رتب الأحاديث فيه حسب الصحابي وذلك على حروف المعجم. والفرق بينه وبين "المسند" أنَّ صاحب "المسند" يروي أكثر ما يمكنه أن يرويه من أحاديث الصحابي، بينما "المعجم الكبير" فإنما يروي شيئاً من أحاديثه، وذلك إذا كان الراوي مكثراً من الرواية، وإلا فإنه يذكر كل ما يمكنه من أحاديثه.

ب- و"المعجم الأوسط" و"المعجم الصغير": رتب الأحاديث فيها حسب شيوخه على حروف المعجم كذلك.

2- **التصنيف حسب موضوع الحديث:** ويندرج تحته نوعان من مصنفات الحديث:

أ- مصنفات رتبت الأحاديث فيها على جميع أبواب الدين، وأشهرها كتب "الجوامع": والجوامع هي كتب حديثية جمع فيها مصنفوها الأحاديث على جميع أبواب الدين، فترى فيها العقائد كالإيمان، والعبادات كالطهارة، والمعاملات كالنكاح، والسير والمناقب، والتفسير، والآداب، والرقائق، والفتن، وغير ذلك.

وأشهر الجوامع ثلاثة:

أ- الجامع الصحيح للبخاري (تـ 256هـ) : وهو أول من أفرد الحديث الصحيح بالتأليف لكنه لم يستوعبه، ورتبه على الأبواب مفتتحاً بكتاب بدء الوحي، الإيمان، العلم، الطهارة... إلى أن انتهى بالتوحيد. ومجموع كتبه 97 كتاباً، وكل كتاب مجزأ إلى أبواب، تحت كل باب حديثٌ واحد أو غالباً ما يكون أكثر من ذلك. وحظي "صحيح البخاري" بعناية فائقة من العلماء فاهتموا بشرحه، ومن أجلِّ شروحه: "فتح الباري شرح صحيح البخاري" للإمام ابن حجر العسقلاني (ت852هـ)

* **الجامع الصحيح للإمام مسلم (ت261هـ):** واقتصره على رواية الحديث الصحيح.

ويعتبر "صحيح مسلم" في المرتبة الثانية بعد "صحيح البخاري"، ولذلك لقي قبولاً كبيراً عند العلماء فاعتنوا بشرحه، ومن أحسن شروحه "المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج" للنووي (ت676هـ).

* **"جامع الترمذي" (ت279هـ)** ويسمى أيضاً "سنن الترمذي" : روى فيه الحديث الصحيح والحسن والضعيف، ويبين- غالباً- درجة الحديث وما قيل فيه، وقد رتبه على الأبواب: الطهارة، الصلاة.. إلى أن ختم بكتاب المناقب. ومن شروح "الترمذي" : "تحفة الأحوذي" للمباركفوري (ت1353هـ).

ب- التصنيف على طريق الأبواب الفقهية:

و هذا النوع من المصنفات لا يشمل جميع أبواب الدين، وإنما يشمل أكثر الموضوعات الشرعية ولا سيما الفقهية. والغالب على ترتيبها أن تُرتب على الأبواب الفقهية، فيبدأ بكتاب الطهارة ثم الصلاة ثم بقية العبادت فالمعاملات، وهكذا سائر الأبواب المتعلقة بالأحكام والفقه. وليس من شأنها أحاديث العقائد، ولا السير والمغازي، ولا التفسير ولا الرقاق...

و أشهر ما صنف على هذا النمط:

1. كتب **السنن**، وهي: الكتب المرتبة على أبواب الفقه، وتقتصر على الأحاديث المرفوعة فقط، لتكون مصدراً للفقهاء في استنباط الأحكام.

وأشهر كتب السنن: سنن أبي داود (ت275هـ)، وسنن النسائي (ت303هـ)، وسنن ابن ماجه (ت275هـ).

2. وكتب الموطآت، ككتاب "الموطأ" للإمام مالك (ت179هـ)

3. وكتب المصنفات،ككتاب "المصنَّف" لعبدالرزاق الصنعاني(ت211ه) وكلاهما رُتّب على الأبواب الفقهية، واشتمل على الأحاديث المرفوعة، والموقوفة، والمقطوعة، أي إنَّ فيهما أحاديث نبوية، وأقوال الصحابة، وفتاوى تابعين.

الوحدة السابعة

1. علم مصطلح الحديث :

تعريفه، غايته، نشأته، أقسامه، تطوره، وأشهر كتبه

يقسم علم الحديث إلى قسمين رئيسين:

الأول: علم الحديث رواية.

والآخر: علم الحديث دراية.

وعلم الحديث رواية:

هو علم يقوم على نقل أحاديث النبي- صلى الله عليه وسلم -في أقواله وأفعاله وتقريراته وصفاته، نقلاً دقيقاً محرراً، وروايتها بدقة وضبط، وتحرير ألفاظها بمعرفة وأمانة[1].

مصادر الرواية:

لقد استقر علم الحديث رواية -بعد أن كان في صدور الحفاظ-في كتب الحديث الكثيرة ، التي جمعت حديث النبيّ -صلى الله عليه وسلم-، وما نسب إلى الصحابة والتابعين، حتى تجاوزت حصيلة هذه الكتب مليون حديث، وقد ذكرنا في الوحدة السابقة أشهر كتب الرواية.

علم الحديث دراية:

استخدم علماء الحديث كلمة دراية للدلالة على هذا النوع المعمق من البحث في الحديث، لأن هذه الكلمة تعبر عن العلم الدقيق الذي يكشف الخفايا، ومن هنا أطلق علماء الحديث "علم الحديث دراية" على تلك العلوم التي تبحث في المروي من حيث جميع مشكلاته وقضاياه، وسنتعرف في هذا المبحث على هذا العلم من حيث تعريفه، وميدانه، وغايته، وأقسامه.

تعريف علم الحديث دراية: هو: علم بقوانين تُعْرَفُ بها أحوالُ السند والمتن[2].

أي مجموعة من المباحث والمسائل التي يعرف بها حال الراوي والمروي من حيث القبول والرد.

ويطلق العلماء على علم الحديث دراية اسم "علم أصول الحديث" و"علم مصطلح الحديث" و"علوم الحديث" إلا أن المفهوم العام لعلوم الحديث يطلق على العلوم التي تبحث في الحديث رواية ودراية.

ميدان علم الحديث دراية:

يبحث علم الحديث دراية في الراوي والمروي، أو في السند والمتن إذ إنّ الحديث يتألف من هذين الجانبين.

أما السند فهو: الطريق الموصل إلى المتن[3]، ويتألف من سلسلة من الرواة الذين ينقلون الحديث. والبحث في الراوي يتناول جوانب كثيرة تجعل السند مقبولاً أو مردوداً:

- كالأسماء والكنى والألقاب والأنساب والولادات والوفيات، والمتفق من الأسماء والمفترق منا.

([1]) انظر هذا الفصل في كتاب محاضرات في علوم الحديث للدكتور محمد مختار المفتي ، ص105، و فتح المغيث للسخاوي 4/1.

([2]) تدريب الراوي، السيوطي، ص4.

([3]) تدريب الراوي، للسيوطي/41.

- وما يتصل بكل راو، هل ضبط أو لم يضبط؟ وهل نسي أم لم ينس؟ هل هو ثقة في دينه؟ هل ارتكب بدعة؟.
- وكيف أخذ الحديث؟ وكيف أدى الحديث؟ وما الصيغة التي استخدمها في الرواية؟ وغير ذلك من الأسئلة الكثيرة، وأدوات البحث المتنوعة.

وأما **المتن** فهو: عبارة النبيّ - صلى الله عليه وسلم - أو الصحابي أو التابعي[1]، والبحث في المتن يتناول:

- ضبط المتن.
- ومعرفة اتفاقه أو اختلافه مع الروايات الأخرى.
- ومعرفة غريبه ومعرفة الشاذ.
- ومعرفة المروي بالمعنى أو باللفظ.
- ومعرفة والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك من جوانب البحث الكثيرة.

غايته:

علم الحديث دراية هو الوسيلة التي يُتوصل بها إلى معرفة حديث النبي صلى الله عليه وسلم **وتمييز المقبول من الحديث- صحيحاً كان أو حسناً- من المردود** الذي ثبت ضعفه أو انتحاله، وكل حديث لا يقبل إلّا بعد عرضه على هذا العلم، ومنه يصدر الحكم بالقبول أو الرد، وبه يعرف حكم الله تعالى الذي جاءت به السنة.

أقسام علم الحديث دراية:

إن أقسام هذا العلم كثيرة جداً وسنذكر منها:

أ- علم الجرح والتعديل: وهذا العلم يبحث في أحوال الرواة من حيث القبول والرد.

ب- علم رجال الحديث: علم يترجم لكل من روى الحديث.

ت- علم مختلف الحديث: علم يبحث في الأحاديث التي ظاهرها التعارض من حيث إمكان الجمع بينها، أو الحكم بالنسخ او الترجيح...

ث- علم علل الحديث: علم يبحث عن الأسباب الخفية الغامضة التي تقدح في صحة الحديث.

ج- علم غريب الحديث: علم يبحث في معاني ألفاظ الحديث.

ح- علم ناسخ الحديث ومنسوخه: علم يبحث في الأحاديث المتعارضة والتي يرفع منها حكم المتقدم. ويعتبر كل نوع من أنواع الحديث هذه علماً مستقلاً.

نشأة علم مصطلح الحديث:

نشأت علوم الحديث مع نشأة الرواية، وأخذت تنمو وتزداد وتتطور وقد مرت بأطوار كثيرة إلى أن استقرت مناهجها، وصنفت كتب الحديث في الرواية والدراية، ونذكر هذه الأطوار بإيجاز على النحو الآتي:

أولاً: علوم الحديث في عهد النبيِّ - صلى الله عليه وسلم - :

([1]) نخبة الفكر، لابن حجر: ص16.

سمع الصحابة من النبي - صلى الله عليه وسلم - وشاهدوا أحواله ، والغالب على هذه المرحلة عنصر الرواية والحفظ والتبليغ. وعُرف الصحابة - رضوان الله عليهم - بالصدق في الحديث وقوة الذاكرة، مما يجعل الرواية بعيدة عن عوامل الشك والكذب والنسيان.

ومن أشهر مظاهر علوم الحديث في زمن النبيِّ - صلى الله عليه وسلم - :

- أنَّ رسول الله- صلى الله عليه وسلم - مارس الرواية عملياً عن بعض الصحابة، فقد حدّثَ عن تميم الداري حديث الجسَّاسة؛ قال- صلى الله عليه وسلم- " وقد جمع الصحابة:
"جمعتكم لأن تميما الداري كان رجلا نصرانيا فجاء فبايع وأسلم وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلا.. الحديث "[2]

- أنّ النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - حثّ على سماع الحديث ونقله إلى الناس فيبلغ الشاهدُ الغائبَ، قال - صلى الله عليه وسلم - : "نَضَّرَ اللهُ امرءاً سمعَ مقالتيْ فوعاها وحفظها وبلغها"[1]
- أنّ النبيَّ - صلى الله عليه وسلم -حثّ على تحري الصدق، وحرم الكذب ، ونبّأنا-بما ثبت عند المسلمين تواتره- أنَّ الكذب عليه موجبٌ للنار. قال -صلى الله عليه وسلم- : "مَنْ كذبَ عليّ متعمداً فليتبوّأْ مقعدَهُ من النارِ".
- أقرَّ النبيُّ- صلى الله عليه وسلم - الصحابة على تثبتهم من معنى الخبر الذي يحدثهم به.

فعلم الحديث في هذه الفترة كان يدور حول سماع الصحابة من النبي صلى الله عليه وسلم ومشاهدة أحواله، ثم يبلغ الشاهد الغائب.. والغالب على هذه المرحلة عنصر الرواية والحفظ والتبليغ.

والغالب -كذلك -على جيل الصحابة- رضوان الله عليهم - صدق الحديث وقوة الذاكرة، مما يجعل الرواية بعيدة عن عوامل الشك والكذب والنسيان.

ثانياً: علوم الحديث في زمن الصحابة:

بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم -ظهرت الحاجة إلى الرواية، وكثرت الرحلة في طلب الحديث مع ما كان عليه الصحابة من الحذر واليقظة مخافة الوقوع في الخطأ أو النسيان، فكان أبو بكر -رضي الله عنه - أول من احتاط في قبول الأخبار روي أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورث، فقال: ما أجد لك في كتاب الله شيئاً، وما علمت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذكر لك شيئاً، ثم سأل الناس، فقام المغيرة فقال: حضرت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يعطيها السدس، فقال له: هل معك أحد؟ فشهد محمد ابن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها أبو بكر - رضي الله عنه- [2].

أما عمر- رضي الله عنه -فسن للمحدثين التثبت في النقل، وكان يتوقف في نقل الخبر الواحد إذا شك: عن أبي سعيد الخدري، أن أبا موسى استأذن على عمر من وراء الباب ثلاث مرات فلم يؤذن له، فرجع، فأرسل عمر في أثره، فقال: لم رجعت؟ قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "إذا سلم أحدكم ثلاثاً

---

[2] رواه مسلم في "صحيحه" 2261/4 "الفتن"–باب: قصة الجساسة، برقم(4942).

([1]) جامع الترمذي (2657) في العلم، باب: ما جاء في الحث على تبليغ السماع، سنن أبي داود (3660) في العلم، باب: فضل نشر العلم.

([2]) جامع الترمذي (2100)، (2101) في الفرائض، باب: ما جاء في ميراث الجد.

فلم يُجَبْ فليرجع" قال: لتأتينّي على ذلك ببينة أو لأفعلن بك![1]، وفعل عمر- رضي الله عنه -ذلك احتياطاً ومحافظة على السنة ولئلا يجترئ من بعده فيروي عن النبي- صلى الله عليه السلام - ما لم يقله، فهو يؤسس -رضي الله عنه - منهجاً لمن بعده.

- **السؤال عن الإسناد:**

أدرك الصحابة خطورة الرواية عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم - ، وأنها تحمل إلى الأمة أحكام الحلال والحرام، من هنا كان التثبت وطلب الإسناد، حتى لا يدخل في الدين ما ليس منه، ولم ينته عصر الصحابة حتى استقر طلب السند، ولا سيما بعد ظهور الفتن السياسية التي بدأت بمقتل عثمان رضي الله عنه، فكانت الفتنة باعثاً على ظهور المنهجية النقدية، فحصنوا الحديث النبوي الشريف بوسائل الحفظ والتثبت.

وللفتنة[2] أثر إيجابي في الحديث، فإذا كان المسلمون قد خسروا خلافتهم بسبب الخلافات المتلاحقة فقد ربحوا في مجال الدراية والبحث والنقد والتثبت، مما ساعدهم على حفظ أصول الدين وسنة النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم-.

وكما اهتم الصحابة- رضوان الله عليهم- بالبحث والدراية، فقد واصلوا اهتمامهم بالرواية وحفظ الأحاديث وجمعها والسؤال عنها، كان ابن عباس لا يأذن لمن بعده أن يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا ينظر إليه ولا يأذن لحديثه[3].

- **الرحلة في عهد الصحابة:**

تعتبر الرحلة في طلب الحديث سمة بارزة من سمات المجتمع الإسلامي، منذ عهد الصحابة الكرام إلى القرن السابع الهجري تقريباً، حتى أصبحت الرحلة إحدى الصفات والميزات التي تذكر للراوي.

وقد كان الصحابي يرحل إلى البلاد البعيدة للحصول على حديث أو بعض حديث، فقد رحل الصحابي الجليل جابر بن عبد الله (تـ 78هـ) شهراً حتى قدم الشام يسأل عن حديث واحد، وقد ذكر هذه الرحلة فقال: "ابتعت بعيراً، فشددت إليه رحلي شهراً حتى قدمت الشام فإذا عبد الله؟ فقلت: نعم! فخرج فاعتنقني، فقلت: حديث بلغني، لم أسمعه، خشيت أن أموت أو تموت، قال: سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: "يحشر الله العباد –أو الناس- عراة غرلاً بُهما"، قلنا: ما بُهما؟ قال: ليس معهم شيء فيناديهم بصوت يسمعه من بعد- أحسبه قال: كما يسمعه من قرب: أنا الملك لا ينبغي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة وأحد من أهل

([1]) صحيح البخاري (6245) في الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثاً. وقد مر هذا الخبر في مبحث تثبت الصحابة في الرواية.

([2]) لا شك أن أحداث تلك الفتنة العمياء التي اختلطت فيها الأمور، وكم كانت تلك الفتنة مؤلمة وهي تعصف بدولة الخلافة الراشدة، ولكن هذه الفتنة أثرت إجابياً في حقل المناهج والبحث والتحري، إذ أنها جعلت الصحابة في ذلك العصر المبكر يخشون على الدين من أصحاب الفتن فأصبحوا يتشددون في قبول الرواية ولا يأخذ إلا عمن عرفوه بالخير والصلاح والحفظ والإيمان .

([3]) صحيح مسلم (7) في الإيمان .

النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة، قلت: وكيف؟ وإنما نأتي الله عراة بهما؟ قال: بالحسنات والسيئات"[1].

وأن أبا أيوب الأنصاري –على تقدم صحبته وكثرة سماعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رحل من المدينة إلى مصر ليسمع من عقبة بن عامر حديثاً واحداً، ولمّا سمعه انصرف إلى راحلته، فركبها راجعاً إلى المدينة[2].

- **أهم قوانين الرواية في عصر الصحابة:**

يلاحظ الباحث المتفحص أن الأسس والأركان الأساسية لعلم الرواية ونقل الأخبار موجودة في الكتاب والسنة، قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} [الحجرات]، وقال- صلى الله عليه وسلم- : "نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع"[3]، وقال - صلى الله عليه وسلم- : "من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"[4].

ففي هذه الآية الكريمة وهذين الحديثين الشريفين مبدأ التثبت في أخذ الأخبار وكيفية ضبطها بالانتباه لها ووعيها والتدقيق في نقلها للآخرين. وامتثالاً لأمر الله تعالى ورسوله - صلى الله عليه وسلم - فقد كان الصحابة يتثبتون في نقل الأخبار وقبولها.وقد كان للرواية، في عصر الصحابة، قوانين، نلخص أهمها[5]:

أ- تقليل الرواية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خشية الخطأ والنسيان، روي عن عمر - رضي الله عنه - وغيره من الصحابة "كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع"[6].
وكان ابن عمر - رضي الله عنها –من وجله أن يخطئ الصاحب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم – يأمرهم أن يقلوا الرواية عن نبيهم[7].

ب- التثبت في نقل الأخبار وقبولها لا سيما إذا شكّوا في صدق الناقل لها، روي أن علياً- رضي الله عنه - كان متحرياً في الأخذ بحيث إنه يستخلف من يحدثه بالحديث[8].

ت- **السؤال عن الإسناد**: وقد حرص الصحابة - رضي الله عنهم - على الدقة وسلامة الحديث والسؤال عن سنده وعن صدق الراوي، فإذا كان الراوي غير معروف بالصدق أو مجهول الحال لا يعرف أمره فإنه لا يؤخذ الحديث عن أمثال هؤلاء.
روى الإمام مسلم في "صحيحه" عن مجاهد عن جبر، قال: جاء بشير العدوي إلى ابن عباس، فجعل يحدث، ويقول: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه، ولا ينظر إليه، فقال: يا ابن عباس مالي لا أراك لا تسمع لحديثي؟ أحدثك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولا

([1]) جامع بيان العلم، ابن عبد البر 93/1.

([2]) معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري، ص5..

([3]) جامع الترمذي (2657) في العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع.

([4]) صحيح البخاري (6179) في الأدب، باب من سمّى بأسماء الأنبياء.

([5]) منهج النقد في علوم الحديث، د. نور الدين عتر ص52.

([6]) صحيح مسلم (5) (المقدمة)، سنن أبي داود (4992) في الأدب، في التشديد في الكذب، المستدرك على الصحيحين 112/1.

([7]) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي 6/1.

([8]) تذكرة الحفاظ للذهبي 10/1.

تسمع! فقال ابن عباس: "إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا بما نعرف[1].

وقد عد الحافظ ابن حبان[2] عمر وعلياً أول من فتشا عن الرجال وبحثا عن النقل في الأخبار.

وهكذا لم ينته عصر الصحابة حتى استقر طلب السند، وخصوصاً بعد ظهور الفتن السياسية التي بدأت بمقتل الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان- رضي الله عنه-.

عن ابن سيرين قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا رجالكم، فيُنْظَرُ إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم[3].

خ - **نقد الروايات:** لقد شاع نقد المتون عند الصحابة- رضوان الله عليهم - وذلك بعرض الروايات والنصوص على أصول الشرع وقواعد الدين، فأخذوا بما وافق القرآن الكريم، والسنة الثابتة دون غيره، روي أن عمر - رضي الله عنه - رد حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها حيث طلقت زوجها ثلاثاً فلم يجعل لها رسول الله صلى الله عليه وسلم سكنى ولا نفقة، فجاءت عمر فقال: لا نترك كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت، لها السكنى والنفقة[4]، قال الله تعالى: {لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة} [الطلاق:1].
وقد فعل عمر ذلك للاحتياط في ضبط الحديث لا لتهمة أو سوء ظن. وروى الإمام مسلم عن عروة بن الزبير، قال: ذكر عند عائشة أن ابن عمر يرفع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم: "إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه"، فقالت: وهِلَ[5] ابن عمر وإنما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : "إنه ليعذب بخطيئته أو بذنبه، وإن أهله ليبكون عليه"، وذاك مثل قوله: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قام على القليب وفيه قتلى من المشركين، فقال لهم ما قال: "إنهم يسمعون ما أقول" وقد وهل، إنما قال: "إنهم ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق"، ثم قرأت: {إنك لا تسمع الموتى} [النمل:80]، {وما أنت بمسمع من في القبور}.[فاطر: 22] [6]. وكما تلاحظ فإن الحوار بين عائشة وابن عمر، - رضي الله عنهم - ، لم يتناول موضوع ثبوت الحديث أو عدم ثبوته، بل تناول عبارة الحديث، وعرض هذه العبارة على كتاب الله وسنة النبي - صلى الله عليه وسلم - وأن هذا النوع من البحث يعتبر من أعمق علوم الحديث، إذ يتناول نقد المتن.
وأن جمهور المحدثين يرون صحة ما روى عمر وابنه - رضي الله عنهما- وقد ترجم الإمام البخاري (أي عنون لأحد أبواب كتابه) بقوله: (باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم- : "يعذب الميت ببكاء المسبب للعذاب على ما إذا كان من عادة الميت قبل موته أن يسمع النواح من أهله، فلا يمنعهم، ولا ينهاهم ويرضى بذلك منهم أو إذا أوصى بالبكاء عليه بعد موته.

([1]) صحيح الإمام مسلم، المقدمة، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء والاحتياط في نحملها، حديث رقم (7) ج1، ص13، والصّعب: الجمل الذي لم يُركب.

([2]) المجروحون، ابن حبان، ج1 ص36.

([3]) صحيح مسلم (5) (المقدمة) باب بيان أن الإسناد من الدين.

([4]) اخرجه البخاري (5321) في الطلاق: باب قصة فاطمة بنت قيس، وأخرجه مسلم (1480) (44) في الطلاق: باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها.

([5]) أي: غلط ونسي.

([6]) صحيح مسلم 641/2، كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه، حديث رقم 022) (929).

وما أكثر ما أنكرته عائشة - رضي الله عنها- على الصحابة حتى جمع في ذلك الإمام الزركشي (تـ794) كتاباً سمّاه "الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة".فالغيرة على الدين والحرص على السنة أديا إلى نشأة علم النقد وظهوره في زمن الصحابة.

أهم المصنفات في علم مصطلح الحديث:

1- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي: ألفه الرامهرمزي (تـ360هـ) وهو أشمل الكتب في علوم الحديث حتى عصر المؤلف لكنه لم يستوعب أبحاث المصطلح كلها .
2- معرفة علوم الحديث، لأبي عبد الله بن البيّع النيسابوري المعروف بالحاكم (تـ405).
3- الكفاية في علم الرواية، لأبي بكر الخطيب البغدادي (تـ463هـ)
4- الإلماع في آداب الرواية وتقييد السماع للقاضي عياض (ت544-هـ).
5- ما لا يسَع المحدث جهلُهُ لأبي حفص الميانجي (تـ580هـ) .
6- "علوم الحديث" لأبي عمرو عثمان بن الصلاح عبد الرحمن الشهرزوري (تـ643هـ) وهو كتابٌ مدرسيٌّ ألفه ابن الصلاح لطلابه، وجمع فيه فنون الحديث، وقد اعتنى بكتاب ابن الصلاح كثير من العلماء المحدثين.
7 - "نخبة الفكر في مصطلح الأثر" لابن حجر العسقلاني، وقد شرحها اللّقّاني (ت1014) سماها "قضاء الوطر".

أشهر كتب مصطلح الحديث المعاصرة:

أخرجت المطابع كثيراً من المؤلفات المبتكرة النافعة نذكر منها:

"الباعث الحثيث شرح مختصر علوم الحديث" لأحمد محمد شاكر (ت1958م).

"قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث" لمحمد جمال الدين القاسمي.

"الحديث والمحدثون" للدكتور محمد محمد أبو زهو.

"المنهج الحديث في علوم الحديث" للدكتور محمد محمد السماحي.

"دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه" لمحمد مصطفى الأعظمي.

" الوسيط في علوم مصطلح الحديث" لمحمد أبو شهبة.

"التمهيد في علوم الحديث" د. همام سعيد.

"محاضرات في علوم الحديث" د.محمد مختار ضرار المفتي.

وهكذا توالت سلسلة الجهود العلمية متواترة متضافرة لحمل الحديث النبوي وتبليغه علماً وعملاً فناً ودراية وشرحاً منذ عهده -صلى الله عليه وسلم - إلى عصرنا الحاضر وصدق الله العظيم: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [الحجر:9]

الوحدة الثامنة

أقسام الحديث النبوي الشريف

أولاً: أقسام الحديث من حيث القبول والرد:

يقسم الحديث النبوي من حيث القبول والرد إلى قسمين رئيسين وهما:

- الحديث المقبول:ويشمل الحديث الصحيح، والحديث الحسن بنوعيهما.
- الحديث المردود: ويشمل الحديث الضعيف بجميع درجات ضعفه.

وفيما يلي التفصيل:

أولاً الحديث الصحيح":

تعريفه ما اتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن مثله من بداية السند إلى منتهاه، من غير شذوذ ولا علة[1].

اشتمل التعريف على شروط الحديث الصحيح الخمسة وهي:

1- اتصال السند: وهو أن يكون كل راو سمع الحديث ممن روى عنه.

فإذا لم يتحقق ذلك كان السند منقطعاً ولم يصحَّ الحديث.

([1]) انظر هذا الفصل في كتاب محاضرات في علوم الحديث للدكتور محمد مختار المفتي ، ص124، وانظر: النخبة وشرحها ص 45.

2- عدالة الرواة: والعدل هو: الموصوف بالعدالة، التي هي جماع صفات تحمل صاحبها على ملازمة التقوى والورع.

وهذه الصفات هي: الإسلام، والعقل، والبلوغ، والسلامة من أسباب الفسق وخوارم المروءة.

3-ضبط الرواة: فالتقوى والورع لا يغنيان عن الحفظ والضبط والإتقان فقد يكون الراوي صالحاً في دينه غير مقبول في روايته.

والضبط هو: تيقظ الراوي من وقت التحمل إلى وقت الأداء، ضابطاً إن حدث من صدره، ضابطاً إن حدث من كتابه[1].

4- **سلامة الحديث من الشذوذ**، ولا يحكم للحديث بالصحة إلا إذا سلم من الشذوذ، والشذوذ: مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه[2]، فقد تتوافر جميع الصفات الثلاثة السابقة في رواة الحديث، ثم يتبين لنا أن أحد الثقات خالف من هو أضبط منه وأتقن، والصواب مع الآخر، وليس معه، فعندئذ يقال: هذا الحديث شاذ، والشاذ من أنواع الحديث الضعيف.

5- **سلامة الحديث من العلة**: والعلة: سبب غامض خفي يقدح في صحة الحديث[3]، كأن يكون الراوي روى الحديث بالمعنى، فغيره بمعنى آخر غير مقصود، أو وهم في سماع اللفظ، فأبدله بلفظ آخر.

وعلم العلل: نوع من النقد الموضوعي العميق الذي يحتاج إلى معرفة واسعة فالحديث قد يستوفي جميع العناصر الشكلية للصحة، فيتوهم الناظر إليه أنه صحيح ولكنه –إذا عرضه على المختص الخبير- يرده ولا يقبله لوجود علة فيه.

وأنواع العلل كثيرة، فإذا ظهرت العلة في الحديث، فإن الشروط السابقة لا تنفع مع هذه العلة.وإذا اختل شرط واحد من هذه الشروط الخمسة المذكورة فلا يسمى الحديث حينئذ صحيحاً.

*** أصح الأسانيد:**

من العلماء من رأى أن بعض الأسانيد الصحيحة أعلى مرتبة من غيرها، فأطلقوا عليها (أصح الأسانيد).

والراجح أنه لا يجزم في إسناد أنه أصح الأسانيد مطلقاً من غير قيد بل يقيد بصحابي أو بلد مخصوص، فيقال مثلاً: "أصح أسانيد أبي بكر" و"أصح أسانيد المدينة"... الخ.

ومما قالوه في أصح الأسانيد:

أ- ما رواه ابن شهاب الزهري عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن ابن عمر.

([1]) علوم الحديث، ابن الصلاح، ص 94.

([2]) تدريب الراوي، السيوطي، ج1، ص 295.

([3]) علوم الحديث، ابن الصلاح، ص 81.

ب- ما رواه مالك بن أنس عن نافع مولى ابن عمر، عن ابن عمر، ويسمى هذا الإسناد "سلسلة الذهب".

ت- ما رواه سليمان الأعمش عن إبراهيم النخعي، عن علقمة بن قيس، عن عبد الله بن مسعود.

- حكم الحديث الصحيح: وجوب العمل به، فهو حجة من حجج الشرع.
- **معنى قولهم: "صحيح الإسناد":**

بعض العلماء يعدلون عن قولهم: "حديث صحيح" إلى القول: "حديث صحيح الإسناد" خشية أن يكون المتن شاذاً أو معللاً، فيصحح السند دون المتن، وفي هذه الحالة لا تستلزم صحة الإسناد صحة المتن.

معنى قولهم: "أصح شيء في الباب":

يقول المحدثون: "أصح شيء في الباب" أو "أصح ما في الباب كذا وكذا"، ولا يلزم من هذه العبارة صحة الحديث، فقد يكون الحديث ضعيفاً وليس في الباب سواه.**ومرادهم:** أرجح ما في الباب، أو أقله ضعفا[1].

- **مصادر الحديث الصحيح:**

الموطأ، صحيح البخاري، صحيح مسلم، السنن الأربعة، "مسند الإمام أحمد" وغيرها....

- **أول ما صُنِّفَ في الصحيح المجرّد**

أول ما صنف في الصحيح المجرد "صحيح البخاري" ثم "صحيح مسلم" وهما أصح الكتب بعد القرآن الكريم. وقد أجمعت الأمة على تلقي كتابيهما بالقبول.

أقسام الصحيح:

نظراً لتفاوت الرواة في ضبطهم وإتقانهم، فإن تفاوتهم هذا يجعل رواياتهم متفاوتة كذلك، **والراوي قد يكون ضبطه قوياً** وإتقانه متمكناً مما يجعله قادراً على الاستقلال بروايته، فيُعتمد على روايته حتى ولو انفرد فيها(وهذا راوي الحديث الصحيح لذاته)، **وقد يكون ضبط الراوي خفَّ فكان في درجة لا تؤهله** أن يكون في قسم الصحيح المستقل بنفسه الذي يعتمد على روايته، وإنما يحتاج إلى عاضد يقويه وهو راو آخر يتابعه على رواية الحديث نفسه، فيكون الوثوق بالراويتين معاً لا بإحداهما منفردة، وهذه صحة اكتسبها الراوي من عامل خارجي-راو آخر- لا من ذاته، (ويكون الحديث صحيحاً لغيره). وعلى ذلك فإن الصحيح قسمان:

1. الصحيح لذاته.
2. والصحيح لغيره، وهو الحسن لذاته إذا وجدت له رواية أخرى مثله أو أقوى منه، فارتقى إلى الصحيح لغيره.

وسمي صحيحاً لغيره، لأن الصحة لم تأت من ذات السند بل جاءت من انضمام غيره له. [2]

ثانياً:الحديث الحسن

هو: ما اتصل إسناده بنقل العدل الذي **خف ضبطه** عن مثله أو من هو أقوى منه، من غير شذوذ ولا علة.

وعلى هذا فإن الحسن هو ما توافرت فيه شروط الحديث الصحيح جميعها، إلا أن رواته كلهم أو بعضهم أقل ضبطاً من رواة الصحيح.

([1]) تدريب الراوي للنووي 1/ 213.

([2]) التمهيد في علوم الحديث، د. همام سعيد ص 97.

والفرق بين الحديث الصحيح والحديث الحسن أنَّ راوي الحديث الصحيح تام الضبط، أما الحسن فأقل ضبطاً، ويبقى الحسن في دائرة الضبط الغالب، لا في دائرة الخطأ الغالب.

أنواع الحسن:

الحسن نوعان: الحسن لذاته، والحسن لغيره.

أ- أما الحسن لذاته فهو: الحديث الذي يوصف راويه بأنه عدل في دينه ولكنّ ضبطه أخفّ من ضبط رجال الصحيح[1].

ب- وأما الحسن لغيره، فهو: الحديث الضعيف إذا تعددت طرقه، ولم يكن سبب ضعفه فسق الراوي وكذبه[2]، ويستفاد من هذا التعريف، أن الضعيف يرتقي إلى درجة الحسن لغيره بأمرين هما:

1- أن يُروى الحديث من طريق آخر فأكثر، على أن يكون الطريق الآخر مثله أو أقوى منه.

2- أن يكون سبب ضعف الحديث سوءَ حفظ راويه أو انقطاعاً في سنده، أو جهالة في رجاله.

وسمي هذا النوع حسناً لغيره لأنه يكتسب الحُسْن ليس من ذاته، ولكن من روايات أخرى للحديث قوّتْه وأيّدْه.

حكم الحديث الحسن:

يُحتجُّ بالحديث الحسن بنوعيه، ويُعمل به، وتَثبتُ به الأحكام، وكثيرٌ من الأحاديث الحِسان يحتج بها الفقهاء في الحلال والحرام، فيحتج بها كما يُحتج بالحديث الصحيح وإن كان الحسن دون الصحيح في القوة.

وقد أدرج بعضُ الأئمة المصنفين الحديثَ الحسن في الحديث الصحيح، كالحاكم وابن حبان وابن خزيمة. فالحديث عندهم قسمان: صحيحٌ ويَدخلُ فيه الحسن، وضعيفٌ.

مصادر الحديث الحسن:

لم يصنف العلماء في الحسن المجرد كما صنفوا في الصحيح المجرد، ولكن إذا ذكر الحديث الحسن ذكرت معه كتب السنن الأربعة، ومسند الإمام أحمد وسنن الدارمي ، وإن كان فيها الصحيح والحسن وبعض الضعيف.

ثالثاً: الحديث الضعيف

تعريفه: هو الحديث الذي فقد شرطاً أو أكثر من شروط الحديث الحسن[3].

ويأتي الضعيف في المرتبة الثالثة، وهي مرتبة عدم القبول والاحتجاج، لأن الحديث يكون قد فقد شرطاً أو أكثر من شروط القبول.

أسباب الضعف[1]:

([1]) قواعد التحديث للقاسمي ص 102.

([2]) تدريب الراوي، ص 1/ 198.

([3]) توضيح الأفكار للصنعاني 481/1

1. قد يختل في الحديث شرط الاتصال فيوصف بالانقطاع.
2. وقد يختل شرط العدالة في الراوي، فيوصف بالفسق أو البدعة أو الكذب.
3. وقد يختل شرط الضبط اختلالاً كبيراً، بأن يكون الراوي فاحش الخطأ أو شديد الغفلة.
4. وقد تظهر علة في الحديث يتبين بها أن الحديث لا أصل له.
5. أو يتبين أن الحديث شاذٌّ خالف راويه مَنْ هو أقوى منه.

في كل هذه الأحوال يكون الحديث ضعيفاً، لأنه فقد شرطاً من شروط الحسن، ولم نقل: من شروط الصحيح؛ لأن الفاقد لشرط الحسن فاقد لشرط الصحيح من باب أولى.

- **ضعف الإسناد لا يقتضي ضعف المتن:**

لا يلزم من ضعف السند ضعف المتن، كما أنه لا يلزم من صحة السند صحة المتن، فقد يضعف السند ويصح المتن لوروده من طريق آخر، كما أنه قد يصح السند ولا يصح المتن لشذوذ أو علة.

فإذا وجدت حديثاً بإسناد ضعيف فلك أن تقول: "ضعيف بهذا الإسناد"، وليس لك أن تقول: هذا ضعيف[2]، إلا إذا ثبت أنّ الراوي الضعيف تفرّد به.

وهذا فيه دلالة على دقة نظر المحدثين في تطبيق أصول النقد الحديثي.

- **حكم رواية الحديث الضعيف:**

تجوز رواية الحديث الضعيف مع بيان ضعفه أو نسبته إلى الكتاب الذي رواه، ولا يجوز إطلاق روايته من غير بيان.

ويفضل علماء الحديث، لمن يروي حديثاً ضعيفاً بغير إسناده، أن لا يرويه بصيغة الجزم، فلا يقول فيه: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كذا وكذا، بل يرويه بصيغة تدل على الشك في صحته مثل: "رُوِيَ"، أو "نُقِل" لئلا تجزم بنسبة ذلك الحديث للرسول صلى الله عليه وسلم وأنت تعرف ضعفه[3].

***حكم العمل بالحديث الضعيف:**

اختلف العلماء في العمل بالحديث الضعيف، والذي عليه جمهور العلماء أنه يستحب العمل به في فضائل الأعمال، مثل: البر وصلة الرحم والجار، ومكارم الأخلاق، دون الأحكام الشرعية مما يتصل بالحلال والحرام، وما يتصل بالعقائد كصفات الله[4].

وذهب ابن حجر إلى تقييد العمل بالحديث الضعيف بالشروط الآتية[5]:

أ- أن يكون الضعف غير شديد، فتخرج رواية الكذابين والمتهمين بالكذب، وفاحشي الخطأ.
ب- أن يشهد للحديث الضعيف أصلٌ عامٌّ من أصول الشريعة، كبر الوالدين أو صلة الجار.

([1]) نفس المرجع، الموضع نفسه.

([2]) علوم الحديث لابن الصلاح، ص92

([3]) علوم الحديث لابن الصلاح، ص94، والكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي، ص133.

([4]) قواعد التحديث، جمال الدين القاسمي ص113

([5]) تدريب الراوي للسيوطي 298/1-299، الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة، لعبدالحي اللكنوي، ص43-44.

ج- ألا يعتقد عند روايته ثبوتَه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ، بل يعتقد الاحتياط، حتى لا ينسب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ما لم يقله.

- **أقسام الضعيف:**

قسم العلماء الخبر المردود إلى أقسام كثيرة، وأطلقوا على كثير من تلك الأقسام أسماءً خاصة بها.

وأقسام الضعيف يعود إلى أحد سببين:

أ- ما كان ضعفه بسبب عدم اتصال السند.

ب- ما كان ضعفه لسبب غير انقطاع سنده، مثل طعن في الراوي وأسباب أخرى.

القسم الأول: الأحاديث الضعيفة بسبب عدم اتصال سندها هي: الحديث المرسل، والمعلق، والمنقطع، والمعضل.

- فأما المرسل:

فالإرسال لغة: معناه الإطلاق، وعدم المنع[1].

- تعريفه اصطلاحاً: هو قول التابعي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

والتابعي هو: من أدرك الصحابة ولم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم[3].

ومن التابعين: سعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي والحسن البصري وعامر الشعبي ومحمد بن شهاب الزهري، ومكحول الشامي، وغيرهم.

وهؤلاء التابعون لم يأخذوا الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مباشرة، بل أخذوه عن الصحابة حدثوهم به عن النبي - صلى الله عليه وسلم - . والإرسال أن لا يذكر التابعي مَنْ حدثه بالحديث

وقد يكون التابعي سمع هذا الحديث من صحابي ثم لم يذكره في السند، وقد يكون سمعه من تابعي سمعه من صحابي، فيكون المفقود حلقتين.

وفي كلتا الحالتين فإن السند منقطع بين التابعي وبين النبي -صلى الله عليه وسلم-.

مثال: أخرج أبو داود في "كتاب المراسيل" عن الحسن، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "إذا صلى أحدكم للقوم فليقدر الصلاة بأضعفهم، فإن وراءه الكبير والضعيف وذا الحاجة والمريض والبعيد".

إن راوي الحديث هو الحسن بن يسار البصري (ت 110هـ)، أحد كبار التابعين، ولم يلق النبي - صلى الله عليه وسلم -فقد ولد بعد وفاته - صلى الله عليه وسلم -، وروى عن كثير من الصحابة.ولوجود الانقطاع بينه وبين النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فإن الحديث يكون مرسلاً.

([1]) لسان العرب مادة (رسل).

([2]) تدريب الراوي 241/1.

([3]) المراسيل، أبو داود ص91

- **حكم المرسل:**

المرسل –في الأصل- ضعيف[1]، لفقده شرطاً من شروط الصحة وهو: اتصال السند. وهذا الانقطاع يعني جهالة حلقة من حلقات الإسناد أو أكثر، والجهالة تجعل الراوي فاقداً لصفتي: الضبط والعدالة؛ لأن ثبوتهما شرط في الصحة، لكن العلماء اختلفوا في حكم المرسل والاحتجاج به؛ ومجمل أقوال العلماء في المرسل من حيث الاحتجاج به ثلاثة أقوال، هي:

1- ذهب جمهور المحدثين إلى أن المرسل لم يتحقق فيه شرط الاتصال الذي هو أحد شروط الصحة، وبناء عليه فالمرسل ضعيف؛ لأن الانقطاع يؤدي إلى جهالة حلقة من حلقات السند أو أكثر، والجهالة تجعل الراوي فاقداً لصفتي الضبط والعدالة[2].

2- ذهب الإمامان أبو حنيفة النعمان (ت 150هـ)، ومالك بن أنس (تـ 179هـ)، إلى الاحتجاج بالمرسل إذا جاء من التابعي الثقة[3].

3- ذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي إلى أن المرسل في نفسه ضعيف، لكنه يتقوى بقرينة من القرائن، فإذا كان المرسل من **كبار التابعين** المشهود لهم بالفضل كسعيد بن المسيب (تـ 94هـ)، وانضمت إلى روايته احدى القرائن التالية، فإن المرسل ينهض إلى رتبة الاحتجاج، وهي :

أ- أن **يشهد للمرسل** حديث آخر، متصلاً كان أو مرسلاً.

ب- أو أن يكون من عادة المرسل إذا سمى الحلقة المفقودة لا يسمي إلا ثقة، حتى أصبح من عادته أنه لا يرسل إلا عن ثقة.

ج- أو أن يشهد لهذا المرسل قول أحد الصحابة، وهو الموقوف.

د- أو أن يشهد له فتوى أهل العلم من التابعين، وهو المقطوع[4].

إن مذهب الإمام الشافعي هو أعدل هذه المذاهب لأنه لا يقبل المرسل مطلقاً، ولا يرده مطلقاً، وهو يتعامل مع المرسل كما هو الحال في الحديث الضعيف المحتمل الذي يقوى بالمتابعات، وقد فتح الإمام الشافعي بمذهبه هذا فتحاً عظيماً في علم الحديث بجبر الحديث الضعيف وتقويته.

- **مرسل الصحابي:**

قد يروي الصحابي حديثاً عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ويكون احتمال الإرسال قائماً؛ لأن الصحابي يروي حادثة لم يدركها، بسبب تأخر إسلامه عنها، أو بسبب صغره الذي لا يؤهله للرواية عند وقوع الحادثة[5]. ومثال ذلك حديث بدء الوحي الذي روته عائشة، -رضي الله عنها -، وهي لم تكن قد ولدت عنه بدء الوحي، فقد تكون سمعته من النبي - صلى الله عليه وسلم- ، الذي أخبرها به بعد وقوعه بمدة

([1]) تدريب الراوي، السيوطي 245/1.

([2]) المصدر السابق، الموضع نفسه.

([3]) تدريب الراوي 245/1، علوم الحديث ابن الصلاح، ص50، توضيح الأفكار الصنعاني، 289/1، مقدمة صحيح مسلم 30/1.

([4]) الرسالة ص461، توضيح الأفكار 287/1، تدريب الراوي 247/1

([5]) تدريب الراوي 258/1.

طويلة، وقد تكون سمعته من صحابي آخر أدرك هذه الحادثة، وفي هذه الحال يكون الحديث مرسل صحابي لفقدان حلقة من حلقاته.

- **حكم مرسل الصحابي:** مرسل الصحابي صحيح محتج به؛ لأن جهالة الصحابي لا تضر، فالصحابة رضي الله عنهم عدول: معلومهم ومجهولهم[1].

2- المعلَّق: هو ما حذف من مبدأ إسناده راو فأكثر على التوالي[2].

– ومن صوره:

أ- أن يحذف جميع السند ثم يقال مثلاً: "قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ...." ومثاله : قول البخاري: وقال النبي -صلى الله صلى الله عليه وسلم - : "من صام رمضان"[3].

ب- أو يحذف كل الإسناد إلا الصحابي، أو إلا الصحابي والتابعي، مثاله: ما أخرجه البخاري في الصوم: وقالت عائشة - رضي الله عنها -، عن النبي -صلى الله عليه وسلم -: "يبعثون على نياتهم) [4] ، فهذا حديث معلق؛ لأن البخاري حذف جميع إسناده إلا الصحابي، وهي عائشة.

- **حكم المعلق:**

الحديث المعلق مردود[5]؛ لأنه فقد شرطاً من شروط القبول، وهو: اتصال السند وذلك بحذف راو أو أكثر من إسناده، مع عدم علمنا بحال ذلك المحذوف.

3-المنقطع:

- تعريفه: يطلق المنقطع على كل حديث لم يتصل إسناده على أي وجه كان انقطاعه[6]، لكن علماء المصطلح المتأخرين خصّوا المنقطع بـ"الحديث الذي سقط من أثناء سنده راو أو أكثر لا على التوالي".

ومثاله: أن زرارة بن أوفى روى عن تميم الداري -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: "إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها"[7].

وقال الإمام أحمد: ما أحسب لقي زرارة تميماً، تميم كان بالشام وزارة بصري[1].

([1]) توضيح الأفكار 317/1، تدريب الراوي 259/1.

([2]) نزهة النظر شرح نخبة الفكر، لابن حجر، العسقلاني ص42، فتح المغيث، للسخاوي 31/1، توضيح الأفكار 122/1، تدريب الراوي 144/1.

([3]) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري 112/4، باب هل يقال: رمضان أو شهر رمضان، من رأى كله واسعاً، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: من صام رمضان، قال الحافظ ابن حجر: وهذا الحديث المعلق وصله البخاري في الباب الذي بعده، انظر هدي الساري مقدمة فتح الباري، شرح صحيح البخاري ص39.

([4]) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري 115/4، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية، وقالت عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم، يبعثون على نياتهم.

قال ابن حجر: وهذا طرف من حديث وصله الإمام البخاري في أوائل البيوع في باب ما ذكر في الأسواق، حديث (2118).

([5]) تيسير مصطلح الحديث، د. محمود الطحان ص39.

([6]) تدريب الراوي 260/1.

([7]) البخاري (2528) في العتق (5269) وفي النكاح (6664) في الإيمان من طريق قتادة عن زرارة بن أوفى عن أبي هريرة.

***حكم المنقطع:**

المنقطع ضعيف لا يصلح للاحتجاج[2]، لأن فقد حلقة من السند يؤدي إلى جهالة هذا الراوي في العدالة والضبط.

1- **المعضل:** تعريفه: المعضل لغة مأخوذ من "أعضله" أي: أعياه[3].
وفي اصطلاح المحدثين هو: الحديث الذي سقط من إسناده اثنان فأكثر على التوالي في موضع واحد، سواء أول السند ، أو أوسطه ، أو منتهاه[4].

وسمي بذلك لأن الحديث –بسقوط واحد- يصير مردوداً، فإذا سقط منه اثنان أو أكثر كان أمره أشد، فكأن المحدث بهذا الإسقاط أعضله، أي أعياه.

- **حكم المعضل[5]:**

المعضل ضعيف، حتى تسمى حلقاته المفقودة، ويستوفي شروط الصحة، وهو أشد ضعفاً من المرسل، لأن المرسل سقط منه راو واحد، والمعضل زاد ضعفه بسقوط راويين منه على التوالي، فازداد جهالة على جهالة.

أ- وقد يجتمع المعضل مع المعلق في صورة واحدة وهي: إذا حذف من مبدأ إسناده راويان متواليان، فهو –عندئذ- معضل ومعلق في آن.

القسم الثاني من أنواع الضعيف:

وهو ما كان ضعفه لسببٍ غيرِ انقطاع سنده، ويندرج تحت هذا القسم أربعة أنواع: المقلوب، والشاذ، والمنكر، والمتروك.

1- المقلوب:

تعريفه:

لغة: صرف الشيء عن وجهه[6].

اصطلاحاً: إبدال لفظ بآخر في سند الحديث أو متنه، بتقديم أو تأخير ونحوه[7].

- أقسامه:

يقسم المقلوب إلى قسمين رئيسين، هما:

([1]) جامع التحصيل في أحكام المراسيل، للعلائي، ترجمة رقم 196، ص 176.

([2]) جامع التحصيل في أحكام المراسيل، للعلائي ص96.

([3]) لسان العرب: مادة : عضل.

([4]) تدريب الراوي 264/1.

([5]) موطأ مالك 34/1، حديث رقم 36، كتاب الطهارة، باب جامع الوضوء.

([6]) لسان العرب مادة (قلب).

([7]) مقدمة ابن الصلاح ص38–39.

أ- مقلوب المتن، وهو: ما وقع الإبدال في متنه، ومثاله: ما رواه الإمام أحمد من حديث ابن عمر، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم"[1].

فقلب الحديث على هذه الصورة:إن ابن أم مكتوم يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن بلال[2].

ب- مقلوب السند، وهو: ما وقع الإبدال في سنده، ومثاله: أن يقال: كعب بن مرة بدل مرة بن كعب[3].

- **حكم المقلوب:**

ضعيف لأنه ناشئ عن اختلال ضبط الراوي للحديث، حتى أحاله عن وجهه.

والقلب إذا أدى بالحديث إلى اختلاف بين الروايتين دون معرفة الراجح منهما فإنه يحكم على الحديث بالضعيف.

وإذا كان القلب في سند الحديث، والتبس الأمر بين ثقة وضعيف، فإنه يحكم على السند بالضعف أيضاً. وإذا دار القلب بين ثقتين فلا يقدح في الحديث.

2- الشاذ:

- تعريفه: لغة: المنفرد عن الجماعة[4].

اصطلاحاً: مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه في حديث يرويانه عن شيخ لهما[5].

فإذا روى اثنان من الرواة حديثاً عن شيخ لهما، ثم اختلفا في السند أو في المتن، وأمكن ترجيح أحدهما، لأنه أحفظ أو أوثق من الثاني، فإن الرواية المرجوحة يحكم عليها بالشذوذ، ويسمى الحديث – من تلك الراوية- حديثاً شاذاً.

والرواية الراجحة تسمى "الحديث المحفوظ".

فالمحفوظ هو: ما رواه الأوثق مخالفاً لرواية الثقة[6].

- **حكم الشاذ:**

الحديث الشاذ مردود[7] لا يقبل وإن كان إسناده صحيحاً، لأن راويه –وإن كان ثقة- لما خالف من هو أقوى منه علمنا أنه لم يضبط هذا الحديث، فيكون مردوداً.

([1]) صحيح البخاري (620) كتاب الأذان، باب الأذان بعد الفجر.

([2]) قال ابن حجر في فتح الباري 102/2: وادعى ابن عبدالبر وجماعة من الأئمة بأن الحديث مقلوب، أي إن ابن حجر يميل إلى ضعف رواية القلب، انظر تدريب الراوي للسيوطي، 369/1.

([3]) ذكره ابن حجر في شرح النخبة ص91-92.

([4]) لسان العرب مادة (شذّ).

([5]) توضيح الأفكار 377/1، تدريب الراوي 295/1.

([6]) شرح نخبة الفكر ص13، تدريب الراوي 294/1.

([7]) تدريب الراوي 295/1.

3- المنكر:

- تعريفه: لغة: ضد الإقرار[1].

اصطلاحاً: هو: مخالفة الضعيف للثقة في حديث يرويانه عن شيخ لهما[2]، فإذا روى اثنان من الرواة حديثاً عن شيخ لهما، ثم اختلفا في السند أو المتن، وأمكن الترجيح بينهما، بأن أحدهما ثقة والآخر ضعيف، فإننا نرد رواية الضعيف وتوصف عندئذ بأنها منكرة. فالمنكر –إذن- ما خالف فيه الضعيفُ الثقةَ أو المقبولَ[3].

- **حكم المنكر.**

المنكر ضعيف جداً؛ لأن راويه ضعيف، وازداد بالمخالفة ضعفاً.

4- المتروك

- تعريفه: هو الحديث الذي في إسناده راو متهم بالكذب[4]، فإذا ظهر كذبه: في قوله أو فعله، سمي حديثه "المتروك".

وهذا النوع يسمى متروكاً ولم يسم موضوعاً؛ لأن مجرد الاتهام بالكذب لا يسوغ الحكم بالوضع.

- أسباب اتهام الراوي بالكذب:

1- ألا يروى ذلك الحديث إلا من جهته، ويكون مخالفاً للقواعد العامة.

2- أن يعرف بالكذب في كلامه عامة، لكن لم يظهر منه الكذب في الحديث النبوي.

مثاله: حديث عمرو بن شمر عن جابر الجعفي، عن أبي الطفيل، عن علي وعمار قالا: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يقنت في الفجر، ويكبر يوم عرفة، من صلاة الغداة، ويقطع صلاة العصر آخر أيام التشريق"[5].

قال النسائي والدارقطني وغيرهما: عن عمرو بن شمر "متروك الحديث"[6].

- **حكم المتروك.**

المتروك هو أنزل مراتب الضعيف.

الموضـوع

- **أسباب الوضع.**
- **كيف يعرف الموضوع.**

([1]) لسان العرب مادة (نكر).

([2]) شرح نخبة الفكر، ص14، تدريب الراوي 300/1.

([3]) المقبول ما يشمل راوي الصحيح وراوي الحسن.

([4]) شرح نخبة الفكر ص86.

([5]) شرح نخبة الفكر ص 84، معرفة علوم الحديث للحاكم ص56.

([6]) المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين لابن حبان 75/2.

- **حكم الوضع.**
- **جهود العلماء في مقاومة الوضع.**
- **أشهر المصنفات في الموضوع.**

تعريفه:

لغة: من وضع الشيء يضعه، إذا حطه وأسقطه[1] .

اصطلاحاً: الكذب المختلق المصنوع[2]، المنسوب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

انتشر هذا الخلق السيء في أقوام أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام، وكادوا لهذا الدين وأرادوا به سوءاً فوجدوا القرآن الكريم منقولاً بالتواتر، محفوظاً في الصدور والسطور، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقصدوا بكيدهم السنة النبوية، ليدخلوا إليها ما ليس منها، ظانين أن بمقدورهم أن يفسدوا على المسلمين هذا المصدر العظيم، الذي يعتمد عليه في بيان القرآن الكريم ومعرفة الأحكام من الحلال والحرام، فصاروا يختلقون الأحاديث لتأييد أغراضهم الخبيثة[3].

أسباب الوضع:

إذا تتبعنا سير الكذابين، الذين وضعوا الحديث، نجد أغراضهم الخبيثة لا تخرج عن واحد من الأغراض الآتية:

أولاً : الكيد للإسلام والتشكيك به:

مثال ذلك كلمة أضافها أحد الكذابين على حديث صحيح، فقال: أنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي إلا أن يشاء الله) [4]، والحديث الصحيح: (أنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي) [5].

قال ابن الجوزي في كتابه (الموضوعات الكبرى) [6]: (هذا الاستثناء موضوع، وضعه محمد بن سعيد لما كان يدعو إليه من الإلحاد، شهد عليه بأنه وضعه جماعة من الأئمة منهم أبو عبدالله الحاكم.

وهذا الرجل الواضع هو: أبو عبدالرحمن محمد بن سعيد بن أبي قيس، وقد صُلب في عهد المنصور لزندقته ووضعه.

ثانياً: الانتصار لمذاهب الفرق الضالة:

([1]) لسان العر. (وضع).

([2]) تدريب الراوي 348/1.

([3]) التمهيد في علوم الحديث، د. همام سعيد، ص137.

([4]) الموضوعات لابن الجوزي 279/1، 377، اللالئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي 137/1، تذكرة الموضوعات للمقدسي ص88

([5]) صحيح مسلم (2286) (22)، الترمذي (2219).

([6]) 279/1.

عندما ظهرت الفرق المذهبية والسياسية ودخلت في الفتنة، حاول كل فريق أن ينتصر لمذهبه ورأيه بأحاديث تروج فكرة عقيدته، وادعت كل فرقة أن الحق إلى جانبها وأنها مؤيدة بأحاديث تذكر فضائلها، مثل "عليٌّ خير البشر، من شك فيه كفر"[1] و"الأمناء ثلاثة: أنا وجبريل ومعاوية"[2]!!

ثالثاً: الترغيب في فضائل الأعمال:

ظهر قوم من العبّاد والزهاد، حملهم جهلهم على وضع الأحاديث في فضائل الأعمال والسور، والنوافل، لترغيب الناس بها، كما وضعوا أحاديث للترهيب من المعاصي والذنوب، ظانين أنهم بذلك ينصرون الدين.

وقال بعضهم: نحن نكذب له لا عليه، يقصدون النبي صلى الله عليه وسلم وهذا استدلال في غاية السخف، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لا يحتاج شرعه إلى كذابين يروجونه.

رابعاً: تحقيق المنافع الشخصية:

كان بعضهم يلجأ إلى الوضع رغبة في التقرب إلى الحكام، ليناسب صنيعهم ما عليه الحكام من الانحراف بفتاوى ضالة والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يوافق أهواءهم.

وكان بعضهم يلجأ إلى الوضع رغبة في التكسب وطلب الرزق، كبعض القصاص الذين يتكسبون بالتحدث إلى الناس، فيوردون بعض القصص المسلية والعجيبة، حتى يستمع إليهم الناس ويعطوهم.

وبعضهم كان يلجأ إلى الوضع في فضائل بعض السلع والأطعمة، لتشجيع الناس على شرائها وترويجها، كقولهم: "لو يعلم الناس ما في الحلبة لاشتروها بوزنها ذهباً"[3].

كيف يعرف الموضوع:

تحقق العلماء من قوة الإدراك والتمييز لعبارات النبي - صلى الله عليه وسلم - وأحاديثه، بحيث جعلهم يكشفون كل زيف ودخيل على الحديث النبوي، وذلك لما عرفوا من منهج النبوة وأنوارها.

ومن أهم علامات الموضوع:

أ- تناقص النص مع القرآن الكريم وقواعد الدين: فالقرآن قطع في أمور أصبحت معلومة من الدين بالضرورة، كموعد قيام الساعة، فقد قرر القرآن الكريم خفاء الساعة على جميع الخلق، قال تعالى: {يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي} [الأعراف].
فإذا جاء حديث يذكر الساعة وتاريخها فهو كذب مناقض لصريح القرآن الكريم.

ب- تناقض النص مع السنة الصحيحة: إذ إن سنة النبي - صلى الله عليه وسلم -مدحت العدل وذمت الظلم، ونهت عن التمييز العنصري وكرمت العمل اليدوي.

([1]) الموضوعات لابن الجوزي 347/1.

([2]) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة 6/2.

([3]) نفس المصدر، 297/2.

فإذا جاء كلام يذم السود أو الحمر، أو يحط من شأن صاحب حرفة من الحرف، أو يأمر بظلم أو ينهى عن صلة رحم، فهذا من قبيل الموضوع، ومن ذلك مدح كل من اسمه أحمد أو محمد، وأن من تسمى بهذا الاسم فإنه لا يدخل النار! قال ابن القيم: وهذا مناقض لما هو معلوم من دينه -صلى الله عليه وسلم- أن النار لا يجار منها بالأسماء والألقاب، وإنما يجار منها بالإيمان والأعمال الصالحة[1].

جـ - مناقضة النص لبدهيات العقيدة: فقد أصبحت أركان الإيمان وكليات العقيدة معلومة من الدين بالضرورة، ومن ذلك: أسماء الله تعالى وصفاته، فالله تعالى منزه عن صفات البشر، فإذا قيل: "إذا غضب الله أنزل الوحي بالفارسية وإذا رضي أنزله بالعربية" فهذا لا يليق بجلال الله تعالى[2]!.

وكذلك جميع ما نسب إلى الأنبياء الكرام من نقائص تتعارض مع عصمتهم وتكريم الله لهم.

د- تكذيب الحسّ للنص الموضوع: فالحديث الصحيح ينسجم مع فطرة الإنسان، وتصدّقه التجربة الصحيحة، فإذا نسب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم -ما يناقض هذه الفطرة أو تكذبه التجربة فهو كذب، كقول الكاذب: "الباذنجان لما أكل له"[3] فقد أثبتت التجربة كذب هذا الادعاء، وأن الباذنجان لا يصلح لكل شيء من الأمراض والأسقام.

هـ- سماجة المعنى وسخافته: فإن حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - من جوامع الكلم، وهو فصلٌ ليس بالهزل، يفيض بالمعاني العظيمة والحكم البالغة.

فإذا جاء اللفظ ركيكاً والمعنى سخيفاً سمجاً فهو دليل على الوضع والكذب، ومن ذلك قول الكاذب: "لو كان الأرز رجلاً لكان حليماً، ما أكله جائع إلا أشبعه"!، قال ابن قيم الجوزية: فهذا من السمج البارد، الذي يصان عنه كلام العقلاء، فضلاً عن كلام سيد الأنبياء[4].

و- اشتمال الحديث على مبالغات لا يقول النبي - صلى الله عليه وسلم -مثلها: مثل ذكر الثواب العظيم على العمل اليسير والعذاب الشديد للذنب الصغير، وأمثال هذه المجازفات، كقوله: "من قال: لا إله إلا الله خلق الله من تلك الكلمة طائراً له سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة، يستغفرن الله له! .." قال ابن القيم: وأمثال هذه المجازفات الباردة لا تخلو حال واضعها من أحد أمرين: إما أن يكون في غاية الجهل والحمق، وإما أن يكون زنديقاً قصد التنقيص بالرسول صلى الله عليه وسلم بإضافة هذه الكلمات إليه[5].

ز- ركاكة المعنى: ويلحظ في الموضوعات –بشكل عام- ركة المعنى، حتى ليحكم أدنى الناس خبرة بالحديث الصحيح أن الحديث موضوع.

وأما ركاكة اللفظ فليست دائماً دليلاً على الوضع، لأن الحديث قد يروى بالمعنى، ويكون الراوي ركيك اللغة والألفاظ فيؤدي ذلك إلى ركة اللفظ، مع بقاء المعنى قوياً شريفاً.

([1])المنار المنيف في الصحيح والضعيف، ابن قيم الجوزية، ص75

([2]) الموضوعات لابن الجوزي 11/1.

([3]) تذكرة الموضوعات للمقدسي ص128، كشف الخفاء للعجلوني 249/1 (872).

([4]) المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن قيم الجوزية، ص54.

([5]) المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن قيم الجوزية، ص50.

ومثال ركاكة المعنى قولهم: "من صام يوماً كان كأجر ألف حاج وألف معتمر. وكان له ثواب أيوب"[1]!.

ح- أن يكون راوي الخبر مشهوراً بالوضع.

ط- اعتراف الكذاب على نفسه: فأقوى الأدلة على الوضع إقرار الكذاب على نفسه بوضع الحديث، كما فعل أبو عصمة، نوح بن مريم، اعترف بأنه وضع أحاديث في فضائل القرآن، سورة سورة، عن ابن عباس، وقد صح جملة من الأحاديث في فضائل سور من القرآن خاصة[2].

ي- أن يخالف النص الموضوع الحقائق التاريخية.

*** حكم الوضع:**

أجمع المسلمون على حرمة وضع الحديث مطلقاً، وحذر الرسول -صلى الله عليه وسلم -من الكذب عليه فقال: "من كذب عليّ معتمداً فليتبوأ مقعده من النار"[3]. وقال -صلى الله عليه وسلم- : "لا تكذبوا علي فإنه من كذب علي فلْيلجِ النار"[4].

- **حكم رواية الموضوع:**

أجمع العلماء على حرمة رواية الموضوعات من غير بيان وضعها وكذبها ويحرم رواية شيء منها، سواء أكان في القصص والترغيب والترهيب والأحكام أم لم يكن، لحديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- : "من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين"[5].

- **جهود العلماء في مقاومة الوضع:**

قيض الله عز وجل لهذه الأمة رجالاً أمناء مخلصين، قاوموا الوضاعين وتتبعوهم وبينوا الباطل من الصحيح، وبذلوا جهوداً عظيمة في سبيل حفظ الشريعة وأصولها، واتبعوا –من أجل ذلك- وسائل علمية دقيقة، نلخصها فيما يأتي:

1- طلب الإسناد لكل خبر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمعرفة رواة الحديث وتمييز الصادقين العدول من الكاذبين والمجروحين.
2- طلب الشهادة على الرواية، بأن يشهد مع الراوي آخر أن الحديث مروي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأحياناً كان يطلب اليمين من الراوي على أنه سمع الحديث من رسول الله- صلى الله عليه وسلم-.
3- التحذير من الكذابين وفضحهم والإعلان بكذبهم على رؤوس الخلائق، قال سفيان بن عيينة: كنا نتقي حديث داود بن الحصين[6].

([1]) الموضوعات لابن الجوزي 119/2.

([2]) انظر تفصيلهما في كتاب الإتقان للسيوطي 153/2.

([3]) صحيح البخاري (110) في العلم: باب إثم من كذب على النبي، صحيح مسلم (3) في المقدمة: باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

([4]) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم، 199/1، حديث رقم (106).

([5]) مقدمة صحيح مسلم 9/1 .

([6]) تهذيب التهذيب 157/3.

4- اختبار الحديث بعرضه على الروايات الأخرى والأحاديث الثابتة، فيتبين بذلك ما وقع فيه من علة أو وهم أو خطأ أو كذب.
5- مضاعفة النشاط العلمي والتثبت في الحديث بإشاعة الحديث الصحيح ومدارسته والرحلة في طلبه، حتى عُرف الصحيح من السقيم والصدق من الكذب.
6- وضع قواعد لمعرفة الموضوع، وذكروا ما يدل على الوضع في السند والمتن، وهو ما بيّناه تحت عنوان "كيف يعرف الموضوع؟".

- **أشهر المصنفات في الموضوعات:**

تكسرت سهام هذه الهجمة الشرسة على صخرة الحديث بما هيأ الله لهذه الأمة من العلماء المجاهدين، قيل لعبد الله بن المبارك: هذه الأحاديث الموضوعة؟! فقال: "يعيش لها الجهابذة"[1].

وحقاً، لقد رصد العلماءُ الكذابين، وجمعوا الأخبار الموضوعة، وصنفت الموضوعات على المسانيد أحياناً وعلى الأبواب أحياناً أخرى.

وقد ألفت طائفة كبيرة من كتب الموضوعات، وأشهر هذه الكتب ما يأتي:

1- "تذكرة الموضوعات" لأبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي (تـ 507هـ).
2- "الموضوعات الكبرى" لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (تـ 597هـ).
3- "اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة" للحافظ جلال الدين السيوطي.(911هـ)
4- "تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة" لعلي بن محمد الكناني (تـ 963هـ).
5- "المنار المنيف في الصحيح والضعيف"لابن قيم الجوزية (تـ 751هـ).
6- "المصنوع في الحديث الموضوع" للحافظ علي القاري (تـ 1014هـ).
7- "الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة" لمحمد بن علي الشوكاني" (ت 1255هـ) [2].

الوحدة التاسعة

أقسام الحديث من حيث القائل :

قد ينتهي الحديث إلى النبي -صلى الله عليه وسلم - ، فيكون"مرفوعاً".

وقد ينتهي إلى صحابي فيكون "موقوفاً"، وقد ينتهي إلى تابعي فيكون "مقطوعاً" وهنا دراسة لهذه الأنواع الثلاثة:

أولاً: الحديث المرفوع:

تعريفه:

([1]) تدريب الراوي 358/1.

([2]) انظر هذا المبحث في كتاب "التمهيد في علوم الحديث" د. همام سعيد ص137-145.

هو ما أضيف إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - من قول أو فعل أو تقرير أو صفة[1].

وهذا يعني أن شرط الرفع أن يُضاف إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ولا عبرة بأن يكون الحديث متصلاً أو منقطعاً، فالمهم أن تكون الإضافة إلى النبي -صلى الله عليه وسلم -.

أنواعه:

للحديث المرفوع نوعان: المرفوع الصريح، والمرفوع الحكمي:

أ- أما المرفوع الصريح فهو: أن تكون الإضافة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - مباشرة، مثل: "قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " أو "سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يقول.." أو "رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -" أو "أمرنا" أو "نهانا" أو "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يفعل كذا..".

ب- **وأما المرفوع الحكمي** فهو: ما خلا من صفة الرفع الصريحة، وكانت صفة رفعه ضمنية، وذلك بأن يقول الصحابي قولاً أو يفعل فعلاً لا مجال فيه للرأي والاجتهاد، فينزل على أن ذلك ليس من عنده، بل هو من عند النبي- صلى الله عليه وسلم - . وذلك كأن يكون هذا القول أو الفعل متضمناً حكماً شرعياً من أحكام الحلال والحرام التي لا يقولها الصحابي باجتهاده، بل يتلقاها عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأطلق عليها العلماء اسم "المرفوع حكماً، أي: أنها من الموقوف لفظاً المرفوع حكماً.

أمثلة المرفوع الصريح:

1- المرفوع القولي: أن يقول الصحابي أو غيره " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أو" سمعت النبي صلى الله عليه وصلم يقول.." أو نحو ذلك.

2- المرفوع الفعلي: أن يقول الصحابي أو غيره " رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يفعل كذا.." "أو نحو ذلك.

3- المرفوع من التقرير: أن يقول الصحابي أو غيره: "فعلت بحضرة النبي - صلى الله عليه وسلم - كذا.... ولا يروي إنكاره صلى الله عليه وسلم لذلك الفعل.

4- المرفوع الوصفي: أن يذكر الصحابي أو غيره صفة من صفات الرسول - صلى الله عليه وسلم ا- لخَلقية والخُلقية، مثل: "كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحسن الناس خُلقاً"[2] أو "لم يكن النبي - صلى الله عليه وسلم - بالطويل ولا بالقصير[3]".

أمثلة المرفوع الحكمي:

1- المرفوع من القول حكماً: أن يقول الصحابي قولاً مما لا مجال فيه للرأي والاجتهاد، فهذا لا يقوله الصحابي إلا عن توقيف من النبي- صلى الله عليه وسلم - . ومثاله: قول ابن مسعود - رضي الله عنه -: "من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة"[1].

([1]) انظر هذا الفصل في كتاب محاضرات في علوم الحديث للدكتور محمد مختار المفتي ، ص224،وانظر: تدريب الراوي 226/1.

([2]) أخرجه مسلم (2337) (93) في الفضائل: باب في صفة النبي صلى الله عليه وسلم.

([3]) أخرجه البخاري (3549) في المناقب: باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم والبيهقي في "دلائل النبوة"1 /250 .

2 - المرفوع من الفعل حكماً: أن يفعل الصحابي فعلاً لا مجال للرأي والاجتهاد فيه، ومثاله: "كان ابن عمر وابن عبّاس يفطران ويقصران في أربعة بُرد"[2] وهذا ينزل على أنه ليس منهما، بل هو عن النبي -صلى الله عليه وسلم- .

- **حكم المرفوع:** قد يكون المرفوع صحيحاً أو حسناً أو ضعيفاً أو موضوعاً، بحسب استيفائه شروط القبول أو اختلالها فيه.

ثانياً: الحديث الموقوف:

تعريفه: ما أضيف إلى الصحابي من قوله أو فعله[3]. وسمي موقوفاً لأنه وُقف به عند الصحابي، ولم يرتفع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -.وتدخل أقوال الصحابة وأفعالهم في الحديث باعتبار صحبتهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - واقتباسهم من هدي النبوة وتأدبهم بأدبها.

ومثاله: أن يقول الراوي: "قال أبو بكر الصديق كذا.." أو "فعل علي بن أبي طالب كذا.." وقد روى البخاري في كتاب "الفرائض"[4] "قال أبو بكر وابن عباس وابن الزبير –رضي الله عنهم -: الجد أب".

حكم الموقوف: قد يكون الموقوف صحيحاً أو حسناً أو ضعيفاً أو موضوعاً.

فإذا ثبتت صحة الموقوف فإن العلماء يرون الاحتجاج بأقوال الصحابة وأفعالهم، لأن حال الصحابة كانت هي العمل بالسنة وتبليغ الشريعة[5].

ثالثاً: الحديث المقطوع:

- **تعريفه:** هو: ما أضيف إلى التابعي من قوله أو فعله[6]، إذ أن أقوال التابعين وأفعالهم كانت موضع اهتمام علماء الحديث؛ لأن التابعين لازموا الصحابة - رضي الله عنهم - وأخذوا أحكام الشريعة.

- أمثلة على المقطوع:
  1- عن الزهري وقتادة قالا: "الكفن من جميع المال"[7].
  2- عن ابن سيرين قال: "يغسل الميت وتراً"[8].

- **حكم المقطوع:**

([1]) وقد جاء الحديث مرفوعاً عند البخاري من طريق معاذ بن جبل (129) كتاب العلم، باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا. وانظر مسند أبي يعلى الموصلي (1022) ومسند احمد 79/3 .

([2]) أخرجه البخاري كما في "فتح الباري" 565/2، كتاب تقصير الصلاة، باب: في كم يقصر الصلاة؟ وقوله: "أربعة برد" هي ستة عشر فرسخاً .

([3]) تدريب الراوي 227/1.

([4]) باب ميراث الجد مع الأب والأخوة.

([5]) تدريب الراوي 238/1.

([6]) تدريب الراوي 240/1.

([7]) أخرجه عبد الرزاق في (المصنف) 435/3.

([8]) أخرجه عبد الرزاق في (المصنف) 397/3.

قد يكون المقطوع صحيحاً، وقد يكون ضعيفاً، أو موضوعاً، وقد يكون متصلاً وقد يكون منقطعاً.

والمقطوع لا يحتج به في شيء من الأحكام الشرعية، ولو صحت نسبته إلى قائله؛ لأنه كلام أو فعل أحد المسلمين. لكن، إن كانت هناك قرينة تدل على رفعه كقول الراوي عند ذكر التابعي: "يرفعه" فيعتبر عندئذ حكمه حكم المرفوع المرسل، لسقوط الصحابي منه.

- **مصادر الموقوف والمقطوع:**

1- "مصنف عبد الرزاق بن همام الصنعاني": ت 211هـ.

2- "مصنف أبي بكر بن أبي شيبة": ت 235هـ.

3- "تفسير الطبري": ت 310هـ.

أقسام الحديث من حيث عدد الرواة

قسم العلماء الحديث من حيث عدد رواته في كل طبقة من طبقات السند إلى قسمين رئيسيين هما: الحديث المتواتر، وحديث الآحاد.

أولاً: الحديث المتواتر:

- تعريفه: لغة: التتابع، تواتر المطر أي تتابع نزوله[1].
اصطلاحاً: هو ما رواه جمع كثير يستحيل اتفاقهم على الكذب في كل طبقة من طبقات السند[2].

- **أقسام المتواتر:**

ينقسم الحديث المتواتر إلى قسمين:

أ- المتواتر اللفظي، وهو: ما نقله الجمع الغفير بلفظ واحد.
ومثال ذلك حديث: "من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"[3].

فقد رواه أكثر من سبعين من الصحابة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -مرفوعاً.

ب- المتواتر المعنوي، وهو: ما تواتر معناه دون لفظه، ومثال ذلك: أحاديث عذاب القبر[1]، فقد وردت عن أربعين صحابياً تقريباً، ولكنها ليست بلفظ واحد، بل بألفاظ متعددة، وكلها تشترك في معنى واحد وهو الإقرار بعذاب أو نعيم القبر.فالتواتر هنا باعتبار مجموع الطرق.

([1]) انظر هذا الفصل في كتاب محاضرات في علوم الحديث للدكتور محمد مختار المفتي ، ص305، وانظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (وتر).

([2]) تدريب الراوي 255/2.

([3]) أخرجه مسلم (2) في المقدمة.

- **حكم الحديث المتواتر:**

إن وصول الحديث بطريق التواتر ينفي أي احتمال للخطأ أو للكذب في روايته، ولذلك فإنه يجب الأخذ بالحديث المتواتر، ويكفر من ينكره؛ لأن إنكاره ليس شكاً في السند، بل هو تكذيب للنبي -صلى الله عليه وسلم- ، فالحديث المتواتر إذن كالقرآن الكريم من حيث إنه قطعي الثبوت يجب الإيمان به والعمل به، ويكفر منكره.

- **وجوده:**

الأحاديث المتواترة قليلة بالنسبة على أحاديث الآحاد، ومن الأحاديث المتواترة: حديث الحوض، وحديث المسح على الخفين، وحديث رفع اليدين في الصلاة، وحديث " أنزل القرآن على سبعة أحرف"[2].

ويكون التواتر في الأحاديث الفعلية كفرائض الصلاة والصوم والزكاة والحج.

- **أشهر المصنفات فيه:**

1- "الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة" للسيوطي.
2- "نظم المتناثر من الحديث المتواتر لمحمد بن جعفر الكتاني" (ت 1345هـ).
3- اللآلئ المتناثرة في الأحاديث المتواترة لابن طولون الدمشقي (ت 953هـ).

ثانياً: حديث الآحاد:

- **تعريفه:**

لغة: جمع أحد بمعنى الواحد، وخبر الواحد هو ما يرويه شخص واحد[3].

اصطلاحاً: **"ما لم يجمع شروط المتواتر"**[4]، أو هو ما رواه عدد محصور من الرواة: واحد فأكثر، سواء أكان الخبر واحداً أم اثنين أم ثلاثة أم أربعة إلى غير ذلك.

- **ومثاله:**

قال البخاري: حدثنا الحميدي عبد الله بن الزبير، قال: حدثنا سفيان، قال: حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاري قال: أخبرني محمد بن إبراهيم التيمي، أنه سمع علقمة بن وقاص الليثي يقول: سمعت عمر بن الخطاب -رضي الله عنه -على المنبر قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى..." [5].

([1]) وقد عقد البخاري باباً في كتاب الجنائز ترجم له بقوله: (باب ما جاء في عذاب القبر) وقد أورد فيه عدداً من الأحاديث، انظر الأحاديث من (1369) إلى (1378) في فتح الباري 231/3 كما أن كلاً من مسلم والترمذي والنسائي وأبي داود عقدوا أبواباً ترجموا لها بنحو ما ترجم له البخاري وأوردوا فيها أحاديث كثيرة عن عذاب القبر..

([2]) تدريب الراوي 259/2.

([3]) لسان العرب، ابن منظور، مادة (وحد).

([4]) نزهة النظر شرح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر ، ص26.

([5]) أخرجه البخاري (54) في الإيمان: باب ما جاء "أن الأعمال بالنية".

لم يرد هذا الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم -إلا من رواية عمر بن الخطاب، ولا عن عمر إلا من رواية علقمة بن وقاص، ولا عن علقمة إلا من محمد بن إبراهيم التيمي، ولا عن محمد إلا من رواية يحيى بن سعيد الأنصاري، وعن يحيى انتشر، فرواه جمع من الأئمة، فهو غريب في أوله مشهور في آخره.فالحديث –كما نرى- حديث آحاد، وهو يمثل أحد أقسام الآحاد[1].

- **حكم حديث الآحاد:**

حديث الآحاد يمكن أن يكون مقبولاً أو غير مقبول، ولذلك فإن توافرت فيه كل شروط الحديث المقبول احتج به، وإن فقد شرطاً من شروط القبول فهو حديث غير صحيح.

- **أقسام الآحاد**:

تنوعت صور حديث الآحاد تبعاً لعدد الروايات، مما جعل علماء المصطلح يطلقون على هذه الصور أسماء مختلفة، تبعاً لتعدد الطرق أو تفردها وهي أربعة:

أ- الغريب ب- العزيز ج- المشهور د- المستفيض.

وفيما يأتي بيان لكل قسم من هذه الأقسام..

أ- الغريب:

- تعريفه: لغة: المنفرد[2].
اصطلاحاً: ما ينفرد بروايته راو واحد[3].

وقد يكون هذا الانفراد في جميع حلقات السند، وربما كان الانفراد في بعض حلقات السند، ولا تضر الزيادة عن واحد في باقي حلقات السند، لأن العبرة للأقل، ومثاله حديث: "إنما الأعمال بالنيات" الذي تقدم ذكره.

- **حكم الغريب:**

لم تعتبر الغرابة سبباً موجباً للحكم على الحديث بالضعف.

فقد يكون الحديث الصحيح غريباً، وقد يكون الحسن غريباً، وقد يكون الضعيف غريباً، فالغرابة والتفرد وصف وحكم بتفرد الراوي، والصحة حكم على الحديث أو على سنده بما اجتمع فيه من شروط الصحة.

- **العزيز:**

- تعريفه: لغة: عزّ يعز إذا قوي كقوله تعالى: {فعززنا بثالثٍ} [يس:14] [4].
اصطلاحاً: هو حديث الآحاد الذي رواه اثنان فأكثر في كل طبقة من طبقات الرواة. ومثاله: ما رواه مسلم من حديث أنس، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -أنه قال: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب

([1]) وأقسام الآحاد كما سترى: الغريب، العزيز، المشهور أو المستفيض.

([2]) لسان العرب، ابن منظور، مادة (غرب).

([3]) تدريب الرواي 260/2 .

([4]) لسان العرب، ابن منظور مادة (عزز).

إليه من والده وولده والناس أجمعين"[1].هذا الحديث رواه عن أنس اثنان: قتادة وعبد العزيز بن صهيب، ووراه عن قتادة اثنان: شبعة وسعيد، ورواه عن عبد العزيز اثنان إسماعيل بن علية وعبد الوارث، ورواه عن كل جماعة أي رواه عن شعبة جماعة وعن سعيد جماعة وعن إسماعيل جماعة وعن عبد الوارث جماعة.

- **حكم العزيز:**

الحكم في العزيز يتبع حال السند والمتن ، فالحديث العزيز فيه الصحيح والحسن والضعيف والموضوع.

ث- **المشهور:** -تعريفه: لغة: الانتشار والذيوع أو المعروف على الألسنة[2].
اصطلاحاً: هو حديث آحاد يرويه ثلاثة فأكثر، ولم يبلغ حد التواتر[3].

وهذا يعني أن لا يكون في طبقة من طبقات السند أقل من ثلاثة، فليس في أية طبقة من طبقات سنده راو واحد أو راويان، بل إن عدد الرواة في كل طبقة ثلاثة أو أكثر. ومثاله: حديث "لا ضرر ولا ضرار"[4]، فقد رواه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - صحابة عدة منهم: ابن عباس وأبو سعيد الخدري، وعبادة بن الصامت، ولكنه لم يصل حد التواتر.

حكم الحديث المشهور: فيه الصحيح، والحسن، والضعيف.

فمثال المشهور الصحيح: "إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل"[5].

ومثال المشهور الحسن: "لا ضرر ولا ضرار"[6].

ومثال المشهور الضعيف: "اطلبوا العلم ولو في الصين"[7].

الوحدة العاشرة

منهج التعامل مع القرآن الكريم والسنة النبوية

أولا - : منهج التعامل مع القرآن الكريم:

([1]) أخرجه مسلم (44) (70) في الإيمان، باب: وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

([2]) لسان العرب، ابن منظور، مادة (شهر) .

([3]) تدريب الراوي 250/2.

([4]) أخرجه ابن ماجه (2341) في الأحكام، باب: من بنى في حقه ما يضر بجاره، والإمام أحمد في "المسند" 313/1، والبيهقي في "السنن" 69/6، والحاكم النيسابوري في "المستدرك على الصحيحين" 58/2.

([5]) أخرجه مسلم (844) في الجمعة.

([6]) سبق تخريجه.

([7]) انظر لسان الميزان للحافظ ابن حجر 2611/1، المجروحين لابن حبان 382/1، الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي 182/1، الضعفاء للعقيلي 230/1 .

القرآن الكريم له أهمية بالغة في حياتنا؛ فهو شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، وهو دستور نظام، ومنهاج حياة، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد. كما ان التعامل مع القرآن الكريم واجب على كلِّ مسلم ومسلمة؛ قراءةً وحفظًا، وتدبرًا وتفهمًا، وعملاً وتطبيقًا، واستشفاءً وتحكيمًا فيما شجر بين المسلمين، فالقرآن الكريم هو المصدر الأول لكل مسلم؛ لأنه كتاب الإسلام الخالد الذي نزلت السنة لتبينه وتوضحه، وتخصص عامه أو تقيد مطلقه وتبين مبهمه، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) (النحل). لذلك كان لزامًا علينا أن نعرف أهم المعالم والأسس التي من خلالها يمكننا أن نتعامل مع هذا الكتاب الكريم.

1- : معرفة قيمة القرآن الكريم:

أول أساس من هذه الأسس أن نعرف قيمة القرآن الكريم حتى ننزله منزلته، ونقدره التقدير اللائق به، والإنسان مفطور على الاهتمام بالشيء إن كانت له قيمة، ولن يهتم بشيء إلا إذا عرف قيمته ووقف على أهميته.

أ- القرآن كلام الله تعالى، فهذا الكتاب ليس كلام عالم من العلماء، ولا داعية من الدعاة، ولا فقيه من الفقهاء، إنما هو كلام خالق الخلق، ورازق العالمين، من بيده الخلق والأمر، وبيده ملكوت كل شيء، وإليه يرجع الأمر كله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102) (النحل).

ب- وكل منا تستهويه أسماء علماء بعينهم، نقتني كتبهم، ونقرأ كلامهم، ونحفظ مقولاتهم، ونجعل إيرادها بين يدي حديثنا مع الناس من قبيل الحجة وإقناع الآخرين، فما بالك بكلام "الله" تعالى، أليس جديرًا بأن يُقتنى ويُحفظ عن ظهر قلب، ويُتدبر ويُتفهم ويُعمل به؟!.

ت- القرآن هداية للمتقين، فمتى أخلص المسلم للقرآن أعطاه الله من هذا الكتاب وهدايته ونوره وموعظته وبشراه ما ينعم به المؤمنون، وينتفع به المتقون: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ(2) (البقرة)، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: من الآية 97)، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: من الآية 46)، ﴿هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (203) (الأعراف)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (57) (يونس).

ث- القرآن يشتمل على شئون الحياة جميعًا؛ فهو ليس كتاب مواعظ فقط، ولا تشريع فقط، ولا اقتصاد فقط، ولا تربية فقط، ولا ثقافة فقط، وإنما هو كتاب شامل تحدّث في كلِّ الأمور، وبين كل الشئون، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111) (يوسف)، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89) (النحل)، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ (الأنعام: من الآية 114).

2 - : معرفة مقاصد القرآن الكريم:

والأساس الثاني للتعامل مع القرآن الكريم أن نفهم مقاصده وندرك غاياته، ونقف على أهدافه وما يرمي إلى تحقيقه في النفس والمجتمع، فمعرفة مقاصد القرآن ابتداءً تجعل لدى الإنسان تصورًا عامًّا عن

موضوعات القرآن الكريم، ومجالات اهتمامه، والموضوعات التي يتناولها.
والقرآن نفسه يتحدث عن مقاصده وغاياته:

- فهو للهداية: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16) (المائدة).
- وهو لإخراج الناس من الظلمات إلى النور: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1) (إبراهيم).
- وهو لسعادة الإنسان: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى(2) (يس).
- وهو كتاب لإعزاز الأمة: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (10) (الأنبياء)، ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44) (الزخرف).

3 - : تلاوة كتاب الله تعالى وحفظه :

ومن الأسس المهمة في التعامل مع القرآن أن تتلوه تلاوة صحيحة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ (النمل). وأحرى بالمسلم أن تكون له تلاوة يومية مع كتاب الله تعالى، ويجتهد أن يقرأ جزءًا يوميًّا، فيختم القرآن في كل شهر مرة، وان زاد فهو خير له.

وتلاوة القرآن نور للقلوب ونور للبيوت ، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب". وعن أبي هريرة؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة"

4 – : فهم كتاب الله وتدبر معانيه:

وقد قال الله تعالى: "﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ (النساء: 82). وقال أيضًا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24) (محمد).
يقول الأستاذ سيد قطب: "ويتساءل في استنكار : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾؟ وتدبُّر القرآن يزيل الغشاوة ويفتح النوافذ، ويسكب النور، ويحرّك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلِص الضمير، وينشئ حياةً للروح تنبض وتشرق وتستنير بها، ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾؟ فهي تحول بينها وبين القرآن، وبينها وبين النور، فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء والنور!".
ومن أدوات الفهم تعلُّم اللغة العربية بآدابها وعلومها؛ فهي الوسيلة لفهم مراد الله؛ لأنه نزل بلسان عربي مبين، وكذلك فهم السنة النبوية ودراستها دراسة مستوعبة؛ لأنها مصدر لابد منه في فهم القرآن، فهي الشارحة لمعانيه، والمبيّنة لمبهماته، والمفصلة لإجماله.

ويقع بعض الناس احيانا في دائرة الفهم الخاطئ للقرآن الكريم؛ وذلك بسبب القدوم الى ساحة القرآن مع استصحاب مفاهيم سلبية كالجبر والإرجاء وما الى ذلك من افكار واعتقادات، فالبعض يقدم على ساحة

القرآن محمّل بأفكار ليست من الإسلام ولا من القرآن، ثم يقرأ النصوص وننزل النصوص وفق ما في عقله من مقولات ومقررات مسبقة.

ولفهم القرآن درجات:

1- فهم لمعاني مفرداته الكريمة، وفيه يتعرَّف المسلم على معاني المفردات التي لا يفهمها حتى يتضح له المقصود، ويفهم المراد.
2- وفهم ما لا بد منه من سياق الكلام: وهو المعنى الكلي للقصة أو المشهد أو السورة، ويعتبر الفهم السابق جزءًا منه.
3- وهناك فهم دقيق وتأمل عميق للوصول إلى معرفة مقاصد القرآن الكريم ومراميه، وهو أثر ونتيجة للنوعين السابقين، إضافةً لطول التأمُّل والتدبر والإخلاص لله تعالى، وفيه يقف المسلم على أسرار وحكم وأبعاد ومرامي القرآن.

5- : العمل والتطبيق:

وهذا الأساس يعتبر ثمرةً للأسس السابقة جميعًا، ونتيجة طبيعية لها، فلا توجد نفس سوية محبة للناس والخير تُحَصِّل هذا الخير العميم ثم تحبسه على شخصها من دون الناس.
والقرآن الكريم يومئ إلى معنى التطبيق والتنفيذ وتفعيل هذا الكتاب في حياة الناس، ومن ذلك:
﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأنعام: من الآية 155).

﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (100) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (101)﴾ (طه).

والمتأمل في القرآن الكريم يجد العمل الصالح مقرونًا دائمًا بالإيمان، وحسبنا أن نص قوله تعالى: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مكرر في القرآن (48) مرةً.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم متخلقًا بالقرآن العظيم، روى الإمام أحمد في مسنده بسنده عن سعيد بن هاشم بن عامر قال أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين، أخبريني بخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: "كان خلقه القرآن أما تقرأ القرآن قول الله عزَّ وجلَّ" ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ .

ومقتضى ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان متمسكًا بآدابه وأوامره ونواهيه ومحاسنه، ويوضحه أن جميع ما قصَّ الله تعالى في كتابه من الأخلاق مما قصَّه من نبي أو ولي أو حث عليه أو ندب إليه كان صلى الله عليه وسلم متخلقًا به، وكل ما نهى الله تعالى عنه فيه ونزَّه كان صلى الله عليه وسلم لا يحوم حوله.

وما قيمة العلم أو الحفظ بلا عمل، فلا خير في إيمان لا يتبعه عمل، ولا خير في عقيدة تثمر الجهاد من أجلها، والموت في سبيلها.

والعمل أو التطبيق له دوائر:

الأولى: دائرة فردية: وهي دائرة إصلاح النفس وتهذيبها وتزكيتها بما فرضه الله تعالى، وسنَّه النبي - صلى الله عليه وسلم - .
الثانية: دائرة أسرية: وهي مسئولية الإنسان عن أسرته: زوجًا وأبناءً، وأبًا وأمًّا، وإخوةً وأخوات، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(32) (طه). وقال أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(6) (التحريم).
الثالثة: دائرة مجتمعية: وهي الدعوة العامة في المجتمع عبر مؤسساته وهيئاته.
الرابعة: دائرة عالمية: وفيها تتحقق شهادة الأمة الإسلامية على سائر الأمم، وتكون فيها الأمة مسئولة عن هداية هذا العالم، وتبليغ الدين له صافيًا نقيًّا كما نزل به القرآن، وجاءت به السنة النبوية.

6 - : التبليغ:

وهو الأساس الأخير الذي تكتمل به دوائر التعامل مع القرآن الكريم، وبه تتحقق الربانية للمسلم، فلن يبلغ المسلم أن يكون ربانيًّا إلا إذا تعلم ما يجهل، وعمل بما تعلم، وعلَّم ما تعلم، قال تعالى:
﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: من الآية 79).
ولا يقبل الإسلام من المسلم أن يكون صالحًا في نفسه وكفى، بل لا بد أن يعمل الخير وينفع الغير؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (170) (الأعراف).
يقول الأستاذ سيد قطب في تفسير هذه الآية: "إن الصيغة اللفظية: (يمسكون)، تصور مدلولاً يكاد يُحس ويُرى، إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة، الصورة التي يحب الله أن يؤخذ بها كتابه وما فيه، في غير تعنت ولا تنطع ولا تزمت، فالجد والقوة والصرامة شيء والتعنت والتنطع والتزمت شيء آخر، إن الجد والقوة والصرامة لا تنافي اليسر ولكنها تنافي التميع! ولا تنافي سعة الأفق ولكنها تنافي الاستهتار! ولا تنافي مراعاة الواقع ولكنها تنافي أن يكون "الواقع" هو الحكم في شريعة الله! فهو الذي يجب أن يظل محكومًا بشريعة الله!
والتمسك بالكتاب في جد وقوة وصرامة؛ وإقامة الصلاة- أي شعائر العبادة- هما طرفا المنهج الرباني لصلاح الحياة، والتمسك بالكتاب في هذه العبارة مقرونًا إلى الشعائر يعني مدلولاً معينًا. إذ يعني تحكيم هذا الكتاب في حياة الناس لإصلاح هذه الحياة، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس. فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة والنفوس، ولا تصلح بسواه، والإشارة إلى الإصلاح في الآية: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾..
يشير إلى هذه الحقيقة، حقيقة أن الاستمساك الجاد بالكتاب عملاً، وإقامة الشعائر عبادة هما أداة الإصلاح الذي لا يضيع الله أجره على المصلحين.

وما تفسد الحياة كلها إلا بترك طرفي هذا المنهج الرباني، ترك الاستمساك الجاد بالكتاب وتحكيمه في حياة الناس؛ وترك العبادة التي تصلح القلوب فتطبق الشرائع دون احتيال على النصوص، كالذي كان يصنعه أهل الكتاب؛ وكالذي يصنعه أهل كل كتاب، حين تفتر القلوب عن العبادة فتفتر عن تقوى الله..

7- **القرآن كلام الله:وهو المهيمن** على غيره من الكتب السماوية أو الوضعية.. أي : هو الحكم والمرجع .

8 - اتحاد المعجزة والرسالة في القرآن: انتهت اللمعجزات السابقة بانتهاء الرسالات .. إلا الاسلام فكانت الرسالة والمعجزة متحدتان .. وباقيتان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

قال شوقي:
جاء النبيون بالآيات فا نصرمت***وجئتنا بكتاب غير منصرم .

9- الكتاب وحال الأمة:

الأمم في حالة المد تفهم شيئاً وفي حالة الجزر تفهم غيره; ربما نقيض الفهم الصحيح، نصوص الكتاب كما قلنا محايدة، يأتي العقل هو الذي يحدد مسار الفهم، النص في محله. تتذكرون جميعاً كيف فهم المسلمون قوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) الصحابة فهموا الآية; لان الأمة كانت في حالة مد لكن أمة في حالة الجزر، فإذن لا يوجد فك ارتباط بين فهم العلماء وبين حال الأمة، لكن لاحظوا العلماء كيف أنزلوا النصوص على الواقع، تنزيل مريض مشوّه; لأن الأمة في حالة الجزر، فالحكّام إن أرادوا السّلم فنقوم بتفصيل الآيات وإن أرادوا الحرب فنغيّر الآيات حسب مرادهم، إذا أرادوا السلام (وإن جنحوا للسّلم...) إذا أرادوا أن يحاربوا (انفروا...) ان النص لا علاقة له بهذا، ولكن واقعنا مريض.

نريد أن نحلّق فوق هذا الواقع المتخلّف، لأن نصّنا عال وواقعنا رديء فلا بد لنا من أن نخرج من جاذبية الواقع الرديء للأمة الى أفق النص القرآني العالي والرحب.

10- الوحدة الموضوعية:

نعني بالوحدة الموضوعية أن كل سورة لها وحدة موضوع، من أول آية الى آخر آية، واقرأ في الظلال وغير الظلال، محمد قطب أعطى نماذج على ذلك في كتابه «دراسات قرآنية «فقال على سبيل المثال سورة البقرة موضوعها تربية أمة لا إله إلا الله، سورة آل عمران موضوعها معركة أمة لا إله إلا الله، فمن أول آية الى آخر آية الكلام صحيح باتساق، المعركة الفكرية.

والمعركة المادية، المعركة مع اليهود والمشركين والمنافقين والنصارى، إذن معركة أمة لا إله إلا الله معركة ضد كل أعداء لا إله إلا الله، وعلى الصعيدين المادي والفكري، هذه سورة آل عمران، معركة نفسية ثقافية فكرية دينية عقدية اجتماعية ومادية ميدانية ومع اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين، موضوع واحد، لن تخرج السورة عن هذا الإطار.

نأتي الى سورة النساء لماذا فيها جهاد؟ نحن نعلم أن السورة تتكلم عن أحكام النساء، ولكن لماذا يوجد الجهاد؟ نحن عندنا نظام اجتماعي أو لا يحتاج هذا النظام الى نظام عسكري يحميه، إذن النظام في سورة النساء نظام اجتماعي وهذا النظام لن يستقر ما لم تكن له قوة تحميه ، ان آيات الجهاد منسجمة تماماً مع موضوع السورة، ولذلك لاحظ كيفية ورود آيات الجهاد (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء). إذن لكل سورة موضوع..

قال في الظلال: «يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة الى محور خاص، ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو. ولها إيقاع موسيقي خاص، إذا تغير في ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة، وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً، ولا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور...»([1])

11- لا يؤتى الى القرآن بأحكام مسبقة : سواءً أكانت أحكاماً فقهية، أم عقدية، أم فلسفية... الخ. لكن يؤتى القرآن بثقافة وعقل عنده دُربة بالعربية ومسلح بالبلاغة.

[1] - انظر : سيد قطب: في ظلال القرآن، بيروت، دار احياء التراث العربي، ط 7، ج 1ص 4.

12 - في القرآن آيات محكمات وأُخَرُ متشابهات : والمتشابه من الآيات يُرد الى المحكمات، وفي النهاية لا متشابه في القرآن.. بمعنى أنه مجهول المعنى .

معوقات الفهم الصحيح للتعامل مع كتاب الله

1- القدوم الى ساحة القرآن محمّلين بأفكار ليست من الإسلام ، ولا من القرآن، ثم نقرأ النصوص وننزل النصوص وفق ما في عقولنا من مقولات ومقررات.

2 ـ ربط النص بسبب نزول غير صحيح: كثير من أسباب النزول تشوش الفهم، من علمائنا من قال إن أسباب النزول تعين على فهم النص، وهذا كلام صحيح، لكن عندما يكون سبب النزول ملفّقاً تلفيقاً يصبح معيقاً ولا يكون معيناً على فهم النص.

3 - الاستعانة بالآثار الموضوعة والضعيفة والإسرائيليات ، وقطع النص عن سياقه ، وسابقه ولاحقه ، من المعوقات للفهم الصحيح للنص .

4 - عدم الاطلاع على المعارف الإنسانية والتاريخ الإنساني والاجتماع الإنساني: لظن البعض أن العقل المسلم مكتف بذاته، وهذا غير صحيح، إذ العقل يحتاج الى المعارف الإنسانية وهي مترابطة متشابكة يأخذ بعضها من بعض ـ فالمسلم غير معزول عن العالم ولا منبت ولا منقطع ـ نستفيد من معارف العالم الكونية والاجتماعية والإنسانية... في ضوء منهج فكري يقوم على الاستماع للقول واتباع أحسنه .

5 ـ التقليد في الفهم: إن أقوال العلماء في القرآن مفيدة، ولكنا لا نأخذ بها بالضرورة لأنهم قالوها، بل لأنها صحيحة ومنسجمة مع القرآن، وإذا كانت هناك مشكلة في هذه الأقوال فلا بأس من ردها، ليس من باب الرد لذات الرد، أو لنبدو متعالمين، ولكن بما أن الحق يسير منسجماً مع القرآن، فلا مانع من اتباع هذا الأمر المنسجم، مع عدم تقليده.
6 ـ عدم بذل الجهد والكدح الذهني في محاولة الفهم: نحن لدينا اعتقاد أن القرآن ميسّر، (ولقد يسرنا القرآن للذكر)، فلماذا نجهد أنفسنا؟ إن القرآن الكريم كلام واضح، ولكن، العمق شيء واليسر شيء آخر، القرآن ميسر; ولكنه في منتهى العمق، يحتاج الى صبر وأناة ، نحن نسطّح الامور، فنظن ان اليسر يعني التسطيح ـ ومعاذ الله ـ أن يكون القرآن مقصده من اليسر التسطيح الفكري. ([1])

ثانيا : منهج التعامل مع السنة النبوية :

كلنا يعلم أنّ السنة النبويّة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، وهي المنهاج التفصيلي لحياة الفرد المسلم والمجتمع المسلم، لذا كان واجب المسلمين أن يعرفوا كيف يحسنون فهم هذه السنّة ، وكيف يتعاملون معها.

إنّ أزمة المسلمين الأولى في هذا العصر هي أزمة فكر، وتتمثل أزمة الفكر اليوم في أزمة فهم السنّة والتعامل معها. ولمّا وجدنا سوء فهم البعض للسنّة، رغبنا أن نصحح هذه المفاهيم المغلوطة عند البعض، لإزالة الكثير من الإشكالات والتصورات الخاطئة عن السنّة والحديث الشريف، فكان هذا المبحث ، يوضح

[1] ـ انظر : منهج التعامل مع القرآن الكريم للدكتور أحمد نوفل.. بتصرف واختصار

للطالب كيف يمكن أن يُفهم النصّ النبوي، وما المبادئ الأساس للتعامل مع أحاديث الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم - ؟ وكيف يتعامل مع المشكل منها؟

إذ أنّ هناك من يحكم عقله وهواه في النصوص النبوية الصحيحة الثابتة ، وهناك من يحاول إنكار السنّة النبوية ، أو إنكار بعض الأحاديث الصحيحة الثابتة التي دُوّنت في أصح كتاب بعد كتاب الله وهو كتاب صحيح البخاري ، الذي تلقّته الأمة بالقبول عبر عصورها المتعاقبة.

من ضوابط فهم السنة النبوية :

1- التفريق بين عالم الغيب وعالم الشهادة : الواجب على المسلم أن يسلّم بما صح ثبوته، ولا يصح رده بمجرد مخالفته لما عهدناه، أو استبعاد وقوعه تبعاً لما ألفناه ما دام في دائرة الممكن عقلاً، وإن نحن نعتبره مستحيلاً في العادة، لقد استطاع الإنسان – بما أوتي من العلم- أن يصنع و يخترع أشياء كثيرة اليوم كانت في حكم المستحيل أمس، ولو قيل لشخص قبل (100سنة) أن مجموعة أشخاص.. واحد في عمان ، وثان في القاهرة ، وثالث في دمشق يتحدثون معاً في وقت واحد ويرون ويشاهدون بعضهم البعض ، لو حُكيت لأحد من الأقدمين، لرمى من يحكيها بالجنون؟ فالموقف السليم الذي يفرضه منطق الإيمان ، ولا يرفضه منطق العقل أن نقول في كل ما أثبته الدين من الغيبيات: آمنا وصدقنا ، كما نقول في كل ما جاءنا من التعبديات: سمعنا وأطعنا. نعم نؤمن بما جاء في النص ولا نبحث عن تفصيلهإن كان يتحدث عن المغيبات . فإن عقولنا كثيراً ما تعجز عن الإحاطة بهذه الأمور الغيبية، فإن الله الذي خلق الإنسان لم يؤهله لمثل هذا الإدراك لأنه غير محتاج إليه في مهمته في الحياة الدنيا. ومن الأمثلة على ذلك قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: (ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع).هذا حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه 1218 وغيره من أئمة الحديث.فالحديث صحيح، وصح سنده من عدة طرق. ورواةُ الحديث ثقات عدول لا مجال لتكذيبهم ،ومتن الحديث كذلك صحيح.لقد ردّ بعضهم هذا الحديث الصحيح لأنه لم يتوافق مع عقولهم هواهم.فزعموا أن الحديث خارج عن دائرة العقل.واستنكروا هذا التعظيم لجسد الكافر ليزداد عذابه وآلامه في جهنّم.واستنكروا ما جاء في عذاب أهل الكفر في النار.

وقالوا: كيف يكون ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام؟ وهل هي من أيام الدنيا؟ أم من أيام الآخرة؟ الخطأ الأساس الذي وقع فيه البعض هو قياس الغائب على الشاهد والآخرة على الدنيا، وهو قياس مع الفارق، فلعالم الغيب سننه ونواميسه وقوانينه المخالفة لعالم الشهادة ، وللدنيا قوانينها ، كما أن للآخرة قوانينها . ([1])

2- التفريق بين الحقيقة والمجاز: من الآفات التي تتعرّض لها السنّة في هذا العصر أن يقرأ أحد المتعجلين حديثاً صحيحاً.. فيردَّه لأنه لا يتوافق مع عقله.نعم يتسرع بعض الناس في ردّ الحديث، الذي ثبتت صحته عند العلماء، بدعوى أنه يتعارض مع العقل.لو ترك الأمر لعقول الناس لأصبحت الأمور فوضى ولأصبحت السنة النبوية في مهبّ الريح، حيث تجد شخصاً يثبت حديثاً لأنه يوافق عقله وهواه وذاك يرده.الحديث الذي لا يقبله العقل مردودٌ بلا شك.. لكن من الذي يقرر أنّ هذا الحديث يرفضه العقل؟ إنّ

[1] - انظرهذا المبحث : كيف نتعامل مع السنة النبوية: معالم و ضوابط: د.يوسف القرضاوي. و إشراقات من السنة النبوية ، د.محمد مختار المفتي..صفحات متعددة لكليهما.

إعطاء هذا الحق لكل من هبّ ودبّ من الناس غير مقبول شرعاً ولا عقلاً، وإنما يجب أن يُعطى هذا للثقات من أهل الاختصاص.

ومثال ذلك: قوله- صلى الله عليه وسلم - : "النيل والفرات من أنهار الجنة".أي في هذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما ([1]) رأى البعض أنّ هذا الحديث مخالف للواقع وقالوا: إن منابع هذه الأنهار معروفة لكل دارس ومتعلم وهي نابعة من الأرض وليست من الجنة.وعليه ذهب هذا النفر من الناس إلى ردّ هذا الحديث الصحيح.ونسي هؤلاء التفريق بين الحقيقة والمجاز في فهم الحديث. نسي هؤلاء أن العربية لغة للمجاز.المجاز أبلغ من الحقيقة كما هو مقرر في علوم البلاغة.الرسول أبلغ من نطق بالضاد، وقد أوتي جوامع الكلم. نقول في اللغة: أنت أسد: يعني أنت شجاع. فأسد هنا مجاز وليس حقيقة. وكما يقع المجاز في السنة يقع في القرآن الكريم. عندما يقول الله تعالى (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) هل الخيط الأبيض والأسود هناحقيقة، لا بل مجاز. والمعنى بياض النهار وسواد الليل. الخيط الأبيض هو بياض النهار وهو بداية الصوم ،أي طلوع الفجر. والخيط الأسود هو سواد الليل وهو وقت الإفطار نهاية الصوم، أي غروب الشمس. ولذلك لا يصح حمل كل معاني الأحاديث على الحقيقة كما تؤديها الألفاظ بحسب الدلالة الأصيلة. لذلك هناك أحاديث تحمل على المجاز وأحاديث تحمل على الحقيقة. كيف يصبح معنى الحديث النيل والفرات من أنهار الجنة؟ هذا تشبيه لها بأنهار الجنة لما فيها من شدة العذوبة والحسية والبركةِ، وأن تلك الأنهار لبركتها أضيفت إلى الجنة.لذلك فالمعنى هنا معنى مجازي وليس معنى حقيقي،عند التعامل مع السنّة لا بد من التفريق بين الحقيقة والمجاز، إن إغلاق باب المجاز في فهم الأحاديث والوقوف عند المعنى الأصلي الحرفي للنصّ سيعرّض أحاديث كثيرة للشك والارتياب، إذا أُخذ الكلام على ظاهره. إن إغفال التفريق بين المجاز والحقيقة يوقع في كثير من الخطأ ومجانبة الصواب.لهذا اشترطت الشريعة في المجتهد أن يكون عالماً بالعربية علماً يمكنه من فهم دلالتها المختلفة.نعم: إذا استطعنا أن نحمل الأحاديث التي تستشكل علينا على المعنى المجازي، زال الإشكال وأصبح المعنى واضحاً.. وبان المراد من الحديث.

لأن من المجازفة ردّ الحديث الصحيح مع إمكانية تأويله. وإن من المكابرة التسرع بردّ الحديث الذي ثبتت صحته عند العلماء. من قرأ منكم حديثاً صحيحاً وأشكل عليه معناه فلا يصحّ أن يردّ الحديث ، والصوابُ أن يُردَّ العلمُ إلى أهله وأصحابه من أهل الاختصاص ،نريد أن نتعلّم أن لا نستعجل في إصدار الحكم عند استشكال الأحاديث علينا ، وخشية الخطأ في فهم معناها ، فعلينا التأني والتحري والتدقيق في فهم السّنة والنصِّ النبويّ، والرجوع إلى مصادرها وأصولها.. لمعرفة المراد منها..

3- **جمع الأحاديث الصحيحة في الموضوع الواحد:** من اللازم لفهم السنّة فهماً صحيحاً: أن تجمع الأحاديث الصحيحة في الموضوع الواحد، بحيث يُرد متشابهها إلى محكمها، ويُحمل مطلقها على مقيدها، ويُفسر عامها بخاصها، وبذلك يتضح المعنى المراد منه.

ونضرب لذلك مثالاً: الأحاديث التي وردت في إسبال الإزار(أي إرخاء أو إطالة الثوب ليجرّ على الأرض) وتشديد الوعيد عليه. ([2]) . لقد استند كثير من الشباب المتحمّس في شدة الإنكار على مَنْ لم يقصّر ثوبَهُ إلى ما فوق الكعبين. وبالغ بعضهم حتى أوشكوا أن يجعلوا تقصير الثوب من شعائر الإسلام أو فرائضه العظام.وإذا نظروا إلى عالِم أو داعية لا يقصِّر ثوبَه كما يفعلون أنكروا عليه ذلك،

[1] - انظر البخاري : رقم 5610، ومسلم : رقم : 2839 .
[2] - انظر : صحيح مسلم : رقم 106،وسنن الترمذي رقم 1211، وسنن ابن ماجة : رقم . 2226.

وربما رموه بقلّة الدين.لو عدنا إلى مجموع الأحاديث المتصلة بهذه القضية، ونظرنا فيها نظرة شاملة فاحصة متأمّلة، لعرفنا وعرفوا المقصود من الأحاديث في هذا المقام.ولما ضيّق هذا النّفر على أنفسهم وعلى الناس في أمر وسَّع الله عليهم فيه.روى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة: المنّان الذي لا يعطي شيئاً إلا مِنّة، والمنفِّقُ سِلْعَتهُ بالحلف الكاذب، والمسبلُ إزارَهُ"([1]) .ما معنى المسبل هنا؟ هل هو كل من أَطال ثوبَهُ، ولو كان ذلك على سبيل العادة التي عليها قومُه دون أن يكونَ من قصده كبر أو خيلاء.قال النووي وابن حجر: إنّ هذا الإطلاق في الحديث محمولٌ على ما ورد من قيد الخيلاء (الكبر) فهو الذي ورد فيه الوعيد بالاتفاق.وتذكر ما قاله الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (من جرّ ثوبَهُ خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة، قال أبو بكر: إنّ أحدَ شِقيّ ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: إنك لستَ تصنعُ ذلك خُيلاء) رواه البخاري وغيره. ([2]).نفهم من هذه الأحاديث أنَ إطالة الثوب أو إسبال الإزار إذا سلم من الكبر والخيلاء فهو مباح.قال الفقيه ابن عبد البر القرطبي: مفهومه أنّ جرّ ثوبٍ لغير الخيلاء لا يلحقه الوعيد. ونؤكد أنّ من قصد بتقصير ثوبِه إتّباع السنّة والبعد عن الكبر والعُجْب والفخر والبطر فهو مأجور على ذلك إن شاء الله على أن لا يلزم الناسَ، ولا يبالغَ في الإنكار على من ترك ذلك، ولكل مجتهد نصيب ولكل امرئ ما نوى.فالاكتفاء بظاهر حديث واحد دون النظر في سائر الأحاديث وسائر النصوص المتعلقة بموضوعه، كثيراً ما يُوقع في الخطأ، ويُبعد عن جادة الصواب وعن المقصود الذي سيق له الحديث.

- **4- فهم الأحاديث في ضوء أسباب ورودها:** فمن المبادئ الأساسية لفهم الحديث معرفة سببِ الحديث وجوّهِ وسياقهِ الذي ورد فيه. فسياق النّص والملابسات والظروف التي جاء فيها الحديث يساعد على فهمه وإدراكه.وكما أنّ معرفة سبب نزول الآية يعيننا على فهم المعنى ،كذلك فإن سبب ورود الحديث والنظر في ملابسات النص يساعدُ على حسن الفهم المطلوب ويُلقي شعاعاً على المعنى المراد من النصّ. وأضرب لذلك مثالاً: ما رواه الشيخان (يعني البخاري ومسلم) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسولُ الله **صلى الله عليه وآله وسلم** في سفر، فرأى زِحاماً، ورجلاً قد ظُلِّلَ عليه. فقال: "ما هذا"؟ قالوا صائم قال: ليس من البر الصيامُ في السفر.([3]) وفي رواية: (عليكم برخصة الله التي رخّص لكم) ([4]).

فمن أخذ بلفظ هذا الحديث وظاهره في الرواية الأولى (ليس من البر الصيامُ في السفر) ولم ينظر إلى سبب ورود الحديث قال: كل صيام في السفر حرام لأنه ليس من البر، وإذا لم يكن من البر فهو إذن من الإثم. ولكن من نظر إلى جوّ الحديث وسياقه وسببه، تبيّن أنّ المراد: ليس من البر الصيام في مثل هذا السفر، الذي يشعر فيه المسافر بمثل هذه المشقة الشديدة.ويزيدُ هذا الفهم قولُ الله تعالى في آخر آية الصيام في رمضان (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ويقوّيه الروايةَ التي تدل على أنّ الفطر

---

[1] - انظر : مسلم : 106، والترمذي : 1211

[2] - خ 3665، م2085، ت1731

[3] - انظر : البخاري : رقم 1946، ومسلم : 1115، والترمذي : 710، والنسائي : 2260، وأبو داوود : 2407، وابن ماجة : 1665.

[4] - انظر : مسلم : 1115.

في السفر رُخصة من الله، وصدقة منه، تصدّق بها على عباده، فلا يجوز أن تُرفض مع شدة الحاجة إليها.

ويؤكد هذا الأحاديث الأخرى التي ثبت فيها شرعية الصوم في السفر لمن لم تبلغ به المشقة ما بلغت بهذا الرجل ، وهي بلا شك أحاديث صحيحة. والفقهاء يبينون أنّ الصوم لمن قويَ عليه أفضلُ من الفطرِ.. والفطرُ لمن شقّ عليهِ الصومُ أفضل من الصوم، إذن فلا نحكم على من صام في السفر أنّه آثمٌ بناء على الحديث (ليس من البر الصيامُ في السفر)، فالحديث مقتصر على سببه، وعلى من كان في مثلِ حالِهِ، وإلى هذا قال الإمام البخاري: حيث عنون لهذا الحديث بـ باب قول النبي لمن ظُلِّلَ عليه واشتدّ الحر ليس من البر الصيام في السفر. قال ابن دقيق العيد: أُخذ من هذه القصّة أنّ كراهةَ الصوم في السفر مختصة بمن هو في مثل هذه الحالة ممّن يُجهده الصوم ويشق عليه، فينزّل قولهُ: ليس من البر الصيامُ في السفر على مثل هذه الحالة.إذن من أخذ الحديث بظاهره ولفظه ولم ينظر إلى سبب وروده قال: الصيام في السفر حرام.ومن تأمّل الحديث وتدبره ونظر إليه في سياقهِ وسببهِ ذهب إلى أنّ الحديث مقتصرٌ على من كان في مثلِ حالهِ يعني لمن ظُلِّل عليه واشتدّ الحرّ

فالفطر في السفر رخصةٌ، والصوم في السفر لمن لم تبلغ به المشقة الشديدة مشروعة وجائزة.
خلاصة القول: لا بدّ لفهم الحديث فهماً سليماً دقيقاً من معرفة سبب وروده ليتحدّد المراد من الحديث بدقة حتى لا نقع في الزلل والخطأ وتحريف الحديث عن موضعه والاستدلال به على غير دلالته ومعناه، وبذلك نتقوّل على رسول الله **صلى الله عليه وسلم** ما لم يقل.
5- وضع النّص في غير موضعه الصحيح: كثيراً ما يكون النص صحيحاً لا غبار عليه ولا مطعن فيه ولا خلاف على ثبوته، لكن الخطأ والعيب في الاحتجاج بهذا النص على أمر معين، وهو لا يدل عليه لأنه سيق النص في موضوع آخر.وهذه من المزالق والمحاذير التي يجب التيقظ والانتباه الجيّد لها حتى لا توقعنا في سوء الفهم للأحاديث.
وقد يتساءل أحدنا؟ من أين يأتي هذا الخلل؟ الجواب: يأتي ذلك من سوء فهم النص، ونتيجة للعجلة والتسرع الذي نراه ونلمسه عند السطحيين من الناس الذين يتخرّصون على النصوص بغير بينة، ويقولون على الله مالا يعلمون. ونرى بعض الناس للأسف يلوي أعناق النصوص جهراً لتوافق هواه وتنسجمَ مع نفسِه وتنْصُرَ رأيه. نضرب لذلك مثالاً: في السنة النبوية نجد أمثلةً شتى للاحتجاج بها في غير مكانها الصحيح مثل حديث: "لا حِلْف في الإسلام". هذا الحديث رواه مسلم وغيره. ([1]) . فهو إذن حديث صحيح. ذهب بعض من فهم هذا الحديث فهماً خاطئاً وقاصراً إلى حرمة تحالف الجمعيات والهيئات والمنظمات الإسلامية مع بعضها البعض. واستدلوا بهذا الحديث (لا حلف في الإسلام). وهذا استدلال منهم للحديث في غير موضعه الصحيح.مَنْ رجع إلى كتب الحديث والسيرة النبوية عرف المقصود من الحِلْف المنهي عنه هنا، وهو ما كان عليه الحال في الجاهلية في أول الإسلام قبل أن يستقر التشريع.ومعنى الحلف أو التحالف: أن يتعاقد الرجلان على التناصر والتوارث حتى يصيرا كالأخوين نسبا. وكان ذلك معروفاً في الجاهلية، معمولاً به عندهم، ولما جاء الإسلام عمل به النبي– صلى الله عليه وسلم - وورّث به- كما حكاه أهل السير وصح في الحديث- وذلك في المؤاخاة التي عقدها رسول الله – صلى الله عليه وسلم - بين المهاجرين والأنصار حين قدومه المدينة بعد بنائه المسجد. فكانوا يتوارثون بعضهم دون القرابة حتى نزل قولُ الله تعالى (وأولوا الأرحام بعضُهم أولى ببعض) فخصص الحكم بالقرابة.إذن هذا هو الحِلف المنهي عنه في الحديث وليس التآخي

[1] - انظر : البخاري : 2294، ومسلم : 2529، وأبو داود : 2925.

والتعاون والتناصر على الحق.كان التوارث بالحِلْف فأصبح التوارث بالقرابة فقال النبي – صلى الله عليه وسلم - (لا حِلْف في الإسلام). أما المحالفة على طاعة الله والتناصر في الدين والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق فهذا حكمه باقٍ.
إذن الحِلْف الممنوع في الإسلام شيء، والتحالف والتعاون شيء آخر. فالتحالف والاتحاد والترابط ليس مجرد أمر جائز ومشروع فحسب بل هو أمر واجب وهو فريضة وضرورة: فريضة يوجبها الدين وضرورة يحتمها الواقع.وإذا كان المحظور يتمثل في كلمة التحالف فلنغيرها بكلمة أخرى تؤدي المضمون المراد، فليسّم التجّمع أو التضامن أو التلاحم أو إلى غير ذلك من الكلمات المشابهة، إذ لا عبرة بالأسماء والعناوين إذا اتضحت المسميات والمضامين.هذا مع أنّ النبي – صلى الله عليه وسلم - بعد صلح الحديبية حالف قبيلة خُزاعة.ومن المعروف لدارسي السيرة النبوية أن النبي – صلى الله عليه وسلم - شهد في شبابه مع أعمامه حِلفاً قام به بعض رجالات قريش لنصرة المظلوم ورد الظالم وهو المعروف باسم حلف الفضول، وقال عنه في الإسلام:(لقد شهدت مع عمومتي في دار عبد الله بن جدعان حِلفاً ما أحبّ أن لي به حُمْر النّعم، ولو دعيتُ له في الإسلام لأجبت
إذن من المزالق والمحاذير في فهم السنّة النبويّة: وضع النص في غير موضعه الصحيح، فهذا مما يجب التنبيه إليه والالتفاتُ له، ينبغي وضع النص في موضعه الصحيح.

6- **التمييز بين الوسيلة المتغيرة والهدف الثابت للحديث:** إن بعض الناس خلطوا بين الأهداف التي تسعى السنة إلى تحقيقها، وبين الوسائل الآنية والبيئية. فنرى بعض الناس يركزون كل التركيز على هذه الوسائل.وكأن الوسائل مقصودة لذاتها، مع أن الذي يتعمق في فهم السنة وأسرارها يتبين له أن المهم هو الهدف وهو الثابت، والوسائل قد تتغير بتغير البيئة أو العصر أو العرف. لو نصّ القرآن على وسيلة مناسبة لمكان معين وزمان معين فلا يعني ذلك أن نقف عندها، ولا نفكر في غيرها من الوسائل المتطورة بتطور الزمان والمكان. ألم يقل القرآن الكريم (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوَ الله وعدوكم) [الأنفال:60]. ومع هذا لم يفهم أحد أن المرابطة في وجه الأعداء لا تكون إلا بالخيل التي نصّ القرآن عليها. بل فهم كل من له عقل يعرف اللغة والشرع، أن خيل العصر هي الدبابات والمدرعات ونحوها من أسلحة العصر.وما ورد في فضل احتباس الخيل وعظيم الأجر فيه، مثل حديث: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)([1]) ينبغي أن ينطبق على كل وسيلة تستحدث، تقوم مقام الخيل، أو تتفوق عليها بأضعاف مضاعفة.وقد أكد الرسول – صلى الله عليه وسلم - على نوع خاص من القوة وهو الرمي، فقال: (ألا إن القوة الرمي) حديث صحيح رواه مسلم وغيره ([2]).وأكد – صلى الله عليه وسلم - على ضرورة التدرب على الرمي فقال: (من عَلِمَ الرمي، ثم تركه فليس منّا)([3]) وإذا كان الرمي سابقاً يتم بالسهام والرماح فإنه في أيامنا هذه يتم بالبنادق والرشاشات والمدفعية والصواريخ وقاذفات القنابل وغيرها من وسائل التقدم التكنولوجي العسكري.ويدخل في الإعداد العسكري كذلك تصنيع الأسلحة، وكل ما من شأنه إعداد الأمة للجهاد لكل وسائل القتال الحديثة المشروعة. هذا مثال ذكرناه، لنبين لكم أن الحديث إذا نصّ على وسيلة مناسبة لمكان معين وزمان معين،فلا يعني ذلك أن نقف عندها، ولا نفكر في غيرها من الوسائل المتطورة بتطور الزمان والمكان. من هنا نفهم أن الغاية من استعمال السواك هو المحافظة على نظافة الفم والأسنان، فاستخدام السواك وسيلة، ونظافة الفم والأسنان هدف.

---

[1] - انظر البخاري : 2849، ومسلم : 1871.
[2] - انظر :مسلم 1917، والتارمذي : 3083.
[3] - انظر :مسلم 1919، حم 16885.

وإننا نتساءل هل السواك مقصود لذاته أم هو الوسيلة الملائمة الميسورة في جزيرة العرب؟لقد وصف لهم النبي – صلى الله عليه وسلم - ما يؤدي الغرض ولا يعسر عليهم.
فكانت الوسيلة المتوافرة لديهم عود الأراك. ولا بأس أن تتغير هذه الوسيلة في مجتمعات أخرى، لا تتيسر لها هذا العود إلى وسيلة يمكن تصنيعها بوفرة، تكفي مئات الملايين من الناس مثل الفرشاة.ولا يفهم من حديثنا أن هذه دعوة للتخلي عن السواك.

- أبداً: فإن من استعمل السواك اقتداء بالرسول – صلى الله عليه وسلم - فقد أصاب السنة.
وقال: "لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة".مع علمنا أن السواك له فوائد كثيرة، ووقف العلماء حديثاً على مزايا تركيبيه الكيميائي وفوائده الطبية للفم واللثة والأسنان، ولكن أردنا من خلال ذلك ألا ننكر على من استخدم فرشاة الأسنان.

لهذا ومن خلال فهمنا لسنّة الرسول – صلى الله عليه وسلم - نقول: السواك وسيلة وصفها النبي – صلى الله عليه وسلم - ، كان المقصود طهارةَ الفم. وقد نصّ الفقهاء قديماً على ذلك.قالوا: ويكون العود من أراك وعرجون وزيتون وغير ذلك لا يجرح ولا يضر ولا يتفتت.وقال الإمام النووي: بأي شيء أستاك مما يزيل التغير حصل الاستياك.

ونص الفقهاء كذلك: إن المرء يصيب السنّة بقدر ما يحصل من الإتقاء، يعني نظافة الأسنان.وبهذا نعلم أن الفرشاة والمعجون يمكن أن يقوما مقام الأراك في عصرنا وخصوصاً في البيت وبعد الأكل وعند النوم.
هكذا نفهم سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهكذا نتعامل مع أحاديث المصطفى عليه السلام.وحين يتعامل العقل المسلم المعاصر مع السنّة النبوية بتأمّل وتدبر وإدراك سليم،بحثاً عن غاياته ومقاصده ،فإنه سيستوعب مرامي وغايات التطبيق النبوي للوحي الإلهي، ثم نميز الثوابت عن المتغيرات، وإدراك المقاصد وتحديد الغايات..

وعلينا أثناء تعاملنا مع السنة النبوية أن لايغيب عن بالنا ما يلي :

1 – : اعتقاد أن السنة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، وأن مصدرها هو الله تعالى، قال الله تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:3-4].
وقال تعالى:{وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ} [النساء:113].
وقال- عليه الصلاة والسلام-: (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه). اخرجه أبو داود وصححه الألباني.

2 – : العلم بأن سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم –حجة في استنباط الأحكام الشرعية العملية دلت على ذلك أدلة كثيرة من القرآن والإجماع والمعقول.

أما القرآن: فقد فرض الله على المؤمنين طاعة النبي –صلى الله عليه وسلم –واتباعه وجعل طاعة الرسول طاعة له، وأمر المسلمين برد المنازعة فيما تنازعوا فيه إلى الله، وإلى الرسول، ولم يجعل لأحد الخيار في قضاء الله والرسول، ومن كانت طاعته واجبة فأقواله ملزمة للمطيع.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} [النساء:59].وقال تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً} [النساء:80].

وأما الأجماع: فقد أجمع الصحابة– رضي الله عنهم– في حياته وبعد وفاته على وجوب اتباع سنته، فكانوا في حياته يمضون أحكامه ويمتثلون أوامره ونواهيه ولا يفرقون بين حكم في القرآن أو حكم صدر من الرسول في وجوب الاتباع.

وأما المعقول: فهو أن الله تعالى أمر رسوله بتبليغ رسالته واتباع وحيه، والتبليغ كان بإقراء القرآن وبيانه عليه الصلاة والسلام، وقد قامت الأدلة على عصمته من الخطأ والسهو في تبليغ الوحي ومجال التشريع. وعلى ذلك؛ فالشريعة: هي القرآن وأقوال الرسول –صلى الله عليه وسلم–.

3 – : أن السنة بالنسبة للقرآن الكريم من ناحية ما ورد فيها من الأحكام إما أن تكون مقررة ومؤكدة حكماً جاء في القرآن، أو مبينة وشارحة للقرآن، أو للاستدلال بها على النسخ، أو منشئة حكماً سكت عنه القرآن. نص على هذا الشافعي في الأم.

4 –: أنه يجب قبول ما ورد صحيحاً عن النبي– صلى الله عليه وسلم– سواء كان آحادا أم متواتراً، وسواء كان في الاعتقاد أم في العمل.

5 – : أن ما ورد من السنة تكتنفه أحكام التشريع الخمسة.. فمنها ما يكون واجباً كإعفاء اللحية، ومنها ما يكون مندوباً كالسواك، ومنها ما يكون مباحاً كأفعال النبي –صلى الله عليه وسلم –الجِبِلِّيَّة كالقيام والقعود والأكل والشرب ونحو ذلك، ومنها ما يكون مكروهاً كالوصال في الصيام لغير النبي –صلى الله عليه وسلم– ومنها ما يكون محرماً كالنكاح لأكثر من أربع نسوة لغير النبي– صلى الله عليه وسلم–.

ومن خلال هذا التفصيل يعلم كيف نتعامل مع سنة النبي– صلى الله عليه وسلم –اعتقاداً أو عملاً.